

دكتور عبد السلام عبد العزيز قنوي

تاريخ الدولة المغولية في إيران



اهداءات ٢٠٠٢

أد/ مصطفى الصاوي الجويني

الاسكندرية

الى الأستاذ زاهد كثر د الأرخ الأكر
الأستاذ زاهد كثر مصطفى الصافي الجويني
مع تميّني واحترامي

عبد السلام
١٩٨١/٤/٦

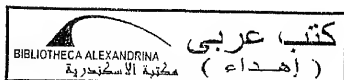
تاريخ الدولة المغولية في إيران

ملاحظات

دكتور

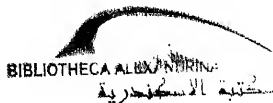
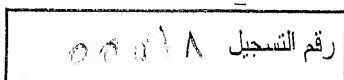
عبد السلام عبدالعزيز نصي

استاذ الدراسات الشرقية المساعد
جامعة عين شمس



كتب عربي
(إهداء)

١٩٨١



دارالمعارف

الناشر : دار المعارف - ١٩٦٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٠ م ٠ ع

مقدمة

تعرضت ايران لحملة مدمرة قدمت من الشرق - من منغوليا - على شكل جحافل بدوية وثنية منعدشة لسفك الدماء وتدمير ما تصادفه امامها ، فكانت حملة مدمرة لم تحدث في تاريخ البشرية من قبل .

جاء المغول بقيادة چنكيز خان وهاجموا البلاد الاسلامية ، وكانت مدينة أوتزار مفتاح اقليم ما وراء النهر أولى بلدان الدولة الخوارزمية التي تعرضت للغزو المغولي في سنة ٦١٦ هجرية ، تبعه سيل جارف من المذابح استمر سنوات طويلة أتوا فيها على كل شيء صادفوه من انسان وجماد وحيوان .

وولجعت القوى الاسلامية المفككة في ذلك الحين والمثقلة في الدولة الخوارزمية وبقايا دويلات السلاجقة والخلافة العباسية المغول بطريقة غير منظملة وفزع شديد لما سمعوه عن فظائعهم وما ارتكبوه من جرائم نزلت على اخوانهم في الدين والعقيدة ، فأصيبوا بصدمات متتالية اتت على كل شيء ، بحيث يمكن القول أن ما شيدته المسلمون طوال القرون الستة من عمران وحضارة وثراث دمره هؤلاء القوم البرابرة بوحشية بالغة ، وتركوا المدين الاسلامية التي كانت في يوم قريب مزدهرة تدب فيها الحياة الآمنة خاوية على عروشها واندثرت مدن متعددة بحيث لم يبق منها سوى الاسم فقط .

وكان استيلاء المغول على البلاد الاسلامية - وايران خاصة - قد تم على مرحلتين ، الأولى كانت بقيادة چنكيز خان مؤسس الدولة المغولية الذي تمكن من تحطيم الدولة الخوارزمية وتفويض بنائها وهي التي كانت تحكم ما وراء النهر وخوارزم وأجزاء من خراسان وغرب ايران ، فخضعت خراسان في عهد چنكيز خان دون سواها من المناطق الايرانية للسيطرة المغولية .

وتصور الحكام المسلمون أن المغول انما قاموا بغارة للنهب والنهب

ليس أكثر ، وأنهم سيعودون الى بلادهم بعد ذلك . وكان الحكام المسلمون في حالة من الضعف لا تمكنهم من مواجهة المغول لأشئ إلا لما كان بينهم من خلافات ومشاحنات لدرجة أنهم كانوا يفرحون عندما يهزم أحدهم ويشتمون فيه . وقد ذكرت كتب التاريخ بعضاً من هذه النواذر منها أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) اتصل سرا بالمغول يحرضهم على الاسماعيلية ووافاهم بخرائط كاملة لواقعهم .

أما المرحلة الثانية فتمت على يد هولاكو خان حفيد چنكيز خان مؤسس الامبراطورية المغولية ، ذلك أن أخاه الخاقان قوبيلاي كلفه بفتح بلاد فارس والجزيرة والشام ومصر ان أمكن ذلك . وأمهده بجيوش مدربة وقيادة عسكرية واعية أشرف بنفسه عليها ، ومنحه حكم المناطق الغربية من الامبراطورية المغولية له ولخلفائه من بعده ، يضاف اليها ما يفتحه من مناطق جديدة . وقام هولاكو خان بالمهمة خير قيام ، قضى فيها على قلاع الاسماعيلية وأباد الشعب الاسماعيلي ، وتقدم نحو بغداد واستولى عليها ، وقتل المستعصم بالله آخر خليفة عباسي حكم في بغداد ، وقضى بذلك على الخلافة العباسية . ثم زحف الى الشام واستولى على حلب ودمشق وأطاح بالحكم الأيوبي في بلاد الشام ، وامتدت فتوحاته فشملت آسيا الصغرى التي كان يحكمها فرع سلجوقي يعرف باسم « سلاجقة الروم » ، وامتد نفوذ المغول فشمّل بلاد البلغار وشرقي أوروبا ، ولم يوقفهم عند حدهم إلا الممالك حكام مصر الذين هزموا المغول هزيمة منكرة في وقعة « عين جالوت » بين بيسان ونابلس في فلسطين ، ولم يدخل المغول مصر وإن كانت سياسة مصر تأثرت بهؤلاء القوم فيما بعد تأثراً كبيراً .

وبعد وفاة هولاكو خان خلفه ابنه أباقا ، وحصل من الخاقان في خانباق (بكين الحالية) على موافقة بحكم ما كان تحت سيطرة أبيه من قبل ، فتأسست في إيران دولة جديدة في ظل النظام الجديد ، عرفت باسم « الدولة الايلخانية » (١) . وقامت هذه الدولة على أنقاض الدولة الخوارزمية والخلافة

(١) ايلخان : كلمة تركية مركبة من لفظين ، هما : ايل وخان . وايل لفظ تركي بمعنى تابع ، وخان بمعنى حاكم وملك ورئيس عشيرة . وبذلك

العباسية وبعض الدويلات الاسلامية الأخرى التي هادنت المغول وقدموا لهم الطاعة والولاء مثل ما حدث من آل كرت في هراة والأتابك سعد بن زنكي في فارس ، فشملت الدولة الايلخانية خراسان وبلاد الجبل وفارس وكرمان وما بين النهرين (العراق) وآسيا الصغرى ، وجزءا من بلاد الشام الى فترة محدودة .

واستمرت الدولة الايلخانية تحكم تلك المناطق مدة قرن من الزمان الى أن انقرضت في سنة ٧٥٦ هجرية ، بعد أن شاخت بالسرعة التي قامت بها ، وأيضا بسبب الصراع بين الأمراء المغول وقادة الجيش ورؤساء القبائل والعشائر المغولية والتتيرية .

والفترة التاريخية التي نستعرضها تعد من أخطر فترات تاريخ ايران وأكثرها اضطرابا وأشدّها فذكا وإيلاما بالنسبة للشعب الايراني نتيجة ما ارتكبه المغول من مجازر ومذابح وتدمير ولم يوقفهم عند حدهم الا اسلامهم الذي هذب من نفوسهم فتحضروا وهدأت نفوسهم وتركو قوانينهم وعاداتهم المغولية واتبعوا الشريعة الاسلامية وخالطوا المسلمين واتخذوهم أصدقاء وأعوانا ودخلوا بلاطهم ومجالسهم بعد أن كان ذلك محرما عليهم . ثم انهم قلدوا الايرانيين في حضارتهم واقتبسوا منهم أشياء كثيرة ، وبعدوا عن بنى جلدتهم في منغوليا والصين الذين انتشرت بينهم البوذية وانخرطوا في الحضارة الصينية وثقافتها ، حتى أننا نجدهم مغولا شكلا ، فرسا حضارة وثقافة . كذلك نجد بعض ملوكهم قد تعصب للإسلام واعتبر نفسه حاميا له مدافعا عنه مقربا رجال الدين الاسلامي له ويؤثرهم على غيرهم من رجال بلاطه بعد أن كان وثنيا مغوليا قلبا وقالبيا .

وعرضت أحداث الدولة المغولية في ايران بطريقة مبسطة وواضحة

=
يكون معنى ايلخان ، الملك التابع أى حاكم احدى الولايات في الدولة ويتبع الخاقان (الخان الأعظم) الذي يحكم الدولة كلها . وقد أطلق هذا اللقب على بيت هولاكو خان ابتداء من أياقا عندما أسند اليهم حكم ايران ، ثم اللصق بحكام المغول في ايران بعد استقلالهم عن الدولة المغولية الأم ، وأطلق اسم « الدولة الايلخانية » على البلاد الايرانية التي حكموها .

مستعينا على ذلك بمصادر فارسية وعربية وأوروبية متخصصة وحاولت أن أوفق بينها واستخلص الحقائق التاريخية منها وتحليلها . وأرجو من الله العليّ القدير أن أكون قد أصابني التوفيق في هذا العمل الذي أقدمه ، وأطمح أن تنال تلك الفترة التاريخية من تاريخ الشعوب الإسلامية من الدراسة والاهتمام ما هي جديرة به لأن التاريخ الإسلامي سلسلة متصلة الحقائق ، وحسبى الله هو نعم المولى ونعم النصير .

دكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي

أستاذ الدراسات الشرقية المساعد

بجامعة عين شمس

القاهرة في أول أبريل ١٩٨٠

الباب الأول

1000

الفصل الأول

المغول :

نبدأ الحديث بالرد على ما يجول في خاطرننا وهي أسئلة تقليدية تنتبدر الى الذهن من أول وهلة عن المغول . من هم طوائف المغول ؟ ، وما أصل هؤلاء ؟ ، وما هي سابقة حضارتهم ؟ ، ومن أين جاءوا ؟ ، ولماذا استولوا على ايران وعادوا الاسلام ؟

ان الجواب على هذه الأسئلة سيوصلنا الى حقيقة هؤلاء القوم .

المغول شعب بدوى ينقسم الى عدد من الطوائف والقبائل عديدة تسكن اقليم منغوليا الذى هو جزء من هضبة آسيا المركزية والشرقية . وكانت هذه القبائل البدوية لا تعرف معنى الحضارة ، بل كانت قبائل نصف وحشية ، ولم تكن لهم سابقة بمدنية وحضارة . ولشدة بدارتهم كانت كل قبيلة من تلك القبائل تكون وحدة متماسكة من ناحية الجنس واللغة ، ويرأسها رئيس يحمل لقب « نويان » تطيعه وتتأمر بأمره ، ولذلك كانت حياتهم فطرية بدائية بسيطة لا يتسرب اليها التعقيد ، وكانوا يقتضون معظم أوقاتهم فى المنازعات القبلية وفى البحث عن منابت العشب والكلأ .

لقد حاول كثير من المؤرخين تتبع الأحداث الداخلية والحروب والمشاحنات التى كانت تنشب دائما بين القبائل المغولية حتى يصلوا الى شعاع يضى الطريق أمامهم ، ولكنها كانت آخر الأمر واهية لا ترشد الباحث فى كتابة موضوع متكامل عن المغول . ومع ذلك فان هناك مصادر كثيرة عن تاريخ المغول بعضها دون باللغة الصينية والبعض الآخر بالفارسية وأيضا باللاتينية أو غيرها من اللغات كالعربية مثلا لكنها لا تمدنا بمعلومات كافية عن أصل القبائل المغولية ، خاصة التاريخ المبكر للمغول ، وان كانت آخر

الأمر تعرض سلسلة من المعلومات الناقصة أو المتناقضة التي تعوزها الدقة في نفس الوقت •

ولا شك أن المعلومات عن المغول قبل قيام دولتهم على يد چنكيز خان تبدو جوهريّة حتى نستطيع فهم التاريخ المبكر للإمبراطورية المغولية ، وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى ، فليس من المتصور أن يخرج چنكيز خان ومعه قبائل المغول والنتنار ويؤسس إمبراطورية كبيرة دون أن يكون لها نظام وقوانين تحكم هؤلاء ، والا لما وصلوا الى قمة المجد نتيجة فتوحاتهم تلك • ان المغول تعاملوا مع شعوب كثيرة شملت الصينيين والترك – جيرانهم – والایرانيين والعرب والأوروبيين وغير هؤلاء من شعوب أخرى وأحرزوا انتصارات باهرة وأظهروا مقدرة فائقة في القتال وسياسة الرعية والشعوب المحكومة ، والتقابل من تلك الشعوب حتى تلك التي انضوت تحت لوائه بحث في أصل هؤلاء وكتب عنهم • ومن حسن الحظ أن مؤرخا ایرانیا كان له سبق الفضل في مدنا بمعلومات وافية قيمة مدعمة بالوثائق عن المغول هو « خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني » ، الذي شغل منصب الوزارة لعسدد من إيلخانات المغول في ایران ، وكتابه « جامع التواريخ » الذي دونه باللغة الفارسية وبأسلوب سهل سلس عام ٧١٠ هجرية (١٣١٠م) فيه الشيء الكثير عن أصول القبائل المغولية والتركية وتاريخها •

ان كتاب « جامع التواريخ » يقع في مجلدين كبيرين ، طبع منهما المجلد الثاني المشتمل على تاريخ الدولة المغولية من عهد « أوكتاي قا آن » حتى هولاكو خان بمدينة لیدن عام ١٩١١م ضمن مجموعة « جب للتذكارية » بتصحيح المستشرق ادمار بلوشيه ، وطبعت منه في باريس سنة ١٨٤٤ قطعة خاصة عن تاريخ هولاكو خان بتصحيح المستشرق الفرنسي كاتر مير ، ونشر المستشرق كارل يوحنا الجزء الخاص بتاريخ السلطان محمود غازان خان في مجموعة جب للتذكارية عام ١٩٤٠ • كما أن له نسخة عربية مصورة موجودة في دار الكتب والوثائق العربية بالقاهرة •

وقد رأى إيلخانات المغول تدوين كتاب في التاريخ – لشغفه الزائد بهذا الفن – بجمع الروايات التاريخية لجميع الأمم التي تدخل في

الامبراطورية المغولية ، أو التي لها علاقة بالمغول من الصينيين الى الافرنج (سكان أوروبا الغربية) . ونفذ بعض هذا العمل ، وكلف القيام به خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني الذي كان يهوديا وأسلم على أرجح الأقوال وعاونوه في هذا العمل الخطير رجل مغولي عالم بالروايات التاريخية المغولية ، واثنان من علماء الصين ، وراهب بوذي من كشمير ومجموعة من علماء ايران وأدبائها . وحاول خواجه رشيد الدين فضل الله تسجيل الروايات التاريخية كما سمعها من روايتها بدون تغيير ، وعلى ذلك فليس كتابه من هذه الوجهة تاريخا علميا بالمعنى المفهوم في العصر الحديث ، الا أنه يشغل في آداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته . وقد قام أستاذنا العلامة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد بدراسة شخصية رشيد الدين فضل الله وكتابه « جامع التواريخ » وأخرج لنا بحثا ودراسات وتحقيقات قيمة عن المغول وعن رشيد الدين فضل الله وكتابه سدت فراغا في المكتبة العربية .

وهناك عدد من الكتب باللغات الفارسية والعربية والافرنجية تعرضت للمغول وتاريخهم لا يسعنا ذكرها الآن ، سنتعرض لها في حينها وفي موضعها .

هوطن القبائل المغولية :

كانت القبائل المغولية تعيش في مستهل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) في هضبة منغوليا ، الواقعة شمال صحراء جوبي بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال خنجان على حدود منشوريا في الشرق ، وتكون الجبال المحيطة بها والتي أشهرها جبال خنجان حاجزا منيعا بين الأقاليم الصينية الحارة وبين الأراضي الباردة في سيبيريا ، وكانت القبائل المغولية في ذلك الوقت تقطن المنطقة الممتدة من سور الصين العظيم جنوبا الى بحيرة بايكال شمالا . وفي الجنوب الشرقي لهضبة منغوليا ، تقع صحراء جوبي التي ليست سوى سهل متسع مسطح أو متموج ، تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة ، اذ جردتها الرياح الشديدة من التربة والرمال حتى ظهرت في بعض جهاتها مساحات من الصخور أشبه بالجزر في البحار . وكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة في أكثر جهاتها بحيث لم تشاهد الا في أماكن متفرقة .

ان الظروف القاسية أملت على سكان البلاد أن يعيشوا عيشة رعوية ،

وأن ينتقلوا من مكان الى آخر سعياً وراء الكلاً . وقد امتاز الشعب المغولى ، كغيره من القبائل التى تقطن تلك المناطق بصفات متميزة تنحصر فى الهجرة وعدم الاستقرار فى مكان معين ، حتى أننا نجد المغولى يكن لحرفة الزراعة كرامة شديدة . وعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تسكن بعض السهول الخصبة أحياناً ، إلا أنهم لم يحاولوا زراعتها بل كانوا يهاجرون فى فصل الصيف من السهول الى جبال ، ولا يتركونها إلا اذا انعدم العشب فيها ، وأصبح من المتعذر عليهم البقاء مع قطعانهم .

ومع ذلك كانت توجد مناطق أهلة بالسكان حيث كانت تقوم الزراعة على أطرافها ، ويسكنها طوائف بدوية وأخرى حضرية تسكن القرى ولذلك كان مستوى المغول الحضارى على درجات متفاوتة ، وأهم منطقتين يقطنهما المغول هما :

١ - حوض بحيرة « بالخاش Balkhache » ويوجد فى وسطه جبال « تيان شان Thian - Chan » و « كوين لى Kuen - Lun » وهضبة القبت وبحيرة آرال ، ويعيش فيها طوائف مختلفة من الجنس الأصفر والأترك .

٢ - البلاد الواقعة بين جبال « سايان Saian » و « آلتاي Altai » و « خينكان Khingan » . وتعد من الناحية الجغرافية من أقصى النواحي معيشة فى كافة أنحاء آسيا المركزية والشرقية ، وتعيش فيها طوائف من الجنس الأصفر من المغول والتتار .

مناخ هضبة منغوليا :

بعد مناخ هضبة منغوليا قاس ، بل شديد القساوة يندر وجوده فى منطقة أخرى فهو يبلغ النهايات العظمى فى الحرارة والبرودة ، وفى جفافه الشديد ، وفى قوة الرياح العاصفة التى لا حد لها . أما البرودة ، فهى الغالبة فى معظم أيام السنة بسبب طول فصل الشتاء إذ يتجمد الماء فى الانخفاضات حتى شهر مايو من كل عام ، ويمكن أن يرى الجليد على أوانى الشرب فى شهر أغسطس . كما أن الصيف لا يكاد يبدأ حتى ينتهى ، وتبلغ الحرارة فى فصل الشتاء فى بعض الجهات ٥٨ درجة تحت الصفر ، وفى فصل الصيف القصير تبلغ درجة الحرارة أحياناً ٦٠ درجة مئوية .

ومما يزيد من شسوة مناخ منغوليا أن الرياح تهب في معظم أيام السنة شديدة عاتية ، حتى أنها تحمل معها الحصى وتنقله الى مسافات بعيدة مما يجعل مواجهتها مستحيلة . ويشهد على شسوة هذا المناخ كل من زار منغوليا منذ أقدم العصور ، يقول المؤرخ هوارث : « ان المناخ بمنغوليا لا يثبت على حال واحد حتى في أواسط الصيف ، وأن الرعد والبرق الذى يؤدي بحياة الكثيرين لا يكاد ينقطع ، والثلج يسقط بكميات وفيرة ، والأعاصير باردة الريح شديدة الهبوب الى حد يصعب معها بقاء الرجل على سرجه » (١) .

وعلى ذلك فان الظروف الجغرافية والمناخية لمنغوليا قد جعلتا منه اقنيميا قفرا لأن الجبال المحيطة بتلك الهضبة منعت عنها الرياح الدافئة الماطرة في فصل الصيف ، علاوة على البرودة الزائدة في فصل الشتاء .

* * *

نأتى بعد ذلك الى ذكر أشهر طوائف المغول التي شاركت في القتال مع جنكيز خان وساهمت في تأسيس الامبراطورية المغولية ، نجد أن هذه الطوائف تشمل الآتى :

١ - قيات : وهى قبيلة جنكيز خان وكانت صغيرة العدد غير منشعبة ، ولد ونشأ فيها مؤسس الامبراطورية المغولية ، وكان والده « يسوكاي بهادر » رئيس وخان تلك القبيلة ، وكانت تدين بالوثنية ، وبرغم قلة عدد أفرادها الا أنها تبوأَت مكاناً مرموقاً بين القبائل والطوائف المغولية بعد ظهور جنكيز خان وقيادته الشعب المغولى .

٢ - أويرات Oirat : وكانوا يقيمون في المنطقة الواقعة ما بين نهر « أونون Onon » وبحيرة باكيال ، ويسكنون منطقة منابع ينسى (سه كيز مور ن) (أى الأنهار الثمانية) (٢) وكانوا كثيرى العدد ، ويتكلمون بلغة تختلف قليلا عن لغة القبائل والطوائف المغولة الأخرى .

(١) Howorth : History of the Mongols, Vol. IV, P. 14-27.

(٢) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، ص ١٥٢ .

وقد تشعبوا الى عدة شعب ، الا أنهم كانوا يأتُمرون بأمر ملك واحد ، ولما جاء چنكيز خان خالفوه بعض الشئ في البداية ، وناصبوه العداء ، الا أنهم سرعان ما قدموا له فروض الطاعة والخضوع وقد صاهرهم چنكيز خان فيما بعد .

٣ - النايماں : وهم من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولى ، وكانوا يقطنون الحوض الأعلى لنهر « أرخون » ، وسفوح جبال آلتاى ، وحول البحيرات الواقعة في تلك المناطق ، ويملكون كل غرب منغوليا ابتداء من شمال نهر أورخون الى نهر ايرتيش . وكانوا بدوا رحل يقيم بعضهم في مناطق الجبال الوعرة ، والبعض الآخر في الصحارى ، وهم يدينون بالمسيحية التي وردت اليهم عن طريق النساطرة من بلاد الشام ، وقد استعار النايماں مبادئ ثقافتهم من الأتراك الأويغوريين جيرانهم في الجنوب . ويعد النايماں أرقى أنواع الترك ثقافة في ذلك الوقت ، وكانوا يتكلمون اللغة المغولية .

وكان للنايماں ملوك أصحاب شهرة ونفوذ قوى ، ولهم جيوش كثيرة ، وكانوا رغم تركيبتهم لهم تقاليد وعادات تشبه عادات المغول ، ويطلق على ملوكهم لقب « كوجلوك خان » أو « بويروق خان » ، ومعنى كوجلوك الملك المعظم والقوى ، أما « بويروق » فمعناه « معطى الأمر » ومع ذلك فقد كان لكل ملك نايمانى اسم أصلى آخر يختاره له أبواه .

٤ - الكراييت Kerait : وموطنهم الولايات الشرقية الداخلة في صحراء جوبى وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين العظيم ، وهم شعب شبه بدوى ينتمى الى أصول تركية ، وكانوا يدينون بالمسيحية . وفي أوائل القرن الحادى عشر الميلادى تحول ملكهم ومعظم رعاياه الى الديانة المسيحية على المذهب النسطورى ، وادى تحول الكراييت الى المسيحية أن أضحو على اتصال بالترك الأويغور ، الذين كان بينهم عدد كبير من النساطرة ، فامتدت مدنيّتهم الى الكراييت . وقد ظلت قبائل الكراييت منذ القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) أقوى قبائل المغول ، واستطاعوا اخضاع أغلب الطوائف المجاورة لهم .

وتذكر الروايات التاريخية أن ملك الكراييت اعتنق الدين المسيحي في سنة ٤٣٨هـ (١٠٠٧م) وأنه قد ذاع أمره في أوروبا ، وراجت الأساطير والخرافات عن هذه الطائفة وملكهم .

وحوالي سنة ١٢٧٠م مات « كور ياكوس بن مير جوز خان » خان الكراييت ، وصادف ابنه طفول بعض العقوبات في الاستحواذ على ملكه ازاء معارضة اخوته وأعمامه ، على أنه ظفر في حروبه على اخوته وأقاربه بمساعدة « يسوكاي بهادر » والد چنكيز خان الذى صار له بحكم ماتهاعدا عليه وأقسما من يمين . كذلك استطاع أن يهزم التتار تلبية لرغبة بلاط « كين » الصينى . وبهذا صار طفول أقوى ملك ورئيس قبيلة في منغوليا وقد منحه امبراطور كين - تقديرا له على خدماته وأعماله - اللقب الصينى للملك وهو « وانج Wang » ، وعرف طفول هذا في التاريخ بلقبه الملكيين الصينى والتركى وهما « وانج خان » .

٥ - المركييت Markit : وهم من المغول ، وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمالي بلاد الكراييت على مجرى نهر « سلنجا » وجنوبى بحيرة بايكال . وكان لهم جيش قوى ذو بأس شديد ، وعرف عن هؤلاء القوم ميلهم الى الشغب واثارة الفتن . ولهذا شن عليهم چنكيز خان حربا شعواء استعمل فيها أقصى ما عرف عن المغول من قسوة وشدة ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل أصدر أمره بالقضاء عليهم جميعا ، فلم ينج من سيوف قوات چنكيز خان الا القليل . وذكر خواجه رشيد الدين فضل الله هذه الواقعة في كتابه « جامع التواريخ » وقال ما ترجمته : « لم ينج من سيوفهم (أى سيوف جنود چنكيز خان) الا بعض الهاربين ، أو من استطاعوا الاختفاء لدى أقاربهم ، أو من كانوا لا يزالون أجنة في بطون أمهاتهم » . (٣) وذكر العلامة القزوينى نقلا عن صاحب كتاب « جامع برزین » أن شعب المركيت مستقل عن الشعب المغولى لكنه كان قويا وصاحب نفوذ كبير . (٤) .

(٣) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، المجلد الأول ، تحقيق بهمن كرىمى ، ص ٧٣ .
(٤) محمد عبد الوهاب القزوينى : ياد داشتهاى قزوینى ، المجلد =

٦ - التتار : وهم طائفة كبيرة تتكون من قبائل كثيرة ، ويتشعّبون إلى شعب كثيرة ، أحرزت شهرة كبيرة ، حتى أن الكثير من المؤرخين يطلقون اسم « تتار » على كافة المغول . وكان التتار يقطنون المنطقة التي تحد شمالاً بنهرى « أرخون » و « سلنجا Selenga » ومملكة القرغيز ، وشرقاً بإقليم الخطأ (الصين الشمالية) وغرباً بممالك الأويغور ، وجنوباً بإقليم التبت . وبصفة عامة يعيشون في الجنوب الغربي من بحيرة بايكال حتى « كيرولين Kerulen » ، وكانوا على صلة بالمسلمين ، كما كان من بينهم مسلمون . وقبائل التتار من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشاً وجبروتاً في أقاليم آسيا الشمالية . ويذكر المؤرخ رشيد الدين فضل الله أن هؤلاء التتار كانوا أكثر قبائل البدو رفاهية وتنعماً ، وأنهم كانوا أثرياء (٥) .

وقبيل ظهور چنكيز خان على مسرح السياسة الدولية استطاع التتار أن يخضعوا أغلب قبائل الجنس الأصفر البدوية ، وكانوا يتمتعون بشهرة واحترام زائد نتيجة قوتهم وجبروتهم بحيث أن القبائل التركية على اختلاف مراتبها وطبقاتها وأهميتها كانوا يتسمون بالتتار ، فأطلق على الجميع اسم « تاتار » أو « تتر » ، يقول رشيد الدين فضل الله : « انه لهذا السبب لا زال حتى الآن في بلاد الخطأ والهند والصين ومنشوريا وبلاد القرغيز والباشقر وصحراء القيقاق ولايات الشمال وأقوام الأعراب والشام ومصر والمغرب يطلقون اسم « تاتار » على أقوام الأتراك » (٦) .

ويعلق بارتولد على ما ذكره رشيد الدين فضل الله عما ذكره عن التتار أنه لم يكن يعرف شيئاً عن استعمال ومدلول كلمة التتر قبل العهد المغولي ،

السادس ، يقول القزويني نقلاً عن صاحب كتاب «جامع برزین» مايلي : «قوم مركيت هر چند از قوم مغول على حده بودند لیکن قوی حال ومعظم بودند » ، ص ٥٢ .

(٥) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٦١ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

فهو يتحدث عن التتر كما لو كان شعبا مستقلا ومفصلا متميزا عن المغول (٧).

ويظهر جنكيز خان على مسرح السياسة الدولية بدأ صراع التتار بهذا . ولما كان هؤلاء التتار يعادون المغول ويعتبرون من الذ أعدائهم ويناصرون القبائل النائرة عليهم . كان جنكيز خان ينظر اليهم بحذر بالغ على أنهم آلد أعدائه وأعداء آبائه وأجداده . فبعد أن انتهى من القضاء على القبائل المناوئة له . تفرغ للتتار ، وكان جنكيز خان مدفوعا بدافع الحقد عليهم والانتقام منهم . فقام ومعه جنوده بالاجهاز عليهم واستئصال شأفتهم ، وأصدر أمرا قاطعا بالآ يترك واحد منهم على قيد الحياة . وتنفيذا لهذا القرار صار جنود المغول يقتلون كل ما هو تنرى حتى النساء والأطفال ، ويشقون بطون الحبالى اعتقادا منهم أن التتار هم سبب الفئنة وأس الفساد الذى كان متوارثا عند المغول . ولم يقف جنكيز خان عند هذا الحد ، بل انه لم يترك فرصة لآى شخص لكى يقوم بحماية هؤلاء التتار او يحاول اخفائهم . ولكن على الرغم من هذه الأوامر المشددة ، فقد أقبل كثير من المغول على الزواج من بنات التتار ، وكان النسل الجديد يضم كبار قواد المغول وزعمائهم (٨) .

ومما سبق يتضح أن التتار كانوا قبائل مستقلة عن المغول ، ولكن من الغريب انه على أثر اقتصار جنكيز خان على التتار ، أطلق اسمهم عليه وعلى أتباعه . وفى بدء هجوم المغول على الممالك الاسلامية كانوا يعرفون بالتتار ، كما أطلق اسم « المغول » و « مغل » فاشتهروا فى التاريخ بهذين الاسمين . كما عرف المغول الذين فتحوا الصين باسم التتر ايضا (تاتار) بالصينية . كذلك أطلق ابن الاثير هذا الاسم على اسلاف جنكيز خان ويقول عنهم فى كتابه الكامل أنهم تتر . وللتتر لهجة مغولية خاصة أدركها محمود الكاشغرى وتحدث عنها فى معجمه « ديوان لغات الترك » ، وذكر اختلاف اللغة التترية

(٧) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد التاسع ، العدد ٦٨ ، مادة تتار ، ص ٢١١ .

(٨) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ١ - مرجع سابق ، ص ٦٢ و ٦٣ .

(م ٢ - تاريخ الدولة المغولية)

عن اللغة التركية ، ويعنى بذلك اختلاف المغولية عن التنترية والتركية (٩) .

وكان يجاور المغول طوائف من الترك يعيشون حياة بدائية أشبه بحياة المغول ، نذكر منهم :

١ - الأتراك الأويغوريون : وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمال شرقي التركستان الحالية . وتذكر الروايات التاريخية ، وهى أشبه بالأساطير أن أوغوز أبا الترك كان يؤمن بالله ويدين بالوحدانية ، ولكن أباه وأعمامه كانوا كفارا فغازعوه عقيدته ، وقاموا ضده وأرادوا القضاء عليه ، فانضم اليه بعض أتباعه ، وانحازوا الى جانبه ، وصاورا يساندونه ويعاونونه فأطلق عليهم اسم « أويغور » ، وهى كلمة تركية ناتجة بمعنى الارتباط والتعاون ، فغلب عليهم هذا الاسم (١٠) .

وقامت الحرب بين الأوغوز والأويغور ، انتصر فيها الأوغوز ، ومع ذلك فإن الأويغور عاشوا تحت امره الأوغوز حتى سنة ٧٤٥ ميلادية حيث انتقل اليهم الحكم والسيادة ، وتلقب أميرهم بلقب « قلنمان » التى عربت الى « الخاقان » . وكان الخاقان الأويغورى يلقب نفسه بأمير (الأون) أويغور (أى أمير قبائل العشرة) والطفوز أوغوز (أى وأمير قبائل الأوغوز التسعة) . واستمرت هذه الدويلة التى رأسها زعيم الأويغور حتى سنة ٨٤٠م ، اتحدت فيها التسع عشرة قبيلة ، الأويغور والأغوز حتى قضى القيرغيز على دولتهم .

وحين غزا القيرغيز بلاد الأويغور ، أجبروهم على النزوح الى حوض نهر تاريم . حيث أقاموا لهم دويلة ظلوا يمارسون فيها الزراعة والتجارة الى أن تخدم چنكيز خان وسيطر على المنطقة بالكامل . وكان الى الغرب من بلاد الأويغور منازل القرلق أصحاب الدولة القراخانية ، ويليهم قبائل الاغوز أو

(٩) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد التاسع ، العدد ٦٨ ، مادة تتار ، ص ٢١٠ - ٢١٢ .
(١٠) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، ج ١ مرجع سابق ، ص ٣٣ .

الغزب منتشرة في مساحة كبيرة حتى بحر قزوين ، ومن هؤلاء السلاجقة
والقجاق والعثمانيون .

وننتج عن اعتماد الأويغور عن الصين ، أن ابتعدوا أيضا عن حضارتها
وثقافتها مؤثرين عليها حضارة السعد ، فاتخذ ملوكهم لقب « شاء » ، كما
استعملوا في كتاباتهم أبجدية ترد الى الأصول السعدية ، فكانت تتلاقى مع
الأبجدية اليهودية المشتقة من الأبجدية الآرامية .

وانتشرت الكتابة الأويغورية انتشارا واسعا بين شعوب آسيا التركية
حتى بعد سقوط دولتهم . وعندما دخل ترك أواسط آسيا في الاسلام ، وما تبع
ذلك من تغيير عقائدهم الدينية ومسايرتهم للحضارة الاسلامية ، انفصلوا عن
الثقافة والحضارة الصينية . كما استعملوا الأبجدية العربية فيما بين القرنين
العاشر والحادي عشر الميلاديين ، واستعملت أيضا فيما بين القرنين الثالث عشر
والخامس عشر بين شعب دولة دشت القجاق المعروفة بالقبيلة الذهبية
والتيغوريين في كتابة التركية القجاقية والتركية الجغتائية .

وكان الأويغور ، رغم أقول نجمهم السياسي كدولة ، يلعبون كأفراد
دورا ثقافيا كبيرا ونسياسيا بارعا عند دول الترك والمغول ، وهم الذين عهد
اليهم جنكيز خان تأديب أولاده ، كما أقاموا على ديوانه ودواوين أبناؤه بين
بعده . بل وصل نفوذهم لدى سادتهم أن كانوا عمال المغول في أغلب البلاد
الاسلامية التي فتحوها . وكان مما دونوه لجنكيز خان « اليااسا » وهي
القوانين المغولية التي عمل بها المغول والتيغوريون زمنا طويلا . كما استعمل
ايلخانات فارس من المغول - أعقاب جنكيز خان وحفدة هولاكو خان - الكتابة
الأويغورية بدورهم في مراسلهم مع بعض أمراء أوروبا في أواخر القرن الثالث
عشر الميلادي ، فكتبوا بها الى بابا روما وفيليب الجميل ملك فرنسا وادوارد
ملك انجلترا بغرض قيام حلف بينهم لحرب المصريين أعداء الطرفين .

٢ - الأتراك القراخطيون : وهم الذين كانوا يكونون دولة كبيرة قبيل
الغزو المغولي ، وتقع ما بين مملكة الخوارزمشاهيين في الغرب ومساكن المغول
في الشرق . وكان شاطئ نهر سيحون يكون الحد الفاصل بين مملكة
القراخطيين وأقاليم الدولة الخوارزمية .

وأصل عولاء من قبائل الخطا النازحين من شمال الصين . وقد ورد اسمهم في المراجع الصينية منذ القرن الرابع الميلادي قبل ظهور الاسلام بزمان طويل . وحدث في بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أن ظهر من بينهم زعيم قوى أخضع هذه القبائل لسلطته ، ونصب نفسه امبراطوراً عليهم . من سنة ٣٠٤ حتى ٣١٥ هـ (٩١٦ - ٩٢٧ م) وسمى نفسه « تاسو Tai-tsu » واستطاع خلفه أن يخضع شمال بلاد الصين . ولقبت أسرته باسم « لياؤو Liau » نسبة الى الاقليم المسمى بهذا الاسم . واستمرت هذه الأسرة تحكم في الصين من سنة ٣٠٤ الى ٥١٩ هـ (٩١٦ - ١١٢٥ م) أي حوالي قرنين من الزمان .

الحياة الاجتماعية :

أما عن حياة المغول الاجتماعية وعلاقاتهم الأسرية ونظامهم المعيشي . فإنه يمكن تلخيصه على النحو التالي :

المغول فرسان رحل يعيشون في الخيام ، وهم قبائل من البدو الرعاة . تحكمهم قوانين وعادات ، ويخضعون لرئيس القبيلة أو الطائفة . ويطيعونه طاعة عمياء ، ويأتمرون بأمره . وكانت حياة المغول تتفق مع بدائنتهم وفقير بلادهم . ولدينا كتاب قيم يحوى تفاصيل دقيقة عن حياة المغول الاجتماعية للمؤرخ هوارث Howarth وعنوانه History of the Mongols ألفه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وطبعه في لندن عام ١٨٧٦ م .

يذكر هوارث أن المغول يعتمدون في طعامهم على الخيل فيأكلون لحومها ومنتجات ألبانها ، كما أنهم يأكلون لحوم الحيوانات على اختلاف أنواعها ، ويدخل في ذلك لحوم الكلاب والذئاب والثعالب والفئران . وأيضا يأكلون لحوم الحيوانات الميتة ولحوم البشر خاصة من أعدائهم . وقد ذكر هوارث ذلك صراحة ، فقال : « كان من عادة المغول أكل لحوم أعدائهم وشرب دمائهم » وأيضا « أن المغول في إحدى غزواتهم في الصين ضحوا بواحد من كل عشرة رجال في جيوشهم عندما نفذ طعامهم ليكون طعاماً للباقيين » (١١) .

وكان الرعى والصيد عملهم وحرفتهم الرئيسية الذى تدخل الحرب عليه شيئا من التنويع وكانوا عندما تذوب الثلوج ينتقلون شمالا انتجاعا للمراعى الصيفية ، كما ينتقلون مع الشتاء جنوبا الى المراعى الشتوية على جارى عادة أهل السهوب (١٢) .

أما فى فصل الصيف فلا يأكل المغول من اللحوم الا قليلا بعد أن يجففوها بطريقة عجيبة ، وذلك أنه اذا مات لديهم ثور أو جواد قطعوا لحمه الى شرائح رقيقة . ويعلقوها فى الشمس والهواء لتجف دون أن يعتريها الفساد . وكانوا يستخرجون من ألبان البقر والغنم الزبد والجبن أما ألبان الأفراس فيستخرجون منها نوعا من اللبن المخمر (الرائب) يعرف عندهم باسم « كومس » . وعن هذا اللبن المخمر يقول هوارث « ان المغول كانوا يضعون لبن الفرس فى قربة ثم يقلبونه بشدة بقطعة من الخشب ، وبعد أن يأخذوا منه الزبد بهذه الطريقة ، يتركونه حتى يصبح حامضا ، ثم يشربونه فيكون لهم منه غذاء لا بأس به » (١٣) .

أما عن الملابس التى كان يرتديها المغول ، فانها كانت بسيطة للغاية تتناسب مع حياتهم البدوية ، وكانوا يصنعونها من أصواف الغنم ووبر الجمال ، وأحيانا من جلود الحيوان ، وتكاد ملابس النساء تشبه ملابس الرجال . ومن عاداتهم عدم استبدال ملابسهم الا مرة واحدة كل شهر ، وفى فصل الشتاء لا يغيرونها أبدا . ونادرا ما كانوا يستحمون ، لذلك اتصفوا بالفقرارة والفتونة والنجاسة . ومما يذكر عنهم أنهم كانوا اذا مروا بمكان فإن رائحتهم تلتصق به حتى مدة طويلة ، أما بيوتهم فكانت رائحتها تزكم الأنوف ولا يطبق أحد البقاء فيها لعفونتها ، وقد ذكر ذلك هوارث فقال « ويقال أنهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم البتة ، ولا يميزون بين طاهر ونجس » (١٤) .

(١٢) هـ . ج . ولز : معالم تاريخ الانسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، المجلد الثالث ، الطبعة الثالثة ، القاهرة سنة ١٩٧٢ ، ص ٩٢٦ .
(١٣) هوارث ، المصدر السابق ، ص ٥٩ .
(١٤) المصدر نفسه ، ص ٤٩ و ٥٠ .

ولا شك أن اتصالهم بالصينيين في الشرق والمسلمين في الغرب جعلهم يتأقرون بشعوب المنطقة التي استولوا عليها وتعايشوا معها في طرق حياتهم ، وتغيرت ملابسهم عما كانت عليه من قبل ، وبخاصة تم هذا التحول بعد تأسيس امبراطوريتهم وخروجهم من أرضهم الجرداء ، وذكر بعض المؤرخين أنهم رأوا المغول يلبسون الحرير والفراء الثمينة ، وتزين نسائهم بالحلى والجواهر ، ويهتمون بنظافتهم وهندامهم ، كما يفعل اباطرة الصين وملوك وأمراء المسلمين . ولكن كان ذلك في القرن الثالث عشر الميلادى بعد أن استسوا امبراطورية واسعة الأرجاء . وبعد أن أصبحوا سادة وصاروا يستوردون الحرير من الصين وفارس والفراء الثمين من روسيا وغيرها من البلاد الأوروبية التي كانت تدين لهم بالطاعة أو تتصل بهم .

ولم تكن مساكن المغول أحسن حالا من مساكن غيرهم من البدو الرحل . إذ كانت تصنع على الأخرى من الصوف ، وإن كانت تختلف في طريقة إقامتها . فبينما كانت بيوت البدو غيرهم . وبخاصة جيرانهم الترك ، مبنية من أعلاها . كانت سقوف بيوت المغول على شكل نصف دائرة حتى لا تجرفها الرياح ولا تتقلب بسهولة عندما تشدد العواصف . وكانت من أجل ذلك دافئة شتاء ، معتدلة صيفا ، وكانت تشبه أناء مقلوبا قائما على حوائط دائرية على صوف مثبت على عيكل من الألواح الخشبية المتصلة ببعضها بقطع من جلود الحيوانات .

أما حاجاتهم ووسائل معيشتهم فكانت بدائية وبسيطة أيضا . وكانوا يضعونها فيما يشبه الصناديق من النسيج المتين المغطى بالصوف حتى لا تعطب . وكانوا إذا عبروا بذلك الصناديق الأنهار أو نزل عليهم المطر يدعونها بشجر الحيوان أو ببلدن البقر حتى لا تتأثر بالماء . ويذكر هوارث أن بعض بيوت المغول كانت كبيرة تجرها عربات عند نقلها ، يعلق في الواحدة عشرون بقرة وبعضها صغير يكفى ثور واحد لنقلها . أو تنقل على ظهور الجمال (١٥) .

وكانت أبواب بيوت المغول فتحة عادة إلى الجنوب تجنباً للرياح القادمة

من الشمال والغرب الفاسية ، وكانت النار تظل مشتعلة دائما في وسط البيت المغولي . أما ترتيب هذه البيوت من الداخل فكان بسيطا ، ويعلمون على الحوائط الأسلحة والأواني الجلدية التي كانوا يضعون فيها الألبان ومستخرجاتها ، وكانوا يضعون في الجزء الداخلي المواجه للباب فراش رب البيت ، ويخصصون الجانب الغربي من البيت للرجال والشرقي منه للنساء (١٦) .

أما عن حياتهم الأسرية فكانت بسيطة للغاية وفطرية ، ومع ذلك كان لهم من القوانين والعرف والتقاليد ما يناسب هذه البساطة . أما حياتهم الزوجية فكانت بدائية لا أثر فيها لأعمال التفكير الفاضح ، فلا هي بالتى تقدر الزواج حق قدره ، ولا هي بالتى كانت تقدم للزوجة من الحقوق ما يكفل لها السعادة والهناء . وكان الزواج عندهم عملية تجارية بحتة ، ويوضح لنا هوارث ذلك بقوله « يجب أن نعلم أنه لا يوجد رجل بين المغول له امرأة إلا اذا كان قد اشترها ، ويحدث دائما أن تتجاز بناتهم سن الزواج دون أن يتزوجن لأن آبائهن يحتفظون بهن حتى يستطيعوا بيعهن » (١٧) .

ولا يعتبر المغولي المرأة زوجته الحقيقية حتى تنجب له طفلا ، أما اذا كانت عاقرا فيمكنه طردها ولا يقدم الزوج مهرا لزوجته حتى يصبح لها طفل ، وكانوا يشجعون على الانجاب حتى يكثر عدد أفراد القبيلة ليقوى من شأنها ويشد من أزرها ، وكانت المرأة المغولية كلما أنجبت أكثر زيد في احترامها ، وكان المغول ، وهم يعيشون وسط مجموعة من الطوائف والعشائر القوية يهدفون الى الاكثار من نسلهم بالتنشجيع على الزواج ، لذلك صار العرف عندهم عدم تحديد عدد الزوجات كل حسب قدرته وقوته ، فكان للفردي المغولي أن يتزوج ما شاءت له رغبته أن يتزوج حتى صار للبعض منهم قرابة المائة زوجة ومن اقرب الأمثلة على ذلك چنكيز خان نفسه ، فقد قيل أنه بنى بأكثر من خمسمائة زوجة في وقت واحد من بنات الأمراء أو الخانات ، ومع كثرة عددهن كان چنكيز خان يفضل خمساً منهن .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص ١٩٤ و ١٩٥ .

ويروى هوارث أيضا عن الحياة الاسرية المغولية أن الابن في بعض الأحيان كان يستولى على زوجات أبيه ما عدا أمه ، وذلك لأن منزلة الأب والأم تتوّل الى أصغر الأبناء ، ومن واجبه أن يشرف على أرامل أبيه ويرعاهن . ومما يجر عليه اللوم أن يدعن يذهبن الى منازل آبائهن بعد موت والده (١٨) . ولم يكن هناك فارق بين الأبناء الشرعيين والأبناء الذين يولدون من السرارى والاماء ، في الميراث والحقوق الأخرى . ولم تكن هناك غوارق اجتماعية تحول بين زواج أى رجل مغولى من الفتاة التى يرغبها مهما كانت منزلتها في المجتمع المغولى .

وكانت القوانين السائدة لدى المغول قبل تأسيس امبراطوريتهم تظهر عليها الشدة والقسوة لردع المعتدين وحفظ الأمن في مجتمعهم . وهى التى أقرها چنكيز خان وأضاف اليها أشياء تتناسب مع مكانة المغولى في البلاد المفتوحة ، فقد كانت تقضى بالموت على من يرتكب الزنا أو قطع الطريق أو السرقة الكبيرة أو التجسس أو يستخدم السحر والشعوذة في حياته . كما كانت تقضى بضرب من يرتكب سرقة صغيرة ضربا مبرحا قد يؤدى بحيياة المصروب في بعض الأحيان . أما اذا كانت الجريمة سرقة جواد أو شئ كبير ، فكانوا يقطعون المجرم نصفين بالسيف الا اذا كان قادرا على افتدائه نفسه بدفع تسعة أمثال الشئ المروق (١٩) .

وكان المغول ، كغيرهم من الشعوب البدائية القديمة ، يدينون بديانة وثنية تعرف بالشامانية ، وظلوا يعتنقونها حتى حلت محلها البوذية . وكان المغول طبقا لعقائد الشامانية يعبدون كل شئ ، يسمو على مداركهم وكل ما يرعبهم ، ويدخل الخوف على قلوبهم ، فلهم آلهة في النهر والجبل والشجرة الكبيرة ، وأيضا لهم آلهة في الشمس والقمر وفي البرق الخاطف والرعد القاصف ، بل وأكثر من ذلك لهم آلهة عن يمينهم وعن شمالهم وأمامهم وخلفهم وتحت أرجلهم . واذا اتجهوا في صلواتهم صوب الجنسوب دل ذلك على

(١٨) هوارث ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

(١٩) د. مصطفى طه بدر : محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول ، الجيزة سنة ١٩٤٦م ، ص ٥٦ .

احترامهم للنار . وصوب الشرق دل ذلك على احترامهم للهواء ، وصوب الغرب دل احترامهم للماء ، وصوب الشمال كان في ذلك احترامهم للموتى . وكان المغول لا يتقربون الى هذه الآلهة كما فعل قدامى المصريين أو الأوغريق ، بل كل ما عثر عليه عندهم كان عبارة عن خليط من أكوام الحجارة والخرق البالية وشعر الحيوانات وجلودها ويسمونها « أوبو » . تقام بجوار الأنهار أو على قمم الجبال أو تحت الأشجار الضخمة حيث تتقدم لها القرابين المختلفة . كما كان المغول يصنعون أشكالا آدمية من الصوف يضعونها داخل بيوتهم أو أمامها ، ويعتقدون أنهم بذلك يبعدون الشر عنها ، ويزيدون من عدد الحيوانات فيها وإدراج ألبانها أضعافا مضاعفة .

أما رجال الدين عند المغول فكانوا أشبه بالكهنة عند المصريين القدماء ، طبقة مسخرة تجيد علم الفلك وتحدد وقوع الخسوف والكسوف في أوقاتها ، وتعين للمغول الأيام الصالحة للعمل وغير الصالحة له . وإن لم يصل نفوذ هؤلاء الكهنة الى نفوذ نظرائهم في مصر القديمة وكان المغول يأخذون بآراء رجال الدين عندهم قبل أن يقدموا على عمل هام ، ولا يجمعون جيشا ولا يدخلون حربا إلا بعد أخذ موافقتهم . وكان هؤلاء الكهان يعتمدون فيما يدلون به من آراء على أشكال الخطوط والشقوق التي تظهر على اكتساف الحيوانات المحروقة ، ويعتبرون الأغنام والوعول هي أصلح الحيوانات لهذا الغرض ، وخاصة إذا كانت مقدمة كقرابين للآلهة (٢٠) .

صفات المغول :

اشتهر المغول بصفات ثلاث وتميزوا بها دون سائر الشعوب الأخرى ، الأولى صفات جسدية ، والثانية صفات خلقية ، والثالثة صفات حربية . وهذه الصفات الثلاث اكتسبها المغول نتيجة نشأتهم في بلاد فقيرة قاسية المناخ تتناسب مع البيئة التي شبوا في أحضانها . إن مميزات المغول الجسدية تتمثل في الرأس الكبير والوجه العريض والأسنان القوية والرقبة القصيرة والصدر الواسع والساقين القصيرتين المقوستين وقصر القامة والبشرة الصفراء السمكية .

وتسبب فقر البلاد وقلة الغذاء وقسوة المناخ في نحول الوجه وبروز عظم الخد وقصر القامة منذ أمد بعيد . كما أن البشرة السمكية والجفون المسترخية التي حياهم الله بها تقيهم الرياح العاتية التي يتعرضون لها في بلادهم المترامية في معظم أيام السنة . أما اعوجاج السيقان فسببه قضا المغول - رجالا ونساء - معظم أوقاتهم على ظهريور جيادهم ذات الركاب القصيرة .

وعن صفاتهم الخلقية فإن البيئة التي عاشوا فيها أضفت عليهم صفاتا خلقية فريدة ، فهم كانوا يعيشون عيشة بدوية وسط قبائل وطوائف كثيرة أقوى منهم عدة وعددا ، وأقضى منهم شراسة وحبا لسفك الدماء ، وكان لا بد لهم أن يصطدموا بتلك القبائل حينما كانوا يعملون على توفير المراعى لمشايخهم في فصول السنة المختلفة ، ولذلك كانت تقوم المعارك الطاحنة وتمتد أحوالها بين القبائل المغولية على المراعى الخضراء ومجارى المياه .

وفرضت عليهم بيئتهم البدوية وحالة التنقل التي استلزمها ظروف حياتهم المعيشية أن يدرّبوا أنفسهم على حب المخاطرة ومواجهة الشدائد بثغر باسم ، وأن يغرسوا هذه الصفات في نفوس أطفالهم منذ نعومة أظفارهم . فكانوا يدرّبونهم - وهم في الثالثة من أعمارهم - على استعمال القوس والنباب . كما كانوا يدرّبونهم على صيد الأرانب والفئران . وكما يركب الكبار من المغول ظهور الجياد ، كان الأطفال يركبون الخراف ويتعلقون بها (٢١) . وهكذا كان ينشأ الطفل المغولى في طبيعة قاسية وحياة أشد قساوة . لذلك كانت حياتهم حربا مستمرة مع الطبيعة التي أمدتهم بأعظم سلاحين وهما الصبر والجلد ، فأعطتهم صفات المحاربين .

وكان المغولى - كغيره من الشعوب سكان البوادر والقفار - صريحا في الحق جريئا في ابداء رأيه ، لا يتردد ولا يلين . وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة بما فرضه من العادات الموروثة .

أما صفاتهم الحربية ، فكان المغول فرسانا بطيبتهم ، وكانوا على اختلاف أعمارهم يقضون حياتهم على ظهور الجياد ، ولا يكادون ينقلون قدما على الأرض . ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين يختصون بالفروسية ، بل ان النسوة من المغول أيضا كن يمتطين الخيل كالرجال تماما ، وكن يستعملن القسي والسهام ، ويقدرن على البقاء على ظهور الجياد زمنا طويلا . ويذهبن مع الرجال الى ميدان القتال .

وكانت عادة المقاتل المغولي أنه اذا سار للقتال يحمل كل ما يحتاجه أثناء الحرب ، فيحمل آلات لشحذ رماحه ، كما كان يحمل الابر والخيوط لاستعمالها عند الحاجة ، ولا يأخذ معه من المؤن الا قريبا من اللين ، وآنية من الفخار ليطبخ فيها طعامه وخيمة صغيرة وآلة لحفر الأرض وكيسا من الجلد يحمل فيه ملابسه ويستعمله في عبور الأنهار .

وكان صبر المغولي يفوق الوصف ، فقد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفا ، بل ويحاول ما أمكن أن ينتظر بالمرح كأنه لا يعاني شيئا . والرجل منهم على الرغم من قوة شهيته التي تدفعه الى أن يلتهم ما يقدر بخمس كيلو جرامات من اللحم في الولاية الواحدة وربع شاة في اليوم ، نجده في الحرب يصبر على آلام الجوع ، وقد يحدث في بعض الأحيان أن يسير المغولي مدة عشرة أيام دون أن يتناول أى طعام ، وفي هذه الحالة يعيش على دماء جواده ، ذلك أن المقاتل المغولي كان يقطع شريانا من شرايين حصانه ويمتص من دماؤه ما يسد به رمقه ، ثم يسد الشريان ثانية . كما أنه كان يكتفى بما يتناوله من اللين الحامض (الكومس) الذي يحمله في قربه ، كذلك كانت خيول المغول تشاركهم صبرهم هذا ، فكانت لا تحتاج الى عليقتها من شعير أو فول ، بل تحفر الأرض بحوافرها وتاكل ما يظهر من جذور النبات .

كذلك كانت شجاعة المقاتل المغولي مضرب الأمثال ، وشهد بشجاعتهم أعداؤهم أنفسهم يقول ابن الأثير : « سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قد قدم رسولا انه قال : من حدثكم أن التتار (ويعنى ابن الأثير بذلك المغول لأنه لم يفرق بين التتار والمغول) انهزموا وأسرؤا فلا تصدقوه ، وإذا حدثكم

أنهم قتلوا صدقوا ، فان القوم لا يفرزون أبدا ، ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة ، وضرب رأسه بالحجر الى أن مات ولم ييسلم نفسه للأسر» (٢٢) .

وإذا كان ذلك حال الفرد المغولي داخل قبيلته فان تجمع المغول كشعب لم يتم الا في القرن الثاني عشر الميلادي ، ذلك أن المغول كانت تخضع لأسرة « كين » الصينية التي اتخذت من بكين عاصمة لها . وابتدأ تدريب المغول على الشئون العسكرية بعصيان ناجح قاموا به على أسرة كين وحكمهم ، فتعلم المغول أثناء الكفاح شيئا كثيرا مما لدى الصينيين من العلوم العسكرية . وما أن وافت نهاية القرن الثاني عشر حتى أصبحوا شعبا مقاتلا من طراز ممتاز يذقسه القائد الذي يستطيع أن يقودهم ، فكان ذلك من نصيب أحد المغول من قبيلة قيات هو تيموجين الذي عرف فيما بعد باسم چنكيز خان .

الفصل الثان

چنكيز خان :

ان الشخص الذى استنطاع أن يوحد القبائل المغولية المبعثرة وأسس أعظم امبراطورية في العالم عرفها التاريخ كان يسمى في بداية أمره « تيموجين » • ولد تيموجين في منغوليا عام ٥٤٩ هـ (١١٥٥ م) في اقليم « دولون بولدق » الواقع على الضفة اليمنى لنهر أونون ويقال أنه أخذ اسمه الاصلى هذا من اسم أمير تغلب عليه أبوه « يسوكاى بهادر » حوالى الوقت الذى ولد فيه تيموجين (٢٣) •

وكان والد تيموجين يدعى « يسوكاى بهادر » رئيس و خان قبيلة « قيات » إحدى قبائل المغول الشهيرة • واشتهر يسوكاى بهادر بين قومه بانتصاره على قبائل التتر المجاورة له والتي كانت تخشاهما معظم قبائل وطوائف المغول ، فالتف حول رأيته عدد لا يستهان به من زعماء القبائل المغولية • وتزوج يسوكاى بهادر من نساء كثيرات من شتى الأقوام ، لكن أشهر نسائه كانت والدة تيموجين ، وكان اسمها « أولون فوجين » ، وقد تزوجها يسوكاى اغتصابا اذ اختطفها ليلة زفافها في إحدى غاراته على قبائل الماركيت • ومع أنها كلفت حياتها لوسطها الجديد وأصبحت أما لتيموجين إلا أنها كانت على يقين بأن قبيلتها لابد وأن تهب لأخذ الثأر في يوم من الأيام مهما طال الزمن • وأنجبت هذه السيدة أربعة أولاد اشتهروا في التاريخ ، ولم تنجب اناثا قط • كما كان ليسوكاى بهادر ابن خامس من زوجة أخرى اسمه « بلكوتى نويان » ، وكان دائما ملازما لأخيه چنكيز خان في حروبه الطويلة •

(٢٣) بارتولد : مقال « چنكيز خان » بدائرة المعارف الاسلامية ، المجلد ١٢ ، العدد ٩٥ ص ٣٧٩ •

توفى يسكاى بهادر عام ٥٦١ هجرية (١١٦٧ م) وكان ولده الكبير تيموچين لا يزيد عمره على ثلاث عشرة سنة ، فترك له وهو في هذه السن المبكرة أعباء كثيرة ومسئوليات جساما ، فكانت تركة مثقلة لا يقوى على حملها طفل في الثالثة عشر من عمره وبخاصة أنه كان الوريث الشرعى لرئيس القبيلة ، علاوة على رئاسة حلف مغولى كان والده قد تزعمه وهزم به الصينيين ، وكان أول عمل أقدم عليه حلفاء أبيه إن حلوا الحلف الذى كان يرأسه يسوكاى بهادر والد تيموچين عقب وفاته مباشرة ، كما انفض عنه أيضا أكثر الأقارب والأتباع ، واستغلت قبيلته صغر سنه ورمته بالضعف ورفضت طاعته ، وأعلنت التمرد والعصيان وفتفت حول زعيم آخر ، فاضطر تيموچين هو وأمه وأخوته أن يهيئوا على وجوههم وتضوا فترة من حياتهم يعيشون على صيد الحيوان والإسماك بميد أن تخلى عنهم الناس جميعا وذاقوا مرارة الجوع والفقر والحرمان .

وقد فضلت القبائل المغولية الانضواء تحت راية أحد زعماء القبائل المغولية . وعندما توطد له الأمر لم يشعر براحة طالما بقى هناك من يطالب بحقه الشرعى فى وراثة زعامة يسوكاى . لهذا أخذ يطارده تيموچين ، وتمكن فعلا من القضاء القبض عليه ، إلا أنه تمكن من الفرار بمساعدة أحد حراس أعدائه الذى رقى قلبه عليه وفك أسره وأطلقه من عقاله .

وقد حبت طبيعة منغوليا الشباب تيموچين سيئاتها وحسناتها ، نوعيته قوة جسمانية رهينة وتعطشا لسفك الدماء وحقدا على المجتمع ، وذلكاء فطريا منذ نعومة أظفاره . وكان تيموچين المصارع الأول بين أقرانه . وفى سن الشباب المبكر أحب فتاة تسمى « بوتاي » ، وكان ذلك قبيل وفاة والده وكانت تصغره بثلاث سنوات ، فكلم والده عنها ، وحينما قال الوالد أنها ما زالت صغيرة أجاب تيموچين أنه لابد وأن تكبر ويعلمها الزمن الخبر .

كان تيموچين وهو فى سن الشباب عنيدا ، ونظر حوله فقرّر أن يعمل بمفرده على الرغم من أنه كان بإمكانه الاستفادة من جهتين عند انفلاته من الأسر والحبس . هما عشيرة والد خطيبته بوتاي ثم قبيلة

الكرايبيت والتي كانت بين ملكها ووالده علاقات وطيدة ومؤاخاه . وكان والد بوتاي من الزعماء الأقوياء وكانت صلته بوالد تيموجين وطيدة للغاية . اما قبيلة الكرايبيت فانها كانت ذات ثراء وقوة وبامكانها تقديم العون الى تيموجين لاستعادة ملك والده ، لاسيما وان ملكها طغرل المعروف عند الغرب « بالقديس جون . Prestre John » يعتبر نفسه بمقام الوالد بالنسبة لتيموجين لأنه شرب مع يسوكاي بهادر نخب الصداقة الأبدية التي تحتم على أى منهما بمساعدة أولاد الثاني فيما اذا دعت الحاجة (٢٤) ، الا ان تيموجين تردد في طلب الاستعانة بأى منهما في بادئ الأمر وذلك حسب قوله بأن زيارة الفلن لأصدقائه لا تجلب غير العار والاحتقار ، وصمم ان لا يزور طغرل كلاجى ، وانما كحليف .

تمكن تيموجين بشجاعته من المحافظة على مراعى أسرته فتحسنت حالته المادية ووقفت بجانبه أمه بنفسها في تفر ضئيل من الذين فضلوا البقاء بجوار ابنها ، ثم بدأت تتوافد عليه بعض القبائل لما توسعت فيه زعامة مقبلة بعد ان بلغ سن السابعة عشر . كما حاول تيموجين اجبار المشفقين من الأتباع والأقارب على العودة الى قبيلتهم ، وناصبهم العداء ، وقبل بعضهم العودة الى حظيرة القبيلة ، أما أولئك الذين رفضوا الانصياع لتيموجين ، فانه اصطدم بهم واشتبك معهم في قتال رهيب ، انتصر فيه تيموجين . آخر الأمر . وبعد ان دانت له قبيلة قيات برمتها قرر الزواج من خطيبته بوتاي . ثم خف لزيارة طغرل ، وهو موفور الكرامة طالبا منه التحالف ضد قبائل المركيت التي اختطف في احدى غاراتها زوجته بوتاي اخذا لثار أمه أولون فوجين الذى مضى عليه ثمانية عشر عاما . وقد تمكن تيموجين من الانتصار على المركيت واستعاد منهم زوجته (٢٥) .

وواصل تيموجين خطة والده في الزعامة والتوسع على حساب المناطق

Grosset, R. : L'Empire Mongol, VIII, Paris 1945, (٢٤)
P. 48 - 54.

(٢٥) مير خواند ، روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ٤٨ .

المجاورة متحالفا مع قبيلة الكراييت وامبراطورية الصين الشمالية المعروفة بامبراطورية كين Kin ، وأحرز نصرا حاسما على عدوه « تركوتاي » زعيم قبيلة التايجوت . كما بسط سيطرته على منطقة شاسعة من اقليم منغوليا تمتد حتى صحراء جوبي حيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار ، ثم عمل بعد ذلك على اخضاع سائر جيرانه من القبائل الأخرى .

ان الانتصارات التي أحرزها تيموجين واتساع نفوذه وفرض سيطرته على القبائل المغولية وغيرها جعلت حليفه رئيس قبيلة الكراييت «أونك خان» ينظر الى تيموجين الشاب بقلق زائد ، فدب بينهما الخلاف والشقاق بعدد أن كانت بينهما المودة والتحالف ، لكن خان الكراييت وقد بدأ يخشى قوة تيموجين أخذ يعمل على وأد أعماله حتى لا يستفحل أمره ويصعب بعد ذلك معاملته ، وفهم تيموجين قصد أونك خان وما يدور في مخيلته وعلم بما يدبر له في الخفاء ، فأخذ أتباعه وغادر المكان دون ن يستأذن من مضيفه وحليفه الذي ندبه وأوقف تيموجين ومن معه من رجال ، وحدثت بين الفريقين معركة شديدة انتهت بقتل خان الكراييت وفوز چنكيز خان ، وكان ذلك سنة ١٢٠٣ م . ثم استولى على عاصمته قره قورم وجعلها قاعدة لملكه . وأصبح تيموجين بعد انتصاره على خان الكراييت أقوى شخصية مغولية ، فنودي به خاقانا ، وعرف باسم « چنكيز خان » (أى امبراطور العالم) من قبل زعماء المغول والتتار ، كما اعترف به امبراطور كين الصينى (٢٦) .

واشتغل چنكيز خان في الفترة من سنة ١٢٠٣ حتى سنة ١٢٠٦ بتوطيد سلطانه والسيطرة على كافة المناطق التي يسكنها المغول والتتار الواقعة بين نهري أمور في الشمال الشرقى وتاريم في الجنوب الغربى ، أى كافة المناطق الواقعة خارج السور الصينى العظيم .

وفي سنة ٦٠٠ هجرية (١٢٠٤ م) أغار چنكيز خان على قبيلة النايامن المغولية وهزمهم عند حدود جبال آلتاي ، وجرح في المعركة التي نشبت بين الطرفين خان النايامن « تايانك خان » ، وما لبث أن توفي بعد قليل . وبعد

الاستيلاء على ممتلكات النايमान ، تمكن چنكيز خان من هزيمة أقوام أخرى من المغول كانت تسكن عند حدود التبت والحدود الشرقية للتركستان ، وأيضاً تمكن في سنة ٦٠٣ هجرية من هزيمة الترغيز ، وهم إحدى القبائل التركية القوية المجاورة للمغول والتتر ، أما ملك الأويغور فإنه أسرع بتقديم ولائه وطاعته الى چنكيز خان ، ثم صار فيما بعد أقوى حليف له .

واتجه چنكيز خان بعد ذلك الى اصلاح الشئون الداخلية لمملكته الناشئة ، فدعى أول برلمان له « قوريلتاي » عام ٦٠٣ هجرية (١٢٠٦ م) بعد أن وحد منغوليا بأكملها تحت سلطانه . وفي هذا الاجتماع حددت لأول مرة شارات ملكه ونظم امبراطوريته بأن وضع لشعبه دستوراً اجتماعياً متين البنيان ودستوراً حربياً لا يقل عنه قوة وصرامة ، وتكون أحكام هذا وذاك قانون « الياسا » الذي نفذه المغول ومن انضم تحت لوائهم بكل دقة وقدره وتقديس الكتب السماوية لأصحاب الديانات المنزلة .

الياسا الچنكيزية :

رأى چنكيز خان بثاقب نظره أن الآداب والعرف والتقاليد المغولية التي كانت سائدة حتى عصره لا تنفي بمتطلبات الدولة الجديدة ، كما أنها لم تكن مدونة فأعاد النظر في تلك العادات ورد بعضها وقبل معظمها ، وأضاف إليها بعض الأحكام والقواعد وجعل لها صيغة رسمية ، وأمر بأن يتعلم الأطفال المغول الخط الأويغوري ، كما أمر بأن تدون تلك النظم والأحكام بهذا الخط . وأن يحتفظ بها في خزائن أمراء المغول . وهو قانون مختصر بسيط ، ولكنه صارم وحازم قوامه احترام المجتمع المغولي وتفوقه على غيره من المجتمعات الأخرى .

إن الياسا التي سنّها چنكيز خان وجعلها دستوراً لهؤلاء القبليين المتعطشين للدماء كانت إحدى العوامل التي ساعدت على انتصاراته وتكوين امبراطوريته الواسعة حيث نزل المغول ومن انضم تحت لوائهم على حكمه . وكان العقاب الذي ينزل على المخالفين للياسا شديداً قاسياً لا تعرف نصوصه الرحمة والشفقة . وتناول الدستور أمورا متعددة ، أولها توحيد المعتقد ، (م ٣ - تاريخ الدولة المغولية)

أشار إلى الاعتقاد بفاطر السموات والأرض يهب الملك لمن يشاء ويستلبه
 ممن يشاء ، وهو القوى الجبار حسب معتقدهم الوثني ، وقد اشتمل على
 المواد التالية :

١ - يتحرر من المسؤوليات الحكومية كل من الوعاظ والرهبان الذين
 درسوا أنفسهم للخدمات الدينية وكذلك للمؤذنين والأطباء وغسالى الموتى .
 ٢ - يعاقب بالاعدام كل من يعلن نفسه امبراطورا خلافا لارادة المؤتمر
 العمولى العام (القوريلناى) .

٣ - يمنع كافة الزعماء من غير المغول والعشائر الخاضعة للمغول من
 حمل اللتائب الفخرية .

٤ - لا يجوز عقد السلم مع أى ملك أو أمير أو أمة من الأمم مهما
 كانت الا بعد تقديم الخضوع للمغول .

٥ - مراعاة القاعدة العسكرية فى تعبئة الرجال الى عشرات ومئات
 وألوف وعشرات الألوف .

٦ - يستلم الجندى السلاح من قائده المباشر حال ابتداء المعركة ،
 وعلى الضباط الاحتفاظ بالأسلحة سليمة والتأكد من صلاحيتها قبل المعركة .

٧ - يعاقب بالاعدام من يحاول القيام بنهب أموال الأعداء قبل صدور
 الأوامر بذلك . وللجندي من الفنائم ما للضباط بعد أن تؤخذ منها حصص
 الامبراطور .

٨ - القيام بصيد عام فى كل شتاء لاستمرار التدريب الحربى وتجهيز
 الأرزاق . وعلى كافة الأفراد الامتناع عن الصيد من بداية شهر مارس الى
 أكتوبر من كل عام .

٩ - لا يجوز ذبح الحيوانات المصادة ، بل يجب ربطها وشق الصدر
 وإخراج القاب منها .

١٠ - يسمح بأكل الأطراف من الحيوانات وأحشائها ولعق الدم ولو
 أن ذلك كان من المحرمات سابقا .

١١ - أن الشخص الذى لا يساعده فى الحرب عليه أن يؤدي خدمة أخرى للامبراطور مجانا لمدة من الزمن .

١٢ - يعاقب بالاعدام من يسرق جوادا أو ما يساويه وذلك بقطع جسمه الى شطرين . أما عقوبات المسروقات الأخرى فتتوقف على نوعية المسروق وشمسه ، وتتراوح العقوبة لهذه الأشياء من سبع جلدات الى سبعمائة . ويمكن تحويل الجلد الى غرامة بمقدار تسعة أمثال الشيء المسروق .

١٣ - لا يجوز للأفراد الخاضعين للمغسول تشغيل أى مغولى فى أى عمل كان .

١٤ - لا يجوز إيواء العبد الهارب ، ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للاعدام ، وأن الشخص الذى يعرف مكان العبد الهارب ولم يخبر السلطات عنه يعرض شخصه لنفس العقوبة .

١٥ - لا يجوز الزواج من أقارب الدرجتين الأولى والثانية ، ويجوز الزواج بإختين ، ويحق للزوج اقتناء الجوارى ، ويسمح للنساء بتعاطي الأعمال التجارية حسب رغباتهن .

١٦ - الأولاد الذين يولدون من أصل عبودى لهم نفس حقوق الأولاد الشرعيين ، على أن نسل الزوجة الأولى لهم الشرف الأول ولهم حق وراثة كل شيء .

١٧ - يعاقب الزنا بالموت ، وكذلك اللواط .

١٨ - لا يجوز غسل الملابس و الاستحمام فى المياه الجارية أثناء الرعد والصواعق .

٢٠ - يعاقب بالموت أى ضابط أو زعيم لا يقوم بتأدية واجبه أو عند رفضه الحضور أمام الخاقان .

وقد تحدث المفريزى فى كتابه الخطط عن القانون المغولى بشئ أشبه

بما ورد في النص الأصلي للياسا ، فذكر ما يلي « ان چنكيز خان القانم بدولة التتر في بلاد المشرق قرر قواعد وعقوبات أثبتتها في كتاب سماه ياسه ، ومن الناس من يسميه يسق والأصل في اسمه ياسه . ولما تم وضعه كتب ذلك نقشاً في صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم .

ومن جملة ما شرعه چنكيز خان في الياسه أن من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحسن وغير المحسن ، ومن لاط قتل . ومن بال في الماء أو على الرماد تقتل ، ومن أعطى بضاعة فخر فيها فانه يقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسير توم أو كساه بغير اذنهم قتل ، ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل ، وأن الحيوان تكلف قوائمه ويشق بطنه ويمرس الى أن يموت ، ثم يؤكل لحمه ، وأن من يذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح . ومن وقع حمله أو قوسه أو شئ من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة القتال وكان وراءه أحد فانه يفرز وينال صاحبه ما سقط منه فان لم ينزل ولم ينأوله قتل ، وشرط أن لا يكون على أحد من ولد على بن أبي طالب رضى الله عنه مؤنة ولا كلفة وألا يكون على أحد من الفقراء ، ولا القراء ، ولا الفقهاء ، ولا الأطباء ، ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلي الأعراس كلفة ولا مؤنة ، وشرط تعظيم جميع المال من غير تعصب لملة أو أخرى ، وجعل ذلك كله قربة الى الله تعالى ، وألزم قومه أن لا يأكل أحد من أحد حتى يأكل المناول منه أولاً ولو أنه أمير ومن ينأوله أسير ، ولزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شئ ، وغيره يراه بل يشركه معه في أكله ، ولزمهم ألا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه . . وأن من يقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير اذنهم وليس لأحد منعه . ولزمهم أن لا يدخل أحد يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشئ يفتقره به ، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تنبل ، ومنع من أن يقال لشئ ، انه نجس ، وقال جميع الأشياء طاهرة ولا يفرق بين طاهر ونجس ، ولزمهم ألا يتعصبوا لشئ من المذاهب ، ومنعهم من تقديم الألفاظ ووضع الألقاب وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط . وألزم القانم بعده بعرض المسافر وأسلحتها اذا أراد الخروج الى القتال وأنه يعرض كل ما سافر به عسكريه وينظر حتى الابرة والخيط فمن وجده قد

قصر في شيء، مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه ، وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف في مدة غيبتهم في القتال . . . والزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . . . ورتب لعساكره أمراء الألوف وأمراء مئات وأمراء عشراوات . . . وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فانه يلقي نفسه إلى الأرض بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع حتى يهضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه ، وألزم باقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة (٢٧) .

الحرب بين جنكيز خان والصين :

كان لابد من اصطدام جنكيز خان بامبراطورية الصين ، ذلك أن بعض طوائف المغول والترك كانت تنتم أسرة كين الصينية أبان ظهور جنكيز خان . ورأى أن الصينيين لا يكفون عن تحريض القبائل الواحدة منها ضد الأخرى لكي يشغلهم ويلهيهم فيظلون هم سادة الموقف ، ومن ناحية أخرى كى يأمنوا شر الغارات التي تشنها عليهم تلك القبائل ، فأراد جنكيز خان أن يضع حداً لتدخل سرّة كين الصينية في شئون القبائل المغولية ، فاشتبك مع الصينيين لأول مرة عام ٦٠٨ هجرية (١٢١١ م) واستطاع أن يحرز جملة انتصارات على القوات الصينية ، وخضعت له البلاد الواقعة في داخل سور الصين العظيم وعين عليها حكاما من قبله .

ان الحرب التي شنها جنكيز خان على الصين حشد لها منذ بدايتها جل القوى التي أمكن حشدتها من القبائل والعشائر المغولية ، حتى أنه لم يبق في منغوليا سوى ألفين من الرجال . كما خرج الخاقان بنفسه ، هو وأولاده الأربعة لقيادة الجيوش المغولية .

وفي عام ٦١٠ هجرية (١٢١٣ م) عيّن جنكيز خان قواته ، وتحركت صوب الصين للمرة الثانية ، لكنه لم يتمكن من تحقيق الغلبة عليهم . نعم انه كان هو المختصر في المعارك ، ومع ذلك فانه لم يحرز النصر الحاسم .

(٢٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج ٢ ، القاهرة سنة ١٨٥٣ م ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

ورأى چنكيز خان ضرورة العودة الى منغوليا ، لوصول انباء تفيد أن أعداءه من المغول الفارين يتآمرون عليه . وقد انتهز چنكيز خان فرصة ارسال امبراطور الصين سنة ٦١١ هجرية (١٢١٤ م) رسالة اليه يعرض عليه الصلح ويحل السلام محل الخصام على أن يضم چنكيز خان كافة البلاد التي فتحها بحد سيفه في الصين سواء أكانت داخل السور أو خارجه . وأخيرا اتفق الطرفان ، « وای وانج Wai - Wang » امبراطور الصين وچنكيز خان ، خاقان المغول على الصلح ، وأرسل امبراطور الصين بعض الهدايا الى چنكيز خان بناء على طلبه . وما أن اجتاز چنكيز خان ثرافقه جيوشه سور الصين العظيم في طريق عودته لای منغوليا ، حتى عدل امبراطور الصين عن فكرة الصلح وشرع في تقوية حصونه ، وتحصين مدنه وقلاع ، واتخذ أعية الاستعداد للملاقاة عدوه المغولي ونقل عاصمة ملكه الى مدينة أخرى في الجنوب لتكون اقرب الى ساحة القتال تاركا بكين العاصمة الاصلية تحت حكم ابنه . فما كان من چنكيز خان الا أن استندار بجيوشه وعاد مسرعا الى الصين وانقض بجيوشه على جحافل الصين التي لم تكن قد أخذت أهبة الاستعداد ، واشتبك معهم في معركة فاصلة سقطت على أثرها مدينة بكين في أيدي المغول عام ٦١٢ هجرية (١٢١٥ م) .

وكان لاستقوط عاصمة الصين في ييد چنكيز خان دوبا عاثلا ، ذلك أن انتصار چنكيز خان على الصينيين اعتبر انذارا للممالك الاسلامية التي آوت أعداءه والفرارين من وجهه . وفي نفس الوقت لم تكن الدول الإسلامية على أهبة الاستعداد للملاقاة المغول في ساحة الميدان ، فزادت عيبته في نفوس الجميع . وعندما عاد چنكيز الى وطنه سنة ٦١٣ هجرية (١٢١٦ م) استعد لتعقب أعدائه الذين هربوا الى الممالك الغربية .

چنكيز خان يتجه صوب الغرب :

كان يحد منغوليا والصين من جهة الغرب مباشرة مملكة القرة خطائين العظيمة التي يتزعمها « كورخان » وتشمل المنطقة الواقعة من بلاد الأويغور حتى بحر آرال . وبدأت تلك الدولة في الضعف نتيجة الغارات التي قامت بينها القبائل الرحل من المغول وغيرهم التي فرت من وجه چنكيز خان . وتضى هؤلاء الغزاة الرحل الجدد على كل سلطة في مملكة كورخان ، كما ساعد على

ضعفها ووعنها انشقاق كثير من حكامها المسلمين وعصيانهم ، خاصة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وخضوع كل من الأمير « أفقوت » الأويغورى لجنكيز خان سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) وهو الذى رافق الجيش المغولى فى حروبه فى الشرق الاسلامى ، وأرسلان خان أمير القرلق سنة ٦٠٨ هـ مجرية (١٢١١ م) وهو أول أمير مسلم من الترك خضع للمغول وانضم الى جنكيز خان .

وكان أهم حدث تم فى الغرب فرار كوجلوك خان ابن ملك النايमान مع جمع غفير من أتباعه ، والتجائه الى كورخان ملك القراخانيين ، واشترائه فى أحداث المنطقة عندما شق السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه عصا الطاعة على كورخان بعد أن كان تابعا له . ورفض أن يدفع الضريبة السنوية المقررة عليه . ان صراع كورخان ملك القراخانيين والسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه لم يكن بالأمر السهل ، فكلاهما صاحب جيش قوى واستعداد كامل وقدره على القتال فائقة . فانتهر كوجلوك خان الفرصة . رغم أنه كان لاجئا لا يحق له المشاركة فى شؤون الدولة المضيئة . وعرض على كورخان إمكانية تكوين جيش من أتباعه المشتتين والوقوف الى جانبه ضد مظالم السلطان الخوارزمى . وكان كورخان يخشى ضيفه ، فهو تركى مثله لكن عقليته مغولية بما تحمل من معانى الغدر واللؤم والخيانة ، فلم يوافق فى بادى الأمر . ومن الناحية المقابلة لم يبايئ كوجلوك خان وأخذ يحسن الأمر لكورخان وتعهده ألا يعصى له أمرا . وأخيرا أذن له بتنفيذ خطته واتخذ منه عوناً له على الخوارزمشاه فى حربه وصراعه المرتقب .

وظهر كوجلوك خان أول الأمر تابعا لكورخان ، فجمع جنودا غفيرة من طائفة النايमान ، بل وكل مغولى غير من وجه جنكيز خان ، وشكل من أولئك وهؤلاء جيشا سرعان ما تكامل عدده وعذته وانضم اليه أيضا حاكم قبيلة المركيت الفار من بطش جنكيز خان وبعض من أتباع كورخان نفسه . حتى صار جيشه أقوى من جيش القراخانيين .

استيلاء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على ما وراء النهر :

ان الحديث عن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه يعتبر متهمسا

لمرضوعنا عن الدولة القرة خطائية حيث كانت الاسرة الخوارزمشاهية تابعة
لكور خان تدفع له الجزية السنوية منذ استقلالهم وانفصالهم عن الدولة
السلجوقية في عيد السلطان سنجر .

تولى علاء الدين محمد الخوارزمشاه العرش خلفا لأبيه علاء الدين تكش
(٥٦٨ - ٥٩٦ هـ) وسار على نهجه في توسيع رقعة بلاده حتى بلغت أقصى
اتساع لها في عهده . رغم أنه ورث ذرعة ثقيلة للغاية ، إذ كان عليه تقوية
دولته في الداخل ليستطيع مواجهة أعدائه في الخارج الممثلين في الدولة الغورية
والخلافة العباسية والدولة القرا خطائية ، واتخذ سياسة محددة إزاء تلك
الدول الثلاث . فقد كان عليه السيطرة بقوة جيوشه على الأولى ، ومحاولة
فرض نفوذه الأدبي على الثانية ، والتخلص من التبعية ودفع الضريبة
السنوية للثالثة . والعمل على اقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأراضي الإسلامية
الواقعة تحت سيطرة الفزخطائين .

إن تبعية الخوارزميين لدولة الفزخطائين تعود الى أكثر من نصف
قرن على عهد علاء الدين محمد عندما تمكنوا من الاستيلاء على بلاد ما وراء
النهر واستخلافه لهم وانفرادهم بإدارته بعد انتصارهم على السلطان
سنجر السلجوقي في المعركة التي نشبت بـصحراء « قطوان » الواقعة على بعد
٣٦ كيلو مترا من سمرقند في الخامس من صفر عام ٥٣٦ هجرية . وتبعية
حكام تلك البلاد - وهم من المسلمين - لكورخان . وقد تمكن السلطان آتسز
الخوارزمشاه عدو سنجر اللادود وحليف كورخان القرة خطائي أن يستقل
بحكم تلك البلاد على أن يدفع مقابل ذلك مبلغ ثلاثين ألف دينار ذهباً ، وإن
يقدم أيضاً ما يحتاجه كورخان من خيل وجنود . واستمر هذا الاتفاق ساري
المفعول حتى عصر السلطان علاء الدين محمد حفيد آتسز الخوارزمشاه .

إن الخطبة التي سار عليها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه
استغرقت منه قرابة عشر سنوات ، استطاع خلالها تقوية جيشه ، وتصفيه
أعدائه ومناوئيه في الداخل ، وترقب الفرصة لتنفيذ سياسته تجاه القرة
خطائين الى أن كان عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) الذي يعد بداية الصراع الفعلي
بين الخوارزميين ودولة القرة خطائين .

انتهاز السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه فرصة اتصال عثمان خان الملقب بسلطان السلاطين حاكم سمرقند ، وكان تابعا للقرمخطائين ويدفع لهم سنويا قدرا معلوما من المال والحيوانات وعرض عليه التخلص من تبعيته لكورخان القره خطائي ، وكان ذلك في رسالة تضمنت أسف عثمان خان لخضوع المسلمين لأعدائهم في الدين ، وأظهر ألمه من تلك التبعة ، وعرض التعاون للتخلص من تبعيته لكورخان ، وأن يكون حذيفا للسلطان وتابعا للدولة الخوارزمية . وتعهد بدفع ما كان يقدمه لكورخان من أموال وعمدايا ويضرب السكة باسم السلطان الخوارزمي ويدعو له على منابر سمرقند وبخارى ، وحتى يطمئن عثمان خان الخوارزمشاه على صدق نواياه أرسل بعض أعيان سمرقند وبخارى ليكونوا رهينة لديه .

وافق السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على ما في رسالة عثمان خان ، ووجد ذلك مطابقا لما يجيش في نفسه وما يخطط له ، وانتهرها فرصة لينخلص بدوره من التبعة لدولة القره خطائين ، تلك التبعة التي تلزمه وألزمت آباءه الثلاثة الذين حكموا قبله بدفع الضريبة السنوية للقرمخطائين . وعندما أرسل كورخان مندوبه عام ٦٠٤ هجرية (١٢٠٧ م) في طلب الضريبة السنوية واستلامها من السلطان الخوارزمي . قتلته علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وجاهر بالعداء ، ثم سار بما اجتمع لديه من جيوش وعبر نهر جيحون حتى اذا ما انضم اليه حليفه عثمان خان السمرقندي ، سارت تلك الجموع الغفيرة لمنازلة جيش عدوهم المشترك . وبعد أن القم الجيشان المنصارعان دارت الدائرة على الجيوش الاسلامية ، وهزمت هزيمة منكرة ، وكان علاء الدين محمد الخوارزمشاه نفسه بين الأسرى ، الا أنه تمكن من الهرب وعاد الى بلاده (٢٨) .

وفي العام التالي (٦٠٥ هـ = ١٢٠٨ م) استعد علاء الدين الخوارزمشاه للملاقاة عدوه ، وانتصر عليه عام ٦٠٦ هجرية (١٢٠٩ م) ، وقتل وأسر عدد نفير من القره خطائين . وكان ملكهم ويدعى « طابنكو كورخان » (٢٩) شيخا

(٢٨) الديار بكري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، ج ٢ ، ص ٣٦٧ .
(٢٩) الذهبي : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ١٥ .

تجاوز المائة من عمره ، ضمن الأسرى . ونتيجة لذلك الانتصار الذي أحرزه الخوارزمشاه ، وضع الخوارزميون أيديهم على كل بلاد ما وراء النهر ، ووصلت حدود الدولة الخوارزمية حتى مدينة أوزكند الواقعة على نهر سيحون .

وأُسند السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه حكم ما وراء النهر إلى حليفه عثمان خان حاكم سمرقند ، وزوجه من ابنته ، وترك حامية خوارزمية ليضمن ولاء السلطان السمرقندي له . وبهذا الانتصار وصل السلطان علاء الدين محمد إلى قمة مجده ، واتخذ لنفسه بعد هذه الواقعة التي انتصر فيها لقبى « الاسكندر الثانى » و « سنجر » تيمنا بانتصارات الأول وغلبته على ملوك الأرض قاطبة وتفاؤلا بطول عمر الثانى .

ونتيجة لتصرفات جنود الحامية الخوارزمية التي كان قد تركها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وأساءتهم الى شعب ما وراء النهر وتعتيهم عليهم حيث كانوا أشبه بلصوص وقطاع طرق ، وعدم احترامهم لحكام البلاد الأصليين حيث لم يقيموا لهم وزنا ، وتعتيهم على الأهالى واستغلالهم لهم أسوأ استغلال ، نتيجة لهذا كله ثار عثمان خان على السلطان علاء الدين محمد واتصل بكورخان ليخلصه من نير الخوارزمشاه وأتباعه . وما أن تم له ما أراد حتى أمر بقتل جميع جنود الحامية الخوارزمية ، كما قتل كل خوارزمى يسكن بلاد ما وراء النهر ، وأمر القصابين بتعليق أجساد القتلى فى محلاتهم وتقطيعها اربا وعرضها على الأهالى ، وأمان زوجته ابنة السلطان الخوارزمى ، وكاد يقتلها لولا توسلاتها . وتزوج عثمان خان من ابنة كورخان القره خطائى توطييدا لحسن الصلات بينهما وجعل من زوجته السابقة ابنة السلطان علاء الدين محمد أمة لها .

وما أن علم السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه بما حدث فى ما وراء النهر وثورة عثمان خان سلطان سمرقند عليه وخيانتته له حتى سار على رأس جيش كبير ليثأر لكرامته التى اعتدى عليها فى شخص ابنته وجنوده ورعاياه . وانتصرت الجيوش الخوارزمية على جيوش عثمان خان ، واستولت على سمرقند ، وأباحها السلطان علاء الدين محمد لجنوده ثلاثة أيام بلياليها ،

أعملوا فيها القتل والسلب والنهب . كما قبض على عثمان خان وقتله . وبذلك دانت له سائر مدن ما وراء النهر بالطاعة . وعين على كل مدينة حاكما خوارزميا من قبله (٣٠) .

هزيمة القره ختائيين على بسد كوجلوك خان :

وبذلك جاور الخورزمشاه أعداءه القره ختائيين ، وأخذ ينظر اليهم بحذر بالغ لما لهم من قوة واستعداد عسكري كامل ، إلا أن دولة القره ختائيين أصيبت بتصدع أدى بها في النهاية الى الاندثار ، ذلك أن كوجلوك خان زعيم طائفة الناييمان والفار من وجه چنكيز خان التجأ الى كورخان يدميه من الخاقان المغولي وتمكن بدعائه من تأسيس قوة عسكرية من غلول طائفته التي نجت من سيف چنكيز خان ، وانضمت اليه قبائل أخرى . مما أثار الذعر في قلب كورخان ملك القره ختائيين وحدث قتال بين المضيف وضييفه ، واتصل كلاهما بالسلطان علاء الدين . بدأها كوجلوك خان الذي عرض على الخورزمشاه التحالف منتهزا فرصة الصراع بينهما واستيلاء الخورزمشاه على ما وراء النهر والعداوة القديمة الدفينة بين الخورزمشاه والقره ختائيين . ثم اتصل به أيضا كورخان الذي وجد نفسه في وضع سيء ، وعرض على الخورزمشاه تناسي العداوة القائمة والاتحاد لمواجهة كوجلوك خان . ولم يرفض السلطان علاء الدين محمد عرض كورخان وتظاهر بقبوله .

وعندما نشب القتال بين القره ختائيين وكوجلوك خان وطائفتيه الناييمان الفارة من وجه چنكيز خان ، ناد السلطان الخورزمي جيوشه ووصل الى مكان قريب من أرض المعركة بحيث رآه كلا الطرفين ، وكلاهما يظن أن الجيوش الخورزمية انما جاءت لتؤازره (٣١) . واتخذت الجيوش الخورزمية أماكنها وهي على أعباء الاستعداد في مكان قريب من أرض المعركة التي بدأت والسلطان الخورزمي واقف بين القوتين موقف المنفرج ينتظر رجحان كفة احدهما على الأخرى لينضم الى القوة المنتصرة . وما آن دارت الدائرة على جيوش القره ختائيين ، وأسر ملكهم كورخان وزج به في السجن حيث توفي

(٣٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ١٢٥ .
(٣١) الذمهي : العبر في خبر من غير ، الجزء الخامس ، ص ١٦ .

بعد عامين . حتى أعمل الخوارزمشاه والجيش الخوارزمي السيف في رقاب
البقية الباقية من الجيوش القره خطائية المنهزمة أو الجنود الفارين من أرض
المعركة (٣٢) .

إن الآثار التي نتجت عن تدمير الفرائضيين كانت غاية في الأهمية
بالنسبة للعالم الإسلامي وذات أبعاد خطيرة على مستقبل الدولة الخوارزمية
والشرق الإسلامي بعمامة ، ذلك أن أملاك كوجلوك خان جاورت أملاك الدولة
الخوارزمية مما جعل السلطان علاء الدين محمد في موقف لا يحسد عليه ،
فإن كوجلوك خان غار من وجه چنكيز خان ولا بد أن تنشأ بينهما معركة
مصرية ، فوجهت أنظار چنكيز خان نحو الأقاليم الغربية من آسيا حيث
دولة كوجلوك خان عدوه القديم .

أما كوجلوك خان ، ملك طائفة النايमान المنتصر ، فإنه اعتلى عرش
القره خطائيين وأخذ بقوة نفوذه على حساب القوى المتناثرة الضعيفة .
فأخضع عددا كبيرا من القبائل ، وكان بعضها تابعا للمغول . فوسع أملاكه
حتى شملت الأقاليم الممتدة من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية .

وكان لابد من صدام مسلح بين السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه
وكوجلوك خان نتيجة تصرفات الأخير تجاه المسلمين في بلاده ، ذلك أنه تصرف
مع المسلمين من رعاياه تصرفات عدوانية ، وحابى البوذيين دون سواهم من
الأديان الأخرى . وكان كوجلوك خان يدين بالمسيحية إلا أنه بعدد أن
تزوج من ابنة كورخان وبثأير نفوذها وفرط جمالها استطاعت اقناع زوجها
بالارتداد عن المسيحية واعتناق البوذية التي كانت تدين بها ، وأصابه
نوع من الهوس الديني حتى أنه أجبر المسلمين من رعاياه على الارتداد عن
دينهم ، واعتناق إحدى الديانتين ، المسيحية أو البوذية ، وإن لم يقبلوا ذلك
فعلبهم أن يفتيروا بزي الخطائين . فكان المسلمون يرتضون الحل الأخير
مكرهين . ومع ذلك حال بينهم وبين أداء شعائهم الدينية ، وانقطع الآذان
من البلاد . وكان يجبر الأئمة وكبار رجال الدين المسلمين على الخروج

الى الصحراء ليناظروهم في شئون الاديان والعقائد ، وكان آخر الأمر يسفنه آراءهم ويتحداهم الى أن انبرى له الامام علاء الدين محمد الختني وجادل به بشجاعة وبين له زيف مذهبه ، واقام الحجج على صحة العقيدة الاسلامية ، فلم يستطع كوجلوک خان ورجال الديانة البوذية من الرد على امام المسلمين فمما كان من كوجلوک خان ألا أن أمر بصلبه على باب إحدى المدارس في مدينة ختن (٣٣) .

وكان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ينظر الى افعال كوجلوک خان تجاه المسلمين هؤلاء على أنها موجهة ضده ، واعتبر السلطان الخوارزمي أنه حامى الاسلام والمسلمين وبدأ العداء يتجسد بين الطرفين . نادى السلطان علاء الدين محمد بأخيه في نصف أملاك الدولة القرمخطائية المنهارة بحجة المساعدة التي قدمها لكوجلوک خان وثماناً لاعتلاء الأخير العرش وذلك في رسالة أرسلها في هذا المعنى ، الا أن كوجلوک خان رفض اجابة الخوارزميين الى طلبهم بل انتهز الفرصة وهدد السلطان الخوارزمي بشن حرب على الدولة الخوارزمية . فرد عليه الخوارزمشاه بأن أعلن الحرب . واكتفت الجيوش الخوارزمية بدفع وحدات عسكرية لشن هجمات خاطفة على أراضي الدولة القرمخطائية . ولم يمنع كوجلوک خان من التوجه الى عدوه الخوارزمي الا اشتغاله بمحاربة المغول الذين بدأوا يندفعون صوب الغرب .

چنکيز خان يقضى على كوجلوک خان :

لم ينعم كوجلوک خان بانتصاره ولم يجن ثماره بعد أن جلس على عرش الفرخ خطائين ، أو بمعنى أدق بغيره وعدم مروءته ، ذلك أن چنکيزخان لم يكن غافلاً عن عدوه وابن عدوه اللدود يتركة يقوى ويشدد ساعده ليعود ويهاجمه للأخذ بثأر أبيه وثأر قبيلته . فلما فرغ من حروبه في الصين سير جيوشه لاختضاع القبائل العاصية التي انضمت الى كوجلوک خان وساهمت في تكوين دولته . واشترك في الحملة قائده الشهبان : « سوبوتاي » الذي كلف باختصاص قبائل المركيت التي انضمت الى كوجلوک خان و « چه نويان »

لقتال كوجلوك خان نفسه ، واحضاره حيا أو ميتا (٣٤) .

وتمكن سوبوتاي من هزيمة قبائل المركيت وأبادها عن آخرها .
أما جبهه نويان فانه سار الى كاشغر ، واستولى عليها بسهولة وفر كوجلوك
خان . ولم يحاول مواجهة المغول في معركة حاسمة ، وصار يتنقل من مكان
آخر والمغول يتعقبونه . وانتهت دولته وتحطمت آماله وصار جبهه نويان
سيد المنطقة وحاكما . وكان أول ما فعله الحاكم المغولي جبهه نويان أن أطلق
الحرية الدينية لجميع السكان ، فتنفس المسلمون الصعداء واستقبلوا المغول
كمحررين لبلادهم . أما كوجلوك خان فانه هام على وجهه فرارا من المغول
الذين جدوا في طلبه . وتمكن بعض الصيادين من اعتقاله وسلموه الى المغول
نقلوه على النور . وبعثوا برأسه الى چنكيز خان في قره قورم ، ثم أعملوا
السيف في كل من وجدوه من طائفة النايماان حتى قضى عليهم جميعا في سنة
٦١٥ هجرية (١٢١٨ م) .

وتمت سيطرة المغول بعد مقتل كوجلوك خان على جميع القبائل التركية
التي كانت تخضع للقره خطائين ، واحتلوا مناطق أخرى كان كوجلوك خان
قد ضمها الى دولته . وكان لانتصار المغول على غريمهم كوجلوك خان نتائج
عامة وسريعة . أهمها على الإطلاق دخول جميع القبائل التركية تحت
السيطرة المغولية . وكذلك مجاورة چنكيز خان بهذه القوة النامية الرهيبة
أعلاك الدولة الخوارزمية ، مما أدى الى حدوث الكارثة الكبرى ، لا للدولة
الخوارزمية وحدها ، بل للعالم الاسلامي قاطبة .

العلاقات بين چنكيز خان والخوارزمشاه :

ومما سبق أن استعرضناه ، نجد أن چنكيز خان قد أسس دولته
على أساس القوى القبلية الموجودة في شرق آسيا . حتى صارت حدود دولته
تجاور أعلاك الدولة الخوارزمية .

وتقد جاورت القوتان ، الخوارزمية والمغولية كل منهما الأخرى ، في

انتظار الفرصة الواثبة للوثوب على الأخرى . وحدث فعلا أن قامت بعض المناوشات الحربية إبان احتلال المغول للدولة القراخانية ، ذلك أن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وهو في طريقه إلى مدينة « جند » في شتاء عام ٦١٢ هجرية لمحاربة كوجلوك خان أن اتجه إلى صحراء القرغيز حيث سكنى طوائف القنچاق ، فقابل وهو في طريقه فرقة من الجيش المغولي بقيادة « جوجي بن چنكيز خان » . وكانت لدى جوجي وبقيّة القادة تعليمات من الخاقان بعدم الاشتباك مع المسلمين ، فبعثوا برسالة إلى السلطان علاء الدين محمد أخبروه فيها أنهم قدّموا إلى تلك الدواحي بناء على تعليمات چنكيز خان ، خاقان المغول ، لدفع المصاة وتعقب الفارين .

نظر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه أمامه فوجد المغول في عشرين ألف جندي أما هو فكان جيشه يبلغ الستين ألفا . وكان جواب الخوارزمشاه على رسالة جوجي بن چنكيز خان « بأن چنكيز خان إن كان أمرك أن لا تقتاتلني فإن الله تعالى قد أمرني أن أقاتلك . ووعد لي على قتالك الحسنی ، فلا فرق عندي بينك وبين كورخان وكشلوخان لا شتراكم في الشرک ، فأذن بحرب تتقصّد فيها الرماح ، وتتخطّم فيها الصنّاح » (٣٥) ثم أمر الخوارزمشاه جيشه بالهجوم على القلوات المغولية ، لكنه لم يحسم القتال ، ولم يصل إلى نتيجة في المعارك التي نشبت بينهما . بسبب ما كان يفعله المغول في المعركة من حركات غريبة ، وما لديهم من أساليب في القتال جديدة ، وشجاعة فائقة وجرأة نادرة ، مما جعل قادة الجيش الخوارزمي ينضرون اليهم في دهشة بالغة وذهول تام .

إن المعارك التي نشبت بين السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وبين المغول بقيادة جوجي لم تكن حربا بمعنى الكلمة ، لكنها أظهرت قدرة المغول القتالية وخبرت جنود الخوارزمشاه . وفي الوقت نفسه تركت أثرا سيئاً في ذهن السلطان الخوارزمي لدرجة أنه بعد ذلك كان يفر من أمام جيوش چنكيز خان في أي مكان يلتقي فيه بهم . ويقول النسوي : « وتمكن في قلب السلطان من الرعب والاعتقاد ببسالتهما ما إذا ذكروا مجلسه

(٣٥) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٤٦ و ٤٧ .

يقول : لم ير كرجالهم اقداما وثباتا على مضض الحرب وخيرة بقوانين
الطعن والضرب . « (٣٦) » .

وكان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه منذ فترة يتتبع
أخبار چنكيز خان وهو في بلاد الصين ، بل وفكر في تسخير جزء من الصين
أسوة كما فعل چنكيز خان . وزين له قواده هذا العمل ، وبدأ هو نفسه
بغتر بقوته وقيادته وما أطلقه عليه أتباعه من ألقاب كان أهمها « ظل الله »
« والاسكندر الثاني » و « سنجسر الثاني » . وما ان وصلت اليه انباء
اسنيلاء چنكيز خان على مدينة بكين عاصمة دولة الصين الشمالية ،
أراد أن يستوضح الأمر ، فأرسل وفدا من كبار دولته برئاسة شخص يدعى
« السيد الأجل بهاء الدين الرازي » الى الصين يحمل رسالة الخوارزمشاه
الى چنكيز خان .

استقبل چنكيز خان الوفد استقبالا حافلا ، واستضافه ضيافة كاملة .
وعندما استأذن الوفد في العودة ، أرسل چنكيز خان معه رسالة الى السلطان
ذكر فيها ترحيبه بالوفد ، وأخبر السلطان أنه ملك المشرق وأنه يعتبر
الخوارزمشاه ملك المغرب ، ويأمل أن يدوم بينهما الصلح والسلام وتتوطد
أواصر العلاقات بينهما .

ولا شك أن أفعال چنكيز خان لا توضح حسن نيته أو جنوحه للسلم
والصفاء مع أي زعيم دولة جاورته ، كذلك خطته لا تشير إلا لروح عدوانية ،
لذلك لم يشأ أن تكون علاقته بجيرانه الخوارزميين مستندة الى حق السيف
وحده ، وبخاصة أن مشاكله في شرق آسيا ، واضطراره الى توطيد نفوذه
في الأقاليم الصينية تمنعه من أن يشغل جيوشه في البلاد الخوارزمية
أيضا ، فهداه تفكيره الى عقد معاهدة تجارية مع الدولة الخوارزمية تكون
الصلة بينه وبين الأتراك الخوارزميين ، ويستطيع من خلالها معرفة
أحوالها ويكون على صلة برجالها ، ويمليها على الخوارزميين وتتضمن
بعض نصوصها معاني الذبعية لدولة المغول .

وفى عام ٦١٥ هجرية (١٢١٨ م) حدث أن استقبل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وهو في مدينة بخارى بعد عودته من الأقاليم العراقية وهزيمته هناك وهو يحاول إخضاع الخلافة العباسية ، ثلاثة من التجار المسلمين من أتباعه قادمين من قبل چنكيز خان ، وهم : محمود يلاوج الخوارزمي ، وعلى خواجه البخارى ، ويوسف كنكا الأوترارى . وقد حملهم چنكيز خان الكثير من الهدايا مما تنتجه آسيا الوسطى منها سبائك من الفضة وبعض الطيور الثمينة والآحجار الكريمة والمنسوجات الصوفية(٣٧) ، كما حملوا معهم رسالة وجهها چنكيز خان الى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، جاء فيها : ليس يخفى على عظيم شأنك ، وما بلغت من سلطائك ، وقد علمت بسطة ملكك ، وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض . وأنا أرى مسالتك من جملة الواجبات وأنت عندي مثل أعز أولادى ، وغير خاف عليك أيضا أننى ملك الصين وما يليها من بلاد الترك ، وقد أذعنت لى قبائلهم ، وأنت أخبر الناس بأن بلادى مشاركات العساكر ومعادن الفضة ، وأن فيها الغنى عن طلب غيرها ، فإن رأيت تفتتح للتجار فى الجبهتين سبيل التردد ، عمت المنافع وشملت الفوائد «(٣٨) .

وكان وقع الرسالة على السلطان شديدا ، ودرس مستشاروه رسالة چنكيز خان واستقر رأيهم جميعا على أنها تحمل فى طياتها معانى التهديد والوعيد فى أكثر من موضع ، فقول چنكيز خان أن علاء الدين محمد الخوارزمشاه ن منزلة الابن معناه التبعية لچنكيز خان ولها شواهد عديدة فى المعاهدات التى كتبت بين أمراء آسيا فى ذلك الوقت الذين كانوا لا يعرفون معنى للعلاقات السياسية التى تقوم على المساواة بين الأطراف المتحالفة . كذلك تمهد چنكيز خان أن يخبر السلطان الخوارزمي أنه فتح الصين ، وأخضع كافة الطوائف التركية ويعتبرهم رعاياه(٣٩) ، فاعتبر السلطان

(٣٧) مير خواند : روضة الصفاء ، ج ٥ ، ص ٧٦ و ٧٧ .
(٣٨) الذسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٣ و ٨٤ .
(٣٩) راجع قصة استدعاء السلطان علاء الدين محمد للفسير

علاء الدين محمد الخوارزمشاه - وهو تركي الأصل والارومه - ان هذا القول يحمل معاني التهديد والوعيد لا سيما وأنه تركي .

وأخيرا استقر رأى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على عقد المعاهدة التجارية بينه وبين الدولة المغولية وهو كاره ابرامها . وبدأ التبادل التجارى بين الدولتين ، ونشطت جموع التجار من المسلمين والصينيين كلتا الدولتين فى التعامل التجارى .

ولم يمض قصير وقت على توقيع المعاهدة التجارية بين الدولتين ، المغولية والخوارزمشاهية حتى اقدم چنكيز خان على اجراء اعتبره السلطان الخوارزمى عملا عدوانيا لا يصح فعله من رئيس دولة صديقه بينهما اتفاقات ومعاهدات ورسائل متبادلة ، بل اعتبرها السلطان علاء الدين محمد استهانة بحقوقه وتعديا على دولته . ذلك أن چنكيز خان قام من جانبه باخضاع القبائل التركية وغيرها المنتشرة فى اواسط آسيا بحجة تامين الطرق التجارية ، والضرب على ايدي المعتدين من اللصوص وقطاع الطرق ، حتى تكون التجارة فى مامن من شرورهم وعبثهم . وزود الطرق الرئيسية بحراس من قبله ، وكلفهم بان يرافقوا كل تاجر اجنبى يحمل تجارة الى معسكرات المغول (٤٠) ، وكان هؤلاء الحراس يسمون « قداقچية » أى المستحفظون (٤١) .

نظر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه الى أعمال چنكيز خان داخل بلاده واعتبرها عدوانا على بلاده وغضب غضبا زائدا لكنه لم يظهر عداؤه السافر ، واستمر فى تعامله مع الدولة المغولية لعله يستطيع معالجة الأمر أو احتوائه دون نشوب حرب بين الطرفين .

المغولى محمود يلاوج الخوارزمى وما دار بينهما من حديث ، انتهى باقناع الخوارزمشاه بتوقيع الاتفاقية التجارية ، فى كل من النسوى ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٨٤ ، ومير خولاند فى روضة الصفا ص ٧٧ و ٧٨ .

D'Ohsson : Histoire des Mongols, Tom. I, P. 204. (٤٠)

(٤١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٩ .

ثم حدث ما قطع الصلات الودية بين الدولتين وتبدلت العلاقات الطيبة بعلاقات عدائية وخصومة ، وذلك اثر حادثة اعتبرت المواجهة الحقيقية بين چنكيز خان والسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه .
 بدءاً بمسير ثلاثة من التجار المسلمين من رعايا الدولة الخوارزمية ومن اجل بخارى الى اقصى الشرق حيث معسكرات المغول وبلاط چنكيز خان ، يحملون معهم البضائع من الثياب المذهبة والكرباس (٤٢) .
 وقد خفروهم حراس الطارق (المستحفظون) المغول وبدلا من ان يتركوهم بعد وصولهم لتسويق بضائعهم قادوهم الى بلاط چنكيز خان بعد ان وقفوا على ما معهم من السلع ، وعرفوا ان مع اُدهم ، ويدعى أحمد من الثياب ما يليق بمقام چنكيز خان نفسه . فلما مثل بين يدي الخاقان طالب اثمانا باعطة لبضاعته خلق عليه ، وصادر بضاعته ووزعها على أفراد حاشيته . ثم قبض على التاجر . ولما مثل التاجران الآخران أمام چنكيز خان لم يجروا على طلب ثمن البضاعة ، وتظاهرا بأنهما جاءا لتقديمها عدية للخاقان فما كان من چنكيز خان الا ان امطر هذين التاجرين ذهباً وفضة ، وأخذته الشفقة بالتاجر الثالث رفيق الرحلة فعفا عنه (٤٣) .

واقام هؤلاء التجار الثلاثة في اراضى الدولة المغولية فترة كانوا فيها موضع التكريم ، وعاملهم المغول معاملة ممتازة . ولما هموا بالرحيل أمر چنكيز خان بأن يرسل كل أمير في دولته ، وكل قائد من قواده العسكريين رجلا أو رجلين من أتباعه يحملون تجارة مغولية الى غرب آسيا وبيعها في الاسواق الخوارزمية ، وشراء بعض المنتجات التي يحتاج اليها المغول . وقد تكون هذا الوفد بسرعة وبلغ عدده اربعمائة وخمسين رجلا من المسلحين كما ذكر الجوينى ونقل عنه دوسون ، وان كان ابن العبرى قد ذكر ان عددهم بلغ مائة وخمسين شخصا فقط ومن جميع الاديان دون تفریق (٤٤) .
 وزود چنكيز خان هذه الجماعة العسكرية المتخصصة في التجسس

(٤٢) الكرباس : الثوب الخشن ، وذكرها أدى شير في « الألفاظ الفارسية العربية » على أنها فارسية معربة بمعنى الثوب من القطن الأبيض ، وان أصلها يوناني ، ص ١٣٤ .

(٤٣) D'Ohsson : Histoire des Mongols. Tom I, P. 204.

(٤٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٠ .

والاستطلاع وجمع المعلومات بمبعوث مغولى حملته رسالة الى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، جاء فيها : « ان التجار وصلوا الينا ، وقد أعدناهم الى مامنهم سالمين غانمين ، وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف ، فينبغى أن يعودوا الينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين وتنحسم مواد النفاق في ذات البين » (٤٥) .

وسار هذا الجمع الغير قاصدا البلاد الخوارزمية ، ووصلت القافلة بكامل هيئتها وتشكيلاتها الى مدينة أوترار الواقعة على نهر سيحون ، وكانت تعد مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربها . وكان يحكم المدينة في الوقت الذى وصلت فيه القافلة « اينال خان » الذى يعرف أيضا باسم « غاير خان » ، وهو ابن خال السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وتحت امرته عشرون ألف فارس (٤٦) .

حال الحاكم اينال خان ورود هذا الجمع من التجار ومن صاحبهم من الرجال العسكريين الى الدولة الخوارزمية ، فخشى الأمر وأدرك أن هؤلاء لم يقصدوا البلاد الإسلامية للتجارة كما يزعمون ، وإنما غرضهم التجسس واستطلاع قوة الخوارزميين وتحديد استحکاماتهم . وعندما تأكد أنهم ليسوا من طبقة التجار ، وأنهم من العسكريين ، كتب الى الخوارزمشاه يخبره بأمرهم ، فأوصى بمراقبتهم ، وبعد فترة أمر بمصادرة أموالهم وإرسالها اليه وقتل جميع أفراد القافلة . وفعل نفذ غاير خان حاكم مدينة أوترار أوامر السلطان الخوارزمي ونفذ المهمة على خير وجه . أما البضائع المصادرة فقد باعها السلطان علاء الدين محمد لتجار بخارى وسمرقند (٤٧) ، وذكر النسوى هذه الواقعة بقوله : « ان هؤلاء القوم قد جاءوا الى أوترار في زى التجار ، وليسوا

(٤٥) المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .

(٤٦) ذكر البيهقي في كتابه تاريخ الخلفاء ، ص ٣١١ ، والديار بكرى في كتابه تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٦٨ ، ان اينال خان حاكم مدينة أوترار هو خال السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وليس ابن خاله ، كما ذكر النسوى في كتابه سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٨٥ . ونؤيد النسوى لانه مؤرخ الخوارزميين وشاهد عيان بل وشارك في الاحداث نفسها .

(٤٧) ابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ١١٦ .

بتجار بل أصحاب أخبار ، يكشفون منها ما ليس من وظائفهم ، اذا خلوا
 بواحد من العوام يهددونه ويقولون : انكم لفي غلة مما وراكم وسيأتيكم
 ما لا قبل لكم به . وأمثال ذلك حتى أذن له السلطان في الاحتياط عليهم
 الى أن يرى فيهم رأيه . فحين أرخى عنانه في الاحتياط عليهم تعدى طوره ،
 وعدى شوطه ، فقبض عليهم ، وخفى بعد ذلك أثرهم وانقطع خبرهم ، وتفرد
 المذكور بتلك الأموال المعدة ، والأمتعة المنصدة ، مكيدة منه وغدرا ، وكان
 عاقبة أمره خسرا « (٤٨) » .

كذلك علق على هذه الواقعة عطا ملك الجويني مؤرخ المغول بقوله :
 « ان كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفر المسلمون عنها بسيل من الدماء ،
 كما كلفتهم كل شعرة من رؤوسهم مائة ألف من أولادهم » (٤٩) ، وأيضا علق
 على الحادثة المستشرق الروسي بارتولد بقوله : « ولا بد أنها درت عليهم
 أرباحا طائلة ولا سيما اذا عرفنا أن القافلة كانت تتكون من خمسمائة
 رجل » (٥٠) . أما النسوي فانه ذكر أن أفراد تلك القافلة لم يكونوا تجارا
 وانما هم جواسيس ، ومع ذلك نجده يقبح مافعله حاكم أوترار بشأنهم (٥١) .
 ونرى أن الحدث الذي اقدم عليه حاكم أوترار بتأييد من السلطان علاء الدين
 محمد الخوارزمشاه كان خاطئا من بدايته ، وكان يمكن للخوارزمشاه احتواء
 المشكلة واعادتهم الى دولتهم خوفاً قتلهم أو حتى اهانتهم وايضا دون شراء المسلمين
 بضائعهم أو شرائهم بضائع من الأسواق الاسلامية مما يشعز قادة المغول
 أن الدولة الخوارزمية قد غهت الغرض الذي من أجله حضر هؤلاء الأشخاص ،
 وأنها حرصا منها على حسن الجوار والسلام أهدمت على هذا الاجراء وأعادت
 الجواسيس سالمين فتكون بذلك قد أوصدت بابا في وجه چنكيز خان
 ولا تعطيه الفرصة لاعلان الحرب أو معاداة الدولة الخوارزمية .

ولما وصلت أخبار تلك المذبحة البشرية الى مسامع چنكيز خان ،

(٤٨) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٦ .

(٤٩) عطا ملك الجويني : تاريخ جهانگشاي ، ج ١ ، ص ٦١ .

(٥٠) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion, P. 398.

(٥١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٦ .

بسبب تواجد شخص مغولي بعيدا عن الخيام لقضاء حاجة وتمكنه من الفرار ، استشاط غضبا وهاله الأمر ، ومع ذلك رغب في تسوية حسابه مع الخوارزميين بالطريق السلمى . فأرسل الى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه رسولا من المسلمين يدعى « ابن كفرج » ، كان أبوه أميرا من أمراء السلطان علاء الدين تكش والد السلطان علاء الدين محمد ، فصار معه عضوان آخران من المغول يحملون رسالة من چنكيز خان كلها تهديد ووعيد ويطلب فيها تسليم حاكم أوتار تكفيرا عما حدث . وذكر النسوى نص تلك الرسالة ، وفد جاء فيها : « انك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار ، والا نتعرض الى أحد منهم ، فغدرت ونكثت ، والغدر قبيح ومن سلطان الاسلام اقبح . فان كنت تزعم أن الذى ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان الى لأجازه على ما فعل ، حقنا للدهماء ، وتسكيننا للدهماء ، والا فاذن بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح » (٥٢) .

وما أن قرأ السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه رسالة خاقان المغول ، حتى أمر بقتل ابن كفرج وزميليه ، وكان ذلك فى سنة ٦١٥ هجرية (١٢١٨م) ، وإن كان المؤرخ دوجلاس قد ذكر أن الخوارزمشاه لم يقتل الرسل الثلاثة ، بل قتل رئيسهم ابن كفرج بمفرده ، وأطلق سراح الآخرين ، بعد أن خلقت لحيتهما حتى يرويا قصة مصرع الرسول المغولى لچنكيز خان كما شاهداهما (٥٣) .

وسواء أأقدم السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على قتل مبعوث چنكيز خان ابن كفرج بمفرده أو معه زميليه المغوليين ، فإن السلطان ارتكب حماقة بقتل الرسول ومن معه ، وهى بلا شك سنة قبيحة ، وعادة غير شريفة ، لم نجد لها مثيلا وسابقة فى الاسلام الا ما ندر ، ولا بد أن الخوارزمشاه أقدم على ذلك الاجراء تحت ضغوط سياسية ونفسية صعبة ، تعود الى الناحية الداخلية ليس أكثر . وكانت مطالبة چنكيز خان للخوارزمشاه تسليم ينال خان للمغول لمعاقبته على فعلته واصراره على ذلك ، بعد أن أعلن

(٥٢) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

Douglas : The Life of Jenghiz Khan, P. 15.

(٥٣)

السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه أنه لم يحط علما بالموضوع ، وأن حاكم مدينة أوتترار أقدم على ذلك دون إذن منه . فوجد الخوارزمشاه نفسه - بعد نصريحاته تلك - مطالبا بتسليم شخص له وزنه السياسى ووضع الاجتماعى فى الدولة الخوارزمية ، خصوصا وهو ابن خال السلطان نفسه وتربطه به اواصر قرابة وصداقة وطيدة ، ومن عشيرة أمه ترکان خاتون التى فاق نفوذها فى الدولة الخوارزمية نفوذ السلطان علاء الدين محمد نفسه ، بفضل سيطرتها على شئون الدولة وأجهزتها الادارية وتعصيد الجيوش الخوارزمية لها . وكانت الظاهرة المتفشية فى عصر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه تواجد كثير من رجال الدولة من اقرباء ترکان خاتون أو من عشيرتها يتفانون فى خدمتها ويأثمرون بأمرها . فاذا فرض وقام السلطان علاء الدين محمد بتسليم اينال خان للمغول كطلبهم ، فانه لا محالة سيواجه ثورة داخلية من جانب رجال الجيش ، وإخلال بالأمن قد يؤدى فى النهاية الى الاطاحة به . أما من ناحية المغول فسوف يعتبرون ذلك تسليما من الخوارزمشاه لهم واعترافا بضعفه أمامهم . ففضل قتل الرسل الثلاثة . وبذلك تحددت العلاقات بين المغول والخوارزميين .

وكان قتل الرسل على النحو الذى ذكرناه والطريقة التى تمت بها ، بمثابة اعلان الحرب بين الفريقين ، فأخذ كل منهما يستعد لمواجهة الآخر . وشرع الخوارزمشاه يستطلع أخبار المغول ويجهز الجيوش ويبنى الأسوار حول المدن ، وشغل نفسه ليل نهار برسم الخطط الحربية ، حتى صار لا يتكلم الا فى الموضوع ، ولا يكلمه أحد الا فيه . أما چنكيز خان فانه انصرف بدوره يستعد لمواجهة الخوارزمشاه ، فنظم دولته من الداخل وجيش جيوشه وجهز معدات القتال ، وجند لهذا الغرض كل قادر من المغول والتتار والترك فى دولته .

ان مذبحة أوتترار تعتبر بداية الصراع الذى جسر الوبال على البلاد الاسلامية ، حتى أن المؤرخ الدياربرى عندما أراد تأريخ الواقعة والتعليل عليها قال : « فبالها من قتلة ما كان أفتبحها ، أجرت كل قطرة من دماء الرسل

سيلا من الدماء» (٥٤) • ونفس الشيء ذكره فامبري في كتابه حيث قال :
 « أن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفر المسلمون عنها بسيل من الدماء ،
 كما كلفنهم كل شعرة من رؤوسهم مائة ألف من أرواحهم » (٥٥) •

(٥٤) الديار بكري : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ،
 ج ١٢ ، ص ٣٦٨ .
 (٥٥) Vambery : History of Bokhara, P. 117.

الفصل الثالث

حملات چنكيز خان على الدولة الخوارزمية :

أعد چنكيز خان حملته لمحاربة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، وكان يعتقد أن القوات الخوارزمية أقوى وأكبر مما تصور ، وشرع يتحرك نحو بلاد ما وراء النهر في خريف عام ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ، وبرزقته أمراء القزلق والماليق والأويغور . ويرى المؤرخون أن القوات المغولية كانت ما بين ١٥٠ الى ٢٠٠ ألف جندي ، وأن الجيش الخوارزمي كان أكثر من ذلك بقليل ، لكن ضعف همة الخوارزمشاه والخلافات التي كانت بين قادة الجيش والدعائيات المخيفة عن العدو مكنت جحافل المغول من اكتساح الدولة الخوارزمية في فترة قصيرة جدا بالنسبة الى عظم المساحة التي استولى عليها المغول بحد السيف ، فهي لا تزيد على أربع سنوات ، اذ وصل چنكيز خان الى الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية سنة ٦١٦ هجرية (١٢١٩ م) ، وأتم له إخضاع تلك الدولة . وفعل ما فعله بأهلها ومدنها ، ثم عاد فعبر نهر سيحون عائدا الى منغوليا سنة ٦٢٠ هجرية (١٢٢٣ م) .

استعدادات الخوارزمشاه وخطته الدفاعية :

اجتمع السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه بالأمراء وقادة جيشه وكبار رجال دولته ليطلعهم على خطته ويعرض عليهم ما يفويه المغول وخططهم واستعداداتهم . واقتراح الامام شهاب الدين الخيوقي السدي كان يعتقد فيه السلطان كثيرا بأن يرسل المندوبين والرسل والرسائل الى كافة بلاد المملكة لجمع العساكر واستئثار الناس للدفاع عن الاسلام وجمع التبرعات والمعونات لايكاف عبور المغول نهر سيحون ، لكن أمراء الجيش لم يستحسنوا هذه الفكرة ، وراوا أنه من الأفضل ترك المغول يعبرون نهر سيحون واصطيادهم بعد ذلك في بلاد ما وراء النهر التي لا يعرفون مسالكها ، بل وقطع المدد عنهم واهلاكهم آخر أمر . واقتراح

آخرون خطة أخرى أشبه بالساقية ، وأخيرا استقر رأى السلطان علاء الدين محمد على اصطياذ المغول في بلاد ما وراء النهر ووزع جيشه على عذا الاساس بين مدن ما وراء النهر المختلفة في انتظار قدوم المغول .

خطة چنكيز خان في حربه مع الخوارزمشاه :

وفي شهر رجب سنة ٦١٦ هجرية (١٢١٩ م) بلغ چنكيز خان وجيشه نهر سيحون على مقربة من مدينة أوتزار ، وتوجه اليها وتظاهر بمحاصرتها . وكانت خطة چنكيز خان محكمة للغاية ، فلم يشأ مهاجمة الخوارزمشاه من جهة واحدة . بل رأى أن ينفذ عليه من جهات أربع ، ويقسم قواته لهذا الغرض الى أربع مجموعات ، عهد الى كل مجموعة بمهمة الاستيلاء على جزء معين من اقليم ما وراء النهر . وبهذه الخطة أخذ چنكيز خان أعداءه على غرة ، ولم يترك لهم فرصة كافية للاستعدادات أواجبته وتنفيد خططهم .

ان المجموعات القتالية المغولية الأربع التي تشكل القوات المغولية ، كانت على النحو التالي :

المجموعة الأولى : وكانت تتكون من سبع تومانات (التومان بلغه المغول عشرة آلاف) تحت قيادة ولديه چغتاي واولكتاي . وكان واجب هذه المجموعة الاستيلاء على مدينة أوتزار .

المجموعة الثانية : وكانت بقيادة ولده جوجي ، وهو الابن الأكبر لچنكيز خان ووجهته مدينة جند وكانت تعد في ذلك الوقت احدى القلاع الاسلامية الهامة الواقعة على نهر سيحون .

المجموعة الثالثة : وكانت تتكون من خمسة آلاف جندي ، وقد أمر چنكيز خان عليها ثلاثة من كبار قواده ، وكان واجبهم الاستيلاء على مدينتي « بناسكت » و « خجند » .

المجموعة الرابعة : وكانت تحت قيادة چنكيز خان نفسه ومعه ابنه تولوي . وكانت هذه المجموعة تشكل القسم الأعظم من الجيش المغولي والقوة

المضاربة الرئيسية ، وكانت وجهتها مدينة بخارى الواقعة في قلب إقليم ما وراء النهر ، وكان من واجبها أيضا التصدي لقوات الخوارزمشاه والحيلولة دون وصولهم الى المدن المحاصرة على نهر سيحون من ناحية الشرق .

كان مجوم المغول على مدينة أوتزار ، مفتاح إقليم ما وراء النهر والمدينة التي حدثت فيها مذبحه للتجار المغول ، وبها اينال خان حاكم المدينة وقاتل التجار . وما أن علم حاكم المدينة بقدوم المغول حتى قام باصلاح حصون المدينة وقلعتها وزودها بحامية كبيرة ، ووكّل أمر الدفاع عنها أحد قواده المهمة . وحاصر كل من چغتاي وأوكتاي المدينة خمسة أشهر فقد الخوارزميون فيها رباطة جاشهم ونفذ صبرهم خصوصا وأنه لم يصلهم مدد من الخوارزمشاه ، حتى فكر القائد الخوارزمي في التسليم . لكن اينال خان لم يوافق على فكرة تسليم المدينة للمغول ، وقرر الدفاع عنها الى النهاية . وأخيرا استسلمت المدينة تحت ضربات المغول الشديدة ودخلوها غفوة في نفس السنة (٦١٦ هـ) ونهبوها وطاردوا سكانها الذين أصابهم فزع شديد ، بينما تفهق اينال خان الى قلعة المدينة واحتمى بها نحواً من شهر ، فقد في أثناءه معظم رجاله وعدته وعتاده ، ومع ذلك ظل يدافع ويقاوم الى أن وجد نفسه محاصرا من كل جانب ، فخذف بنفسه الى سقف أحد المنازل والمغول ينظرون اليه ، وأخيرا تبعه جنديان مغوليان . ورغم أنه كان لا يملك شيئا يدافع به عن نفسه الا أنه كان يقوم بقذفهما بالحجارة التي تناوله إياها بعض النسوة . وأخيرا وقع في أيدي المغول فقادوه الى چنكيز خان ، الذي كان قد عسكر في ذلك الوقت أمام مدينة سمرقند ، فأنقذ منه ونكل به بأن أمر بصب كمية من الفضة السائلة في عينيه وأذنيه . وبذلك نفذ چنكيز خان وعيده في قاتل نجاره ورسله . وبسقوط مدينة أوتزار سقط مفتاح إقليم ما وراء النهر وامتزجت الدفاعات الخوارزمية ازا، هذا الحادث الكبير .

أما المجموعة الثانية التي قادها جوجي ، فانها توجهت الى مدينة جند ، واستولت وعى في طريقها على كثير من القلاع والمدن الواقعة على نهر سيحون ، وتمكن بذلك جوجي من السيطرة على كل مجرى النهر تقريبا . وعندما اقترب من مدينة جند غادرها حاكمها ليلا تاركا لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم . ونصب المغول الجانيق حول المدينة استعدادا لتحطيم

أسوارها • ومال سكان مدينة جند قوة المغول واستحاثاتهم التي نصبوها حول مدينتهم ، واذقسموا فيما بينهم الى فريقين ، فريق آثر الاستسلام والنجاة بأرواحهم من الوقوع تحت سبوف المغول ، وفريق رأى ضرورة الدفاع عن المدينة ورفضوا الخضوع والاستسلام للكفار مهما كلفهم الأمر من جهد ومال وأرواح • وتشاجر الفريقان كل يؤيد رأيه حتى داهمهم جوجى ودخلت الجيوش المغولية المدينة بعد أن استولت عليها عنوة ، وسلم من سلم من أهلها ، وقتل من قاتل المغول ثم وضع جوجى على المدن المفتوحة حكاما من قبله ، وواصل سيره بعد نجاحه الكامل في ما كلف به وعبر نهر سيحون الى اقلليم خوارزم •

أما المجموعة الثالثة فقد سارت الى مدينة « بناكت » على نهر سيحون وتمكنت من دخولها بعد أن سلمها الأهالي ، وكان المغول قد أمنوهم على أرواحهم وممتلكاتهم لكنهم غدروا بأهلها وما أن دخلوها حتى فصلوا الجند عن الأهالي المدنيين ، وأعملوا القتل في رقاب الفريق الأول ، واختاروا من الفريق الثاني خيرة شبابه لينتفعوا بهم في أعمالهم الحربية • ثم سارت الفرق العسكرية المغولية بعد ذلك نحو الجنوب تجاه مدينة « خجند » الواقعة على نهر سيحون ، فتركها فائدها والتجأ الى جزيرة صغيرة في وسط النهر بعيدة عن شاطئيه ، فحاصروه حصارا شديدا • ومن الغريب حقا أن المغول استعانوا بقرابة خمسين ألف من شباب الخوارزميين الذين سخروهم لمساعدة الجيوش المغولية ، فكلفهم المغول باحضار الأحجار من الجبال المجاورة والقائها في النهر ، وأخيرا لاذ الحاكم الخوارزمي من مكمنه بالفرار من وجه المغول في سبعين مركبا بعد أن شحن جنده وأمتعته وسار في النهر متجها نحو الشمال ، لكن المغول كانوا يراقبونه من جانبي النهر الذى سدوه بقلنطرة من السفن ، فما كان منه الا أن امتطى صهوه جواده وماتل أعداءه قتال اليائس واستطاع الاغلات بنفسه فقط من حصارهم والوصول الى مدينة خوارزم حيث كان يرباط جلال الدين منكبرتى الابن الأكبر للسلطان الخوارزمي علاء الدين محمد •

چنكيز خان يستولى على بخارى ويبيد أهلها ويجعلها طعمة لليران :

أما المجموعة المغولية الرابعة والتي كان يقودها چنكيز خان وابنه

تولوى ، فانها توجهت الى مدينة بخارى ، واستولت على المدن التى صادفتها فى طريقها وجردتها مما فيها من ذهب وفضة وأشياء ثمينة ، وسخرت من يصلح من سكانها فى حصار مدينة بخارى . وعلى الرغم من أن الجيش الخوارزمى الذى وكل اليه أمر الدفاع عن المدينة كان يبلغ عشرين ألف مقاتل ، فانه ما لبث أن أنهار وخارت عزيمته وفقد حماسه أمام استعداد المغول وقوة روحهم المعنوية .

وهاجم المغول المدينة أياما متتالية بعنف وقسوة شعر المدافعون فى أثناءها باليأس ، وقرروا الانسحاب ليلًا ، وحتى يخترق المسلمون صفوف المغول قاتلوهم قتالا عنيفا ، وحققوا هدفهم فى فتح ثغرة فى جيش عدوهم ، وكانت ضربات الخوارزميين قوية حتى أن المغول أرغموا على الارتداد . وبدلا من أن يتتبع الخوارزميون أعداءهم الفارين ، نجدهم يفضلون الهرب من المعركة ، فعاد المغول وطاردوا المسلمين أثناء هروبهم واشتبكوا معهم فى قتال عنيف بالقرب من نهر سيحون ، انتصر فيه المغول وقتلوا كثيرا من جند المسلمين . أما من بقى من الأهالى فى المدينة ، فقد خارت قواهم رغم كثرتهم وقرروا الاستسلام ، وأرسلوا بدر الدين خان قاضى المدينة مندوبا عنهم رسولا الى چنكيز خان يعرض عليه تسليم المدينة ويطلب الأمان لسكانها ، فلما أجابه چنكيز خان الى طلبه فتحت أبواب المدينة لجحافل المول .

ودخل چنكيز خان مدينة بخارى فاتحا ونكت بعهد الذى أعطاه للقاضى بدر الدين خان مندوب شعب المدينة ، وبعد أن استسلم أهلها قهرا وهبها چنكيز خان لجنوده ، فنهبوا وعاثوا فيها فسادا وارتكبوا من الفضائح والموبقات الشئ الكثير . ثم سار چنكيز خان الى قلعتها لاحتماء كثير من الجند بها ، ودافعوا عن أنفسهم ، وتمكنوا من قتل عدد كبير من المغول ومن المسلمين الذين استخدموا فى حصار القلعة . وهال چنكيز خان كثرة ضحاياهم فانتقم من سكان المدينة بأن أخرجهم منها مجردين من أموالهم وأمتعتهم ، ثم حمل المغول على المدينة ، وأعملوا فيها النهب وقتلوا من صَادَفهم من السكان أو من كان متوارى ومختبئا من وجههم ، ثم أشعلوا النار فى المدينة ، فاحترقت بأسرها وصارت طعمة للنيران ، بحيث لم يبق من سكان بخارى الا من كان خارجها

تيل دخول المغول أو نزح إلى إقليم خراسان (١) . ان المذبحة التي أقدمت عليها جنكيز خان لسكان مدينة بخارى ، وضحاها لنا أحد الفارسيين الذين تمكنوا من الوصول إلى خراسان ، وقال قولة مقتضبة عبر فيها تعبيراً صادقاً عما حدث « آمدند - كشتند - سوختند - بردند ورفتنند » وترجمتها « أتوا - قتلوا - أحرقوا - نهبوا ثم ذهبوا » .

استيلاء المغول على سمرقند :

وبعد أن أجهز جنكيز خان على مدينة بخارى قصد سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر ، وصحب معه عدداً كبيراً من الأسرى الذين أسرهم من بخارى ليستعين بهم في حصار سمرقند . ومن المؤسف حقاً أن هؤلاء الذين سبقوا لحرب اخوانهم في الدين قتل منهم جنكيز خان في الطريق عدداً كبيراً ، وبخاصة أولئك الذين ظهرت عليهم علامات التعب ولم يقووا على مواصلة السير (٢) . وانضم لجيش جنكيز خان أيضاً الكثير من الفرقة المغولية التي انجزت أعمالها ، واستعد القاهر المغولي بمن معه من رجال وعقاد للإجهاز على مدينة سمرقند (٣) .

ان عدد أفراد حامية سمرقند كان مئاً نقاش لاختلاف الآراء ، ذلك أن المؤرخ الإيراني عطا ملك الجويني ذكر أن عددهم كان ستين ألفاً من الفرس (٤) ، وذكر ابن العبري أن حامية المدينة كانت تتكون من مائة وعشرة آلاف فارس (٥) ، أما ابن الأثير فذكر أنهم كانوا خمسين ألفاً (٦) . وإضافاً هيوارث أنه كان بالمدينة عشرون فيلاً أعدت للدفاع (٧) .

وعلى كل فإن الروح المعنوية التي ظهر بها الخوارزميون واستقبلوا

- (١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٤ .
- (٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
- (٣) ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٩٣ .
- (٤) عطا ملك الجويني : تاريخ جهانكشاي ، ج ١ ، ص ٩٥ - ٩٦ .
- (٥) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٥ .
- (٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٦٩ .
- (٧) Howarth : History of the Mongols, part 1, P. 79 .

بها أعدائهم - رغم عددهم - كانت تنبئ، بسقوط المدينة في وقت سريع على الرغم من مناعة حصونها وقلاعها ووفرة جنودها .

وما أن ظهر المغول أمام أسوار المدينة حتى دب الذعر في نفوس المحاصرين ، وأمر چنكيز خان الأسرى من المسلمين يسوقهم جند المغول بالتقدم لاحتلال المدينة ، فتصدت لهم فرقة من الجند الخوارزمية سرعان ما حلت بها الهزيمة . كذلك رأى فريق من الجنود الخوارزمية من ذوى الأصول التركية أن يستسلموا للمغول ، ويعرض الصلح والخدمة في الجيش المغولي على أساس انديم والمغول من أصل واحد ، فقبل چنكيز خان فكرتهم ووعدهم بإدخالهم في خدمته . فخرجوا من المدينة مع عائلاتهم وانضموا إلى المعسكر المغولي . وضيق چنكيز خان الخناق على المدينة وحاصرها محاصرة السوار للمعصم فلم يجد المحاصرون بدا من الاستسلام ، فخرج قاضى المدينة يتبعه كبار رجال الدين فيها ، وقصدوا معسكر چنكيز خان ليعرضوا عليه تسليم المدينة بشرط تأمين سكانها على حياتهم ، فوعدهم بالإجابة وتحقيق مطالبهم . وفتحت أبواب المدينة أمام المغول فدخلوها دخول الظافرين . وجريا على عادة چنكيز خان في خططه العسكرية والأجهزة على أعدائه فإنه أمر السكان بالخروج من المدينة ، فخرج بعضهم وتباطأ البعض الآخر ، فأعمل القتل في رقاب الذين لم يخرجوا ، كما ذبح كثيرا من السكان الذين خرجوا من بيوتهم طبقا لأوامره ، وحجز مجموعة كبيرة أيضا أهدها لأولاده وحريمه وقواده ، كما اختار عددا آخر للانتفاع بهم في الأعمال الحربية . أما رأى المدافعون بالقلعة ما حصل بإدبنة من دمار حاولوا الاستسلام . لكن چنكيز خان استولى عليها عنوة وقتل من كان فيها . وأخيرا سمح القائد المغولي لخمسين ألفا من السكان بالعودة إلى مدينتهم سمرقند بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية-(٨) . وهكذا تم استيلاء المغول على سمرقند في أوائل عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) .

كان فتح چنكيز خان لمدينة سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر نصرا للعسكرية المغولية وتنويعا لأعمال العسكرية . وقبل أن يغادر القائد

(٨) خواجه رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٩٦ .

المغولي سمرقند فرض على أهلها جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار ،
وصحب معه الى قره تورم ثلاثين ألفا من العمال والصناع الحرفيين من
أهالى المدينة ليعملوا هناك .

ان الاجهاز على اقليم ما وراء النهر كان ضربة قاصمة للخوارزميين
فى كافة النواحي حيث كانوا يعتبرونهم خط دفاعهم الأول ، فانهارت بالتبعية
بقية خططهم الدفاعية ومعنوياتهم وتحطمت نفسياتهم مما سهل على المغول
بعد الاستيلاء على اقليم الدولة الخوارزمية الباقية دون عناء .

تسخير اقليم خوارزم :

كان اقليم خوارزم ، أهم ولايات الدولة الخوارزمية ، وكان من
الولايات التى تسيطر عليها تركان خاتون والدة الخوارزمشاه علاء الدين
محمد . وكانت تتابع أخبار المعارك والهزائم التى منى الجيش الخوارزمى
بنفس مضطربة ، وما أيقن الخوارزمشاه علاء الدين محمد بالهزيمة والتشتت
راسلها يئذرها بالخطر ، وطلب منها أن تتقهقر هى ومن معها الى اقليم
مازندران لتكون فى مأمن من القتال . وفى نفس الوقت أرسل لها جنكيز خان
رسولا يستميلها الى جانبه ووعدا بأن يترك لها ما بيدها من املاك بعد
أن يتم أعماله العسكرية .

وبعد أن سيطرت الجيوش المغولية على ما وراء النهر ، قررت تركان
خاتون مغادرة اقليم خوارزم مع وصيغاتها وأحفادها أبناء علاء الدين محمد
الخوارزمشاه ، وحملت معها كل ماتمكن حمله من كنوز قنصدة العراق العجمي .
وقبل أن تغادر الاقليم أمرت بقتل من كان محبوسا من الملوك عند
الخوارزميين ، وكانوا بضعة عشر نفرا ، ثم سارت بالخزائن وقافلتها
النسائية ومن يحرسهم من رجال الى قلعة « ايلال » بمازندران (٩) ، لكن
المغول كانوا أسرع منها ، وما أن بلغهم خبر رحيلها حتى تنبعوها فوقت
أسيرة فى أيديهم ، فقادوها وحاشيتها وأبناء علاء الدين محمد الى معسكر

(٩) الذهبى : العبر فى خبر من غير ، ج ٥ ، ص ٥٩ وبلدان الخلافة
الشرقية ص ٤٠٩ ، والنسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٩٤ .

چنكيز خان حيث ظلت أسيرة لديهم ، وصحبوما معهم الى العاصمة « قره قورم » حيث ماتت هناك سنة ٦٣٠ هجرية (١٢٣٣م) . أما أبناء السلطان علاء الدين محمد الصغير فقد قتلهم چنكيز خان رغم حداثة سنهم ، كما أعطى ابنه چغتای اثنتین من بنات السلطان الخوارزمی فتنزوج واحدة منهما ، وأعدى الثانية لأحد رجاله المقربين . كما أعطى چنكيز خان ابنة ثالثة من بنات علاء الدين محمد لحاجبه دانشمند (١٠) .

أما إقليم خوارزم نفسه ، فإنه بعد مغادرة تركان خاتون وحاشيتها له فقد خلا من الحكام الخوارزميين أى نوع من الإدارة ، وبات ينتظر مصيره المحتوم على أيدي المغول خصوصا وأن الملكة فاتها تعين حاكم على الاقليم .

أما السلطان علاء الدين محمد فإنه انسحب الى مهدان في نحو عشرين ألفا من جنوده (١١) ولكنه ما أن بلغه خبر أسر والدته وأبنائه وما حل بهم حتى أصابه الهم والهزيمة ، ووصل آخر المطاف الى جزيرة « أبسكون » ، يقول الذهبي أن السلطان مرض بالاسهال وطلب الدواء فأعوزه الخبر غمات (١٢) ، وأسلم روحه في ١٣ شوال سنة ٦١٧ هجرية . فما كان من أولاده الثلاثة جلال الدين منكبرتي وأوزلاغ شاه وآق شاه إلا أنهم عبروا البحر الى إقليم خوارزم لمواصلة الكفاح حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والسرور . واستطاع جلال الدين منكبرتي الذي خلف والده أن يجمع جيشا كبيرا لمواجهة المغول ، لكنه واجه موقفا صعبا ، ذلك أن الجيش الذي تمكن من جمعه كان يتكون من القبائل التركية التي تنتمي اليها تركان خاتون ، والتي لم ترض عن تولي جلال الدين منكبرتي الحكم بعد أبيه ، فأراد أن يخضع الجيوش الثائرة بالقوة ، فتآمروا على قتله ، فلم يجد السلطان الجديد بدا من الفرار والنجاة بنفسه من الهلاك ، ففر الى خراسان ومعه ثلاثمائة فارس فقط . وما أن علم چنكيز خان بقوم أبنائه السلطان الخوارزمي وتجييشهم

(١٠) ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ١٠٣ - ١٠٧ .

(١١) الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٥٩ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

للجيوش حتى سير جيشا كبيرا بقيادة ثلاثة من ابنائه هم : جوجى وجغتاي وأوكتاي للقضاء على المقاومة في خوارزم . ولكى يحاصر جنكيز خان ابنسا ، السلطان الخوارزمى من كل جهة ، أمر جيوشه في خراسان بأن تتقف على الحدود الجنوبية للصحراء وعلى أعباء الاستعداد ، وكان ذلك في المنطقة الصحراوية التى تفصل خوارزم عن خراسان . وعسكر سبعمائة فارس مغولى بالقرب من مدينة نيسا . وعندما قدم جلال الدين منكبرى الى خراسان التقى بالمغول واشتبك معهم وقتل منهم عددا كبيرا لكنه هزم آخر الأمر لقلة رجاله وكثرة أعدائه . غفر الى نيسابور .

... أما أوزلاخ شاه وآق شاه فكانا أسوا حظا من أخيهما جلال الدين منكبرى . فقد غرا الى خراسان ولحق بهما المغول بالقرب من نيسا . ثم وقفا في الأسر . وقطع المغول رأسيهما ورشقوهما في سهمين ، ثم طافوا بهما في جميع أنحاء خوارزم اماعنا في السخرية بالخوارزميين ، وانذارا للمتمردين وأرأسيا للأعالي المستسلمين .

وتقدم المغول نحو مدينة « جرجانية » حاضرة خوارزم والتي كانت من أكبر المدن الإسلامية وأكثرها عمراناً في ذلك الوقت ، وطلبوا من أهلها التسليم ووعدهم المغول حسن المعاملة ، وأعلنهم جوجى أن أباه الخاقان أعطاء إقليم خوارزم ليحكمه . إلا أن الأهالى أثروا المقاومة ، وحاصر المغول المدينة ستة شهر ، وتكبدوا خسائر جسيمة ، حتى أن القادة طالبوا من جنكيز خان المدد ليعوضهم عما خسروه في المعارك . وأخيرا استولوا على المدينة وأشعلوا النار في منازلها . وأمر القائد المغولى الأعالي بالخروج من المدينة ، وطلب من أصحاب الحرف أن يقفوا في مكان منعزل ، وأعمل المغول السيف في رقاب من بقى من السكان . وكان على كل جندي مغولى أن يقتل أربعة وعشرين رجلا خوارزميا حتى أنه لم يبق من سكان المدينة إلا الفتيات الصغيرات والأطفال الذين استرقهم المغول . ولم يكتف المغول بما فعلوه في سكان المدينة ، وما أشعلوه من حرائق . بل انهم فتحوا سدود نهر جيحون فغرقت المدينة وتهدمت أبنيتها وأصبحت خرابا .

وبهذه الطريقة البربرية . أو المغولية اللجنكيزية على أصح تعبير ، سيطر

المغول على إقليم خوارزم ، والذي كان لهم معبرا الى اقليم خراسان لينال
بحريتهم الخالية .

الاجهاز على خراسان :

بدأ جنكيز خان هجومه على خراسان اثناء عملية اجهازه على اقليم خوارزم .
وكان اول ما فعله القائد المغولي ازا، خراسان ان امر بارسال فصائل
من جيشه في ذات الوقت الذي ارسل فيه جيشا الى اقليم خوارزم ليسد
السلالك على الخوارزميين حتى لا يترك لهم سبيلا للهرب . وتعرضت
خراسان قبل ذلك بفترة يسير لغزو مفاجئ ، قام به كل من « جبه نويان »
و « سويوتاي » حينما كانا يطاردان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ،
فاستوليا على بعض المدن الخراسانية الهامة مثل نيسابور . وكان جيش
الاحتلال المغولي في خراسان قليل العدد ، ذلك لان القائد المغولي لم يهتما
كثيرا باخضاع خراسان قدر اهتمامهما بمطاردة الخوارزمشاه واسرته . ومع
ذلك فقد وضعوا قواد من المغول على المدن المفتوحة واستسلم الاهالي لهم نتيجة
ما سمعوه من فطائح اقترفها المغول في البلدان الاسلامية التي استولوا
عليها بحد السيف وبخاصة تلك التي قاوم شعبها المغول . ومع ذلك حاولت
بعض المدن الخراسانية الخلاص من الحكم المغولي ، مثل قتل الخوارزميين
الحاكم المغولي في مدينة طوس ، واجهازهم على من بها من جند وتخليصها
من نير المغول . او بمعنى أدق تطهرها من دنسهم . واستمر الوضع قائما
على ذلك . جيش احتلال مغولي قليل العدد ، واعالي يخشون كارثة تتبع
على ايدي المغول البرابرة ، حتى صدرت الاوامر لتولوي بن جنكيز خان
بالسير الى خراسان في خريف عام ٦١٧ هجرية (١٢٢٠م) ومعه سبعين
الفا من المغول . وفي نفس الوقت عبر الخافان بنفسه الى الضفة الغربية
لنهر جيحون قاصدا احتلال مدينة بلخ ، وتم له الاستيلاء عليها عام ٦١٨
هجري (١٢٢١م) . ولم يعفها من التخريب ، كما لم يعف أهلها من القتل .

وتقدمت طلائع جيش تولوي بقيادة « طغاجار Togachér » زوج
ابنة جنكيز خان وتحت امرته عشرة آلاف جندي ، وعسكروا تجاه مدينة
نيسابور . وتمكن المحاصرون من الانفراد باحدى كتائب المغول ، وقتلوا عبدا
كبيرا منهم من بينهم قائدهم ، فحاصر طغاجار المدينة مدة خمسة عشر يوما

استطاع أن يحدث ثغرة في سورها واحتلالها ليلا . وما أن طلع النهار حتى بدأ المغول يشارون من الأهالي ، فأخرجوهم من منازلهم . وأمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر وأن يربط ذراع كل رجل وراء ظهره . ثم أجهز المغول على سكان المدينة جميعهم ، نساء ورجالا وأطفالا ، حتى قيل أن عدد من قتل من سكان تلك المدينة بلغ أكثر من سبعين ألف .

وانتشر المغول بعد ذلك في خراسان ، وكانوا كلما حلوا ببلد جمعوا الأهالي وساقوهم أمامهم لمساعدتهم في حصار الأماكن التي يرغبون في الاستيلاء عليها . كما أرغموا حكام المقاطعات واتباعهم على الاشتراك في أعمال الحصار ، بل والقتال ، ومن أبى منهم قتلوه شر قتله .

وسار طغاجار بعد مذبحة نسا الى مدينة نيسابور في نفس السنة (٦١٧هـ) . وعاجم المدينة فقتل بسهم من سهام المسلمين ، وانسحب من تولي القيادة بعده تاركا عملية فتحها لجيش تولوى .

وكانت المهمة الأساسية لتولوى في خراسان تنحصر في الاستيلاء على حاضرتة « مرو » والتي كانت مقر سلاطين السلاجقة ، ومن بينهم ملكشاه وابنه سنجر ، ثم اتخذها الخوارزميون حاضرة لهم بعد أن استولوا على أملاك السلطان سنجر في خراسان . وعندما فر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه من إقليم ما وراء النهر ، أمر بنقل دواوين الحكومة والمصالح العامة ووثائق الدولة من مرو الى إحدى القلاع الحصينة ، ووضع حامية للدفاع عن المدينة وحماية الأهالي الذين يبقون فيها .

الاستيلاء على مرو حاضرة الدولة الخوارزمية :

ظهر تولوى أمام مدينة مرو على رأس جيش جرار يتكون من سبعين ألف رجل بينهم عدد غفير من أسرى البلاد الإسلامية التي خضعت للمغول . وكان أول عمل أقدم عليه المغول إبادة قرابة عشرة آلاف رجل من الخيالة التركمان كانوا يعسكرون على مقربة من المدينة بعد أن استدرجهم في كمين فقتلوا منهم عددا كبيرا ، وفر الباقون ، وغنم المغول منهم عددا كبيرا من قطعان الماشية التي كان التركمان قد نهبوها من مرو .

تلى ذلك احكام حصار المدينة وسد منافذها بقوات مكثفة حتى لا يهرب أحد من أهلها ، ووجد حاكم مرو أن لا طاقة له بمحاربة المغول ، فأرسل كبار رجال الدين الى تولوى يعرضون التسليم . بشرط تأمين من في داخل المدينة . فوعدهم تولوى بتحقيق طلبهم . وخرج حاكم المدينة وتوجه الى معسكر المغول يحمل الهدايا الى تولوى ، الذى استقبله ووعدته بتثبيته في حكم المدينة ، وطلب منه رؤية كبار رجال مدينته وأعيانها ليخلع عليهم الخلع ويمنحهم الهبات . فجدد الحاكم الخوارزمي في استدعائهم . ولما حضروا الى معسكر المغول قيدهم تولوى ومعهم الحاكم المستسلم وطلب منهم اعداد قائمة باسماء الأغنياء وكبار الملاك الذين جى بهم الى معسكر المغول مع نحو اربعمائة من أصحاب الحرف والمهن . وفعلوا ما أراد . ثم دخلت الجيوش المغولية المدينة وطاردت السكان الذين أمرهم تولوى بالخروج ، فوقعوا جميعا في فخ المغول بين قتل وجريح وشريد (١٣) .

وما ان نجح تولوى في تخفيض هدفه والاستيلاء على المدينة ونجريد سكانها من أى مقاومة وزع سكان مدينة مرو من الرجال والنساء والأطفال على جند المغول وأمرهم بقتلهم جميعا ، ولم يبق من السكان سوى الاربعمائة رجل حرق الذين أبقاهم المغول للانقناع بهم في الأعمال الحربية . وأزال المغول اسوار المدينة ومبانيها ودمروا قلعتها . ونهبوا قبر السلطان سنجر السلجوقي . وكار بناء فخما ظنا منهم أنهم سيجدون فيه ذهباً وفضة . وملك سكانها جميعهم الذين قدرهم ابن الأثير بسبعين ألفا (١٤) . أما الجوينى فذكر أن جملة قتلى مرو بلغ مليوناً وثلاثمائة ألف ، عدا الجثث التى كانت في اماكن خفية لم يستدل عليها (١٥) .

ثم أسرع تولوى بعد ذلك الى مدينة نيسابور ، فأتى عليها بعد أن وقف أهلها جميعا يدا واحدة ضد المغول ، لكن قوة المغول وكثرة عددهم أفقدتهم رباطة جأشهم . وأرسل الأهالى نوابا عنهم من الأئمة وكبار رجال المدينة . وعلى رأسهم قاضى قضاة خراسان الى معسكر المغول . وعرضوا

- (١٣) مير خواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ١١٠ - ١١٧ .
 (١٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٨١ .
 (١٥) علاء ملك الجوينى : تاريخ جهانگشا ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

على تولوى تسليم مدينتهم ، وتعهّدوا بأن يؤدّوا للمغول ضريبة سنوية ،
 لكن تولوى رفض التسليم وقرّر الانتقام لقتل زوج «أخته» «طعاجار» .

ولم يمضِ قصير وقت حتى تمكّن المغول من اختراق حصون المدينة .
 وأحداث ثغرات عديدة في حوائطها مكنتهم من دخولها من جميع جهاتها بعد أن
 أنجزوا على الجنود المدافعين عنها ، وتمكّنوا من احتلالها والقضاء على البقية
 الباقية من الرجال المحاربين فيها والأجهزة على من اختبأ في المنازل ومصارف
 المياه والشوارع . ودخلت ابنة جنكيز خان أرملة طعاجار يصحبها عشرة
 آلاف رجل ، فقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال ، ولم يتركوا
 حتى القطط والكلاب . وحتى يطمئن تولوى إلى القضاء على جميع سكان
 المدينة ترك بعد رحيله عددا من الجنود لقتل السكان الذين قد يظهرون بعد
 رحيل الجيش المغولي . فعلا ظهر عددا منهم كانوا مختبئين بين التلال
 أجزّز عليهم المغول . وقد قدر عدد من قتل سكان مدينة نيسابور بنحو
 مليون ونصف المليون (١٦) .

وانتقل تولوى بعد أن أجهز على نيسابور إلى مدينة هرات - التي
 كانت تعد آخر مدن خراسان الهامة - وعسكر في سهل خصيب يشرف
 عليها . وأرسل رسولا من قبله يطلب إلى أهلها التسليم والا فسيلقون
 جزاء! كبيرا ، غير أن القتل كان نصب ذلك الرسول ، واستعد حاكمها للدفاع
 عنها . فأمر تولوى بمهاجمة المدينة من جميع جهاتها في آن واحد . وبعد
 ثمانية أيام عرض حاكم المدينة التسليم بشرط تأمين الأهالي على أرواحهم .
 فوافق تولوى على ذلك . وما أن دخل المدينة حتى أمر بقتل عدد كبير من
 جند الخوارزميين من أتباع السلطان جلال الدين منكبرتي الذي خلف
 أبيه علاء الدين محمد على حكم الدولة الخوارزمية ومسئولية الدفاع عن الإسلام
 والمسلمين . كما قتل تولوى أيضا اثني عشر ألفا من سكان المدينة المنفيين .
 ولأول مرة يرى تولوى يولى حاكما مسلما على مدينة خوارزمية ، وإن كان ذلك
 الحاكم هو الآخر كان تحت رقابة حاكم مغولي (١٧) .

(١٦) مير خواند : روضة الصفا ، ج ٥ ص ١١٧ - ١١٩ .

(١٧) مير خواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ١١٩ - ١٢٥ .

وبعد أن أجهز تولوى على مدينة هرات ، تلقى أمرا من أبيه چنكيزخان ليخلق به عند مدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون . وكان الخاقان قد عزم على الرحيل إلى منغوليا ، وبذلك خضع إقليم خراسان برمته للمغول بعد أن دمروه تماما .

خضوع الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية للمغول :

انتهت المرحلة الأولى من تحطيم الدولة الخوارزمية ، والتي استولى المغول فيها على الأقاليم ما وراء النهر وخوارزم وخراسان . وتلى ذلك مرحلة أخرى تتمثل في مطاردة المغول للسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه . وقد تولي هذه المهمة القائدان الشهيران « جبه نويان » و « سوبوتاي » ، وكانت تعليمات الخاقان لهما بالسفر في أثر السلطان الخوارزمي فإذا وجده على رأس جيش كبير يتجذبه انتظارا لوصول إحد من الجيوش المغولية . أما إذا ركن السلطان إلى الفرار ، فيجب عليهما أن ينتبعا بلا تردد .

وقد ظهر اليأس على السلطان علاء الدين محمد بعد أن رأى اكتساح المغول لبلاده ، وشلت حركته وانهارت مقاومته ، كذلك ما لبث أن تسرب اليأس إلى رجال الخوارزمشاه . أما السلطان فأثر الابتعاد عن مسرح السياسة والحرب معا ، وبدأ يستعد للهرب عازما الرحيل إلى الأقاليم الغربية من بلاده على يجد الأمن فيها . أما رجاله وقادة جيشه فإن كل واحد منهم بدأ يفكر في نفسه ويسعى للحفاظ على حياته بعد انهيار الدولة واكتساح المغول للعالم الإسلامي .

وفي نفس الوقت الذي قرر فيه علاء الدين محمد الخوارزمشاه الهروب عقد مجلسا طارئا ضم وزراءه وكبار قادته للتشاور فيما يفعله الخوارزميون لمواجهة الموقف المتدهور . وانقسم المجتمعون في الرأي ، فريق رأى أنه لم يعد هناك من الوقت ما يتسع لحماية بلاد ما وراء النهر وأنه يجب التركيز لحماية الأقاليم الواقعة غربى نهر جيحون . وفريق آخر رأى وجوب انسحاب السلطان علاء الدين محمد إلى غزنة ، وهناك يجمع جيوشه المتفرقة ويواجه بها المغول بعد تنظيمها واستعدادها للقتال ، وإن حلت الهزيمة

بالبجيش الخوارزمى يمكن الانسحاب الى الهند ومعاودة الكرة مرة بعد اخرى .

وفضل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه الراى الثانى ، وسار فى طريقه الى غزنة ، لكن حدث وهو فى مدينة بلخ ما دفعه الى تغيير خطته والاتجاه نحو العراق العجمى اثر ايعاز من وزيره « نظام الملك » الذى زين له الاتجاه الى الغرب لعله يجد هناك المال والرجال لمساعدته فى محنته لصد المغول . وما أن وصل السلطان علاء الدين محمد الى مدينة نيسابور ، علم أن المغول قد عبروا نهر جيحون ، وأنهم يجدون فى البحث عنه ، لذلك بادر الى مغادرة المدينة ويمم شطر العراق العجمى .

وجد القائدان المغوليان جبه نويدان وسوبوتاي فى السير للحاق بالسلطان الخوارزمى كتعليمات الخاتان ، وكل منهما يقود فرقة من ألف جندى مغولى ليس أكثر ، واستوليا على مدينة الرى . وقيل استيلائهم على الرى عثروا مصادفة وهم فى الطريق على والدة السلطان « تركان خاتون » التى انسحبت من خوارزم وأرادت أن تعتصم بقلعة فى العراق العجمى ، فأسروها ووضعوا أيديهم على ما معها من نفائس وكنوز وجواهر . وبعثوا بهذا كله مع أسيرتهم الى چنكيز خان . وكان لسقوط مدينة الرى فى أيدي المغول أثر كبير على نفسية السلطان علاء الدين محمد الذى كان حتى ذلك الوقت يفكر فى المقاومة ، أما بعد ذلك فانه أخذ يفكر فى الهرب والخلاص . كذلك كان حال الخوارزميين فانهم أيقنوا أنه لا فائدة من الدفاع ، وأخذ كل منهم يفكر فى الطريق الذى ينجيه من الهلاك ، وهرب الجنود ، وتركوا السلطان بمفرده يواجه الموقف الصعب . كما استولى الفرع على الأهالى ، وبدأ كل شخص ينظر الى نفسه وتدبر حاله والتنصل من المسؤولية حتى أصبحت البلاد دون قادة أو حكام ، كل يواجه مصيره بنفسه . وعندما دخل المغول مدينة الرى وجدوا سكانها مختلفين مع بعضهم ، وأصحاب المذاهب الاسلامية فى قمة خلافاتهم فى تفسير بعض نصوص القرآن الكريم مما سهل على المغول الاستيلاء عليها بسهولة ويسر ، وقتلوا كل من كان فيها .

موت السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه :

فضل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه التوجه الى اقليم مازندران ، وفعلا تمكن من الوصول الى ذلك الاقليم الذى لم يكن قد أصيب بشئ على أيدي المغول ، واستقبله أمراء تلك الجهات بكل ترحاب ونزل بينهم بما يليق بمقامه . وكان يرافقه ثلاثة من أبنائه هم : جلال الدين منكبرتي وأوزلاخ شاه وآق شاه . ولما سأل عن قاعة أمينة يمكنه الاحتما بها ، أشاروا عليه بالالتجاء الى احدى الجزر في بحر قزوين لا تبعد كثيرا عن ساحل مازندران . ورأى السلطان علاء الدين محمد نفسه يعمل بتلك المشورة ، وانتظر عدة أيام في احدى القرى الواقعة على ساحل البحر . لكن المغول لم يلبثوا ان اقتفوا أثره واستدلوا على مكانه وهجموا على القرية ، فركب السلطان علاء الدين محمد احدى السفن وتوارى عن الساحل . وقد أراد بعض الخيالة المغول اللحاق به فرموا أنفسهم في الماء فابتلعتهم الأمواج .

وأخيرا وصل السلطان الخوارزمي وأبنائه الثلاثة الذين بقوا له الى جزيرة « آبسكون » (١٨) والتجأ اليها ، وأقام خيمة نصبها له أحد الأمالي . وقد ساعد السلطان أمالي المنطقة الذين كانوا يقيمون على الشاطئ ، فقد كانوا يأتونه بما يلزمه من مأكول وما يحتاجه من ضروريات الحياة . وفي ظنير ذلك كان السلطان يوصى باقطاعهم الاقطاعات . ولما استعاد جلال الدين منكبرتي أملاك أبيه بعد بضعة سنين أقر هذه الاقطاعات لأصحابها .

وجد السلطان الخوارزمي وحده في جزيرة نائية بعيدة عن العمران بل والحياة ، وحل عليه التعب والارهاق ، فمرض مما وقع له ولدولته ولشعبه . وما ان علم أن أمه تركان خاتون قد وقعت في أسر المغول ، وأن بعض نسائه وأطفاله الذين كان قد أودعهم احدى القلاع قد وقعوا أيضا في أسر المغول وقتلواهم عن آخرهم ، اشتد عليه المرض ، وما ان شعر بدنو أجله حتى استدعى أبناءه الثلاثة الذين كانوا يرافقونه في رحلته ووكل

(١٨) يذكر حبيب الله شاملوئي في كتابه « تاريخ ايران » أن جزيرة « آبسكون » كانت تقع عند مصب نهر جرجان ، ولا وجود لها الآن ، ص ٤٤٥ .

أمور دولته الى ارتد ايماناه جلال الدين منكبرتي ، وأعلن انه الوحيد الذي يستطيع حماية الدولة الخوارزمية وخلع ابنه أوزلاغ شاه الذي كان قد نصبه قبل ذلك ولما لمعهده . ومما قال لأبنائه ، هذه العبارة المؤثرة التي ذكرها النيسوي (١٩) .

« ان عرى السلطنة قد انفصمت ، والدولة قد وعنت قواعدها وتهدمت ، وهذا العدو قد تأكدت اسبابه ، وتشبعت بالملك أطفاله ، وتعلقت ادبياه وليس يأخذ بئار منه الا ولدى منكبرتي ، وما انا موليه العبد ، فليكما بطاعته » .

وبعد ان قضى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه في جزيرة « أبسكون » شهرا ، توفي في ١٣ شوال سنة ٦١٧ هجرية (١٢٢١م) . ومما يؤسف له ان المحيطين بالسلطان عجزوا عن ايجاد كفن يكفونه به ، فقام كل من « سيد شمس الدين محمود بن بلاغ جاوش » و « مهتر مهتران مقرب الدين » رئيس ومقدم الفراشين بغسله ، وخلع سيد شمس الدين محمود فعيصه وكفنه به . وأمر السلطان الجديد جلال الدين منكبرتي بدفن والده في نفس الجزيرة .

أما القائدان المغوليان جبه نويان وسوبوتاي فانهما استوليا على ما مرا به من الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية أثناء مطاردتهما للسلطان علاء الدين محمد ، كما تمكنا من الاستيلاء على كل ما كان يحمله السلطان من كنوز وأحجار كريمة وآنية ذهبية وفضية ، وبعثا بها الى الخاقان .

وسارت جيوش المغول الى همدان التي فتحت صلحا ، ثم اتجهت صوب قزوين واستولت عليها أيضا بعد أن قتل من أهلها ما يزيد على أربعين ألفا . وعلى هذا النحو وضع المغول أيديهم على العراق العجمي . واتجه المغول بعد ذلك الى آذربيجان في نفس السنة (٦١٧هـ) حيث كان يحكمها الأتابك أوزبك بن البهلوان ، ففضل مسالمة أعدائه المغول الذين صالحوه بعد ن غمرهم بهداياه من مال وثياب ودواب ، ودخل المغول

(١٩) النيسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٢٠ .

مدينة تبريز عاصمة أذربيجان وحاضرة أزوبك بن البهلوان الذي قبل أن يكون تابعاً لهم .

المغول في غزنة :

بدأ السلطان جلال الدين منكبرتي عهده بأن قرر اتخاذ غزنة قاعدة للفضال الإسلامي ضد المغول . وبدأ يكتب الامراء والحكام ويحثهم على مساعدته بالرجال والعتاد . لكن المغول كانوا يتعقبونه من مكان لآخر لمعرفة أنه أقوى الامراء شوكة وأجراهم على الحرب والنزال . وأخيراً وصل جلال الدين منكبرتي الى غزنة حيث رحب به الأعلى ، وانضم تحت لوائه جموع غفيرة من مختلف الأجناس (٢٠) وتمكن جلال الدين منكبرتي بحسن سياسته وقوة شخصيته أن يؤلف بين جنود غزنة المتنازعين . ومن أخذتهم الحماية والغيرة على الاسلام من المتطوعين . وأنته الأموال من وجهاء المسلمين وفقرائهم على حصد سواء الذين أدركوا أن البلاد في خطر والاسلام في محنة . وهكذا استطاع جلال الدين منكبرتي تكوين جيش اسلامي قوى بلغ عدده قرابة سبعين ألف فارس .

السلطان جلال الدين منكبرتي يهزم المغول :

فاجأ السلطان جلال الدين منكبرتي في ربيع عام ٦١٨ هجرية (١٢٢١م) طلائع جيش المغول الذي كاثقتفى أثره ، وانقصر عليه انتصاراً ساحقاً في معركة خاطفة قتل فيها من المغول قرابة ألف رجل منهم ، ثم ظهر جيش المغول الاساسي . وكان قوامه ثلاثين ألف رجل . وكان الصراع شديداً والغلبة تتأرجح بين القوتين المتصارعتين . وأخيراً انتصر جلال الدين منكبرتي على جيوش المغول بعد أن سالت الدماء وغطت الأودية القريبة من ميدان القتال . وولت خيالة المغول الأدبار ، واصطادهم جنود السلطان وأجهزوا عليهم . وكان انتقام الخوارزميين من المغول شديداً . حيث كانوا يذقون الأوتاد في أذان الأسرى ، وجلال الدين ينظر اليهم ويعلموا وجهه البشاشة بما ظفر (٢١) .

(٢٠) الذنوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي .

ص ١٣٢ - ١٣٤ .

(٢١) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

ووصلت أخبار السلطان جلال الدين منكبرتي الى بعض المدن الاسلامية التي خضعت للمغول ، فظننت أن انتصار السلطان ضربة قاضية لجيوش چنكيز خان . وأن وقت الخلاص قد حان ، فثارت في وجه المغول . وكانت من بين تلك المدن هرات التي اشتعلت فيها نيران الثورة عندما سمع سكانها بانتصار جلال الدين منكبرتي . وتقدم چنكيز خان بنفسه الى المدينة واستطاع الاستيلاء عليها . وقتل من أهلها مليوناً وستمائة ألف رجل . كما أجهز المغول على كل شيء فيها ولم يسلم من القتل الا أصحاب المهن والحرف الذين أبقاهم المغول للاستفادة من خبرتهم ونقلهم الى منغوليا كعسائرتهم .

ولم ينعم السلطان جلال الدين منكبرتي بانتصاره على المغول ، ذلك أنه حدث خلاف بين قادة جيشه ، انتهى بشجار بين الأطراف المتنازعة ، حتى أن بعض القادة اعتدى على آخرين باللكم والضرب بالمقارع (٢٢) ، فانسحب أحد القادة المضروبين الى مدينة بشاور ، وانضم اليه عدد كبير من الجنود الغورية وتركوا مدينة غزنة بعد أن خابت جميع جهود السلطان لاعادتهم والصلح بين الأطراف المتنازعة . ولما وجد السلطان جلال الدين منكبرتي أن جيوشه قد أصبحت مقصورة على الأتراك الخوارزميين دون الجنود الغورية الذين كانوا يكونون عصب الجيش الاسلامي أدرك أنه لم يعد قادراً على مواجهة المغول ، واضطر الى الانسحاب الى سهل يقع غربي نهر السند حين علم بقدوم المغول بقيادة چنكيز خان الى إقليم غزنة للانتقام من الهزيمة التي حلت بجيشه في سهولها .

وجمع جلال الدين السفن ليعبر بها نهر السند هو وجنوده على يجد مأمناً في بلاد الهند . وما أن علم البحارة الهنود من أهل السند بمقدم چنكيز خان حتى لاذوا بالفرار بسفنهم تاركين السلطان الخوارزمي وجنوده على الشاطئ ، ولم يستطع جلال الدين منكبرتي أن يحصل الا على سفينة واحدة أمر أن تنقل فيها أمه وزوجه وأولاده الأطفال . لكن المركب ما لبث أن تحطمت وتعرض عبور أسرة الخوارزمشاه . وفي هذه الأثناء وصل

(٢٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٥٥ .

چنگيز خان الى غزنة وجد في السير للحاق بجلال الدين منكبرتي ليحول دون عبوره النهر .

وهكذا أجبر چنگيز خان عدوه السلطان الخوارزمي على خوض معركة غير متكافئة . بدأها بأسر مؤخرة جيشه وأجهز عليها ، ثم حاول أن يطوق الباقي بقوات تنتشر على شكل نصف دائرة لتسد جميع المنافذ على الجنود الخوارزمية وتحصرها بين نهر السند من جهة والجيش المغولي من جهة أخرى . ورأى جلال الدين منكبرتي أن يختار أمرين ، إما أن يبذل أقصى ما يستطيعه من جهد فينتصر على المغول أو يموت إما بسيف المغول ورماحهم . وإما غرقا في نهر السند . وثبت السلطان جلال الدين منكبرتي أول الأمر لهجوم المغول حتى أنه حمل بنفسه على قلب الجيش المغولي حيث يقيم چنگيز خان فمزه وأصابه بتلفيات شديدة ، وكان الجيش المغولي بنهزم وتدور الدائرة عليه لولا أنه تمكن من كسر ميمنة جيش السلطان ، نانهزمت وتبددت . كذلك حلت الهزيمة بالميسرة ، ووقف جلال الدين منكبرتي في القلب ومعه سبعمائة رجل يقاتلون بشجاعة نادرة ويحاولون أحداث ثغرة في صفوف أعدائهم حتى يهربوا منها .

السلطان جلال الدين منكبرتي يفر الى الهند كلاجي وطريد :

ولما لم يجد السلطان جلال الدين منكبرتي سبيلا الى اختراق صفوف المغول ، ولّى وجهه شطر النهر وقذف بنفسه وهو ممتط جواده من ارتفاع عشرين ذراعا ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يعبر النهر الى الجانب الشرقي . أما جيشه الذي ثبت معه فقتل عدد كبير من جنوده في المعارك التي نشبت وغرق الباقون الذين حاولوا العبور الى الضفة الشرقية . وأسر المغول أحد أبناء السلطان وكان طفلا دون الثامنة فقتله چنگيز خان بيده . يقول ابن الوردي ويؤيده في ذلك النسوي مؤرخ الخوارزميين ما يلي : « رأى (السلطان جلال الدين منكبرتي) والدته وأم ابنه وحريمه يصحن بالله عليك اقتتلنا وخلصنا من الأسر ، فأمر بهن فغرقن ، وهذه من عجائب البلايا ونوادر الرزايا » (٢٣) .

(٢٣) ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر ، ص ١٥٥ .
وأيضا النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ١٥٩ .

وعم كثير من الجنود المغولية بعبور النهر والإحاق بجلال الدين ،
غير أن چنكيز خان أسرع ومنع جنوده من اللحاق بالسلطان . ولما علم
چنكيز خان أن عدوه الخوارزمي أمر بالقاء كل ما كان يمتلكه من ذهب
وغضة في نهر السند حتى لا يقع غنيمة سهلة في يد المغول ، أمر بعض رجاله
المختصين في الغوص بالبحث عن الكنوز الخوارزمية ، فغاصوا في النهر
وأمكنهم انتشال بعض هذه الكنوز (٢٤) .

وعم جلال الدين منكبرتي على وجهه في بلاد السند يبحث عن مأوى ،
ومعه قرابة أربعة آلاف من الجنود الخوارزمية الذين استطاعوا النجاة
بأنفسهم والعبور الى الضفة الشرقية من نهر السند واللاحق بسلطانهم .
ومن المؤسف حقاً أن جنود السلطان جلال الدين منكبرتي وكلهم من الترك
ثم يزعوا حرمة اقامتهم في بلاد الهند ، التي استضافهم شعبها وقدم لهم
ما يحتاجونه من مؤن وعناد وملابس ، وتصرفوا وكأنهم في ديارهم فأغاروا
على بعض اقلبيهم الهند العامرة وخربوها وجمعوا ما بها من ذهب وغضة
واغتدوا على النساء واستولوا على عدد وفير منهن ، وفرضوا الاتاوات
على الحكام والأهالي ونهبوا ما وجدوه امامهم من ملابس ومأكول وسلاح
 وغير ذلك من اللقياس ، وباختصار عاثوا في البلاد فسادا مما ترك اثرا سيئا
 لدى كافة الهنود من المسلمين وغيرهم عن هؤلاء الخوارزميين .

وفكر جلال الدين منكبرتي في الالتجاء الى مدينة دهلي عندما علم أن
نصائل مغولية تجد في البحث عنه . وما أن علم سلطان دهلي باقتراب
السلطان الخوارزمي ورجاله من المدينة عمل على انبعاثه بشتى الطرق ،
فأرسل اليه الهدايا وعرض عليه صداقته . كما عرض عليه ابنته ليتزوج
منها ، ثم أفهمه أن جو بلاده لا يلائمه . فامتنل السلطان جلال الدين
منكبرتي النصيحة سلطان دهلي وابتعد عن المدينة .

ان الفقرة التي قضاها السلطان جلال الدين منكبرتي في الهند كانت
تاسية للغاية على سلطان مثله ، وكثيرا ما كان يظهر بمظهر الكسير الذليل

من حول ما أصاب دولته بعامه . وما أصاب أسرته بخاصة ، بعد موقعة السند التي فقد فيها كل شيء ، أمه وأم ولده وابنه وحريمه وجيشه وأمواله وعرشه آخر الأمر وصار طريدا مطاردا لا يعرف ماذا تخبئه الأيام .

نهائية جنكيز خان :

عزم جنكيز خان على العودة الى منغوليا في ربيع عام ٦٢٠ هجرية (١٢٢٣م) . بعد ان دمر اماكن الخوارزميين وحطم كل محاولة فيها ، وجعل البلاد الاسلامية تشبه ما تكون بصحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ، واباد سكانها وخرب مدنها وأزال عددا منها . كذلك نجح الطاغية المغولي في تشريد السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه الذي ظل طريدا شريدا تتلفقه مدينة وتلفظه أخرى . الى ان مات منكسر الجناح ذليلا في جزيرة « آيسكون » ببحر قزوين . كما طارد ابنه وخليفته جلال الدين منكبرتي حتى اجهه الى بلاد الهند لا يلوى على شيء ، يتقبل الحسنة والهبات والمواساة . وأصدر جنكيز خان قرارا - قبل ان يبدأ رحلة العودة - بقتل جميع الأسرى الكثيرى العدد الذين تجمعوا في خيام المغول . حيث كانت كل خيمة تضم حوالى عشرين أو ثلاثين أسيرا من الحرفيين والفنانين وكبار الشخصيات والقادة الخوارزميين وغيرهم ، فقتلوا جميعا في ليلة واحدة . ان هذه المذبحة لم يعرف لها التاريخ مثيلا حيث سالت دماء هؤلاء الأسرى على شكل نهر سريع الجريان . وأما هؤلاء كانوا من الشباب المسلم الذين أجبرهم المغول على القتال في صفوفهم ، أو أصحاب الحرف والفنون أو كبار القوم وعليتهم .

وسارت الجيوش المغولية في طريق التبت أولا ، لكن الخاقان أدرك مدى الصعاب التي ستواجهه أثناء عبور الأقاليم الجبلية الوعرة المغطاة بالثلوج ، فعاد الى بشاور وآثر ان يسلك الطريق الذى سلكه عند قدومه الى ايران . ولما وصل الى مدينة بلخ امر بقتل جميع السكان الذين عادوا وسكنوا المدينة ، ثم عبر نهر جيحون فوصل الى مدينة بخارى ومنها الى سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر ، فلما وصل اليها خرج كبار رجال الدين فيها لاستقباله ، ولما مثلوا بين يديه طلب الدعاء له في الخطبة ، ثم أمر باغاثهم من الضريبة التى كانوا يدفعونها . وفي سمرقند طلب

چنكيز خان ابناءه جميعا ليكونوا الى جانبه حينما يرحل الى منغوليا .

وقضى چنكيز خان شتاء عام ٦٢٠ هجرية (١٢٢٣م) في سمرقند وضواحيها ، ولما حل الربيع بدأ في السير ، والتقى بولديه چغتاي وأوكتاي ، والأخير كان في قافلته أسيرة ملكية هي تركان خاتون أم السلطان علاء الدين محمد وجدة السلطان جلال الدين منكبرتي . وقضى چنكيز خان السنة التالية (٦٢١هـ) في الطريق الى موطنه الأصلي . وفي هذه الفترة تقابل مع حفيديه قوبيلاي وهولاكو ، وكان الأول في الحادية عشرة من عمره ، والثاني كان في التاسعة . وأخيرا وصل چنكيز خان الى قره قورم سنة ٦٢٢ هجرية (١٢٢٥م) ، وشرع في محاربة أعدائه القادمي من القبائل المغولية والتركية وخاصة قبائل التانجوت . كما أعلن الحرب على امبراطورية سونغ الصينية ، واشترك چنكيز خان في هذه الحرب بنفسه ، لكنه مات في سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧م) . ولم تكن الحرب قد انتهت بعد ، أثر مرض لزمه نتيجة لرداءة الجو على شاطئ نهر السند أثنا، مطاردته للسلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي ، ولله من العمر اثنان وسبعون عاما (٢٥) .

الباب الثاني

100

الفصل الرابع

المقاومة الإسلامية بعد وفاة چنكيز خان :

ترك چنكيز خان الدولة الخوارزمية وعاد الى منغوليا بعد أن دمر البلاد الإسلامية وصيرها أشبه ما تكون بصحراء جرداء ، لا زرع فيها ولا ماء ، فأباد سكانها وخرّب مدنها ، وايضا نجح چنكيز خان في تشريد السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وتحطيم دولته وتدمير مدن الدولة الخوارزمية . ولم يتركه الا بعد أن هام على وجهه وتوفي آخر الأمر بعد أن تلقتته مدينة ولفظته أخرى ، فمات منكسر الجناح ذليلا في جزيرة « آبسكون » احدى جزر بحر قزوين وكان قد أسند ولاية العهد الى ولده جلال الدين منكبرتي أرشد أبنائه الذي كان على رأسه ساعة وفاته . أما بقية أبناء السلطان فمنهم من قتل ، ومنهم من اختبأ وتوارى عن الأعين . ومنهم من ظل يحارب الى أن استولى عليه الياس ثم فر آخر الأمر بلبتمس النجاة والخلاص . وقتل من أبناء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه في المعارك كل من ركن الدين غورشاہ وقطب الدين أوزلاخ شاہ وآق شاہ . هذا خلاص من قتل بيد المغول من أبناء صغار كانوا بصحبة جدتهم تركان خاتون . وفر غياث الدين شير شاہ الى مازندران واعتصم بها حتى ابتعد المغول عنها ، ثم أخذ يظهر على مسرح الأحداث من جديد منافسا إخاء السلطان الشرعى جلال الدين منكبرتي الذي فر الى الهند كما رأينا ، وظل بها لا يلبى على شيء . وهكذا توارى عن مسرح الأحداث كل أبناء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، الا ولديه جلال الدين منكبرتي وغياث الدين شير شاہ .

غياث الدين شير شاہ بن علاء الدين محمد وحكم الاقاليم الجنوبية والأفريقية :

كان غياث الدين شير شاہ يحكم بعض الأقاليم في جنوب وغرب

الدولة ، أبان حكم والده السلطان علاء الدين محمد الخوارزمية شاه ، وظل فيها حتى الغزو المغولي . وكان يساعده في ذلك خاله « ايغان طائيسى » الذى كان نافذ الكلمة مطاعا في ذلك الجزء من الدولة الخوارزمية . وعندما رحل المغول عن المناطق الغربية من الدولة الخوارزمية بعد وفاة چنكيز خان ، عاد غياث الدين شير شاه الى الظهور ، واسترد ما كان تحت يده من اقاليم . وكان معه جيش قوى متماسك القيادة لم يصمبه الفشل والهزيمة التى حلت ببقية الجيوش الخوارزمية نتيجة تواجده في قلاع مازندران الاحمسية . لكن خاله استغل الفرصة وانفرد بالحكم . وايده في ذلك الخليفة الناصر لدين الله العباسى سرا وشجعه على الانفرد بالسلطة والثورة على شير شاه ، بل اعطاه تفويضا بحكم البلاد مدفوعا الى ذلك بعدائه القديم للخوارزميين . واستطاع « ايغان طائيسى » أن يجذب اليه عددا كبيرا من الجنود الخوارزمية من أتباعه المخلصين . على أن غياث الدين شير شاه ما لبث ان واجه الجيوش المنسقة وهزمها شر هزيمة سنة ٦٢٠ هجرية (١٢٢٣م) وفر المنهزمون الى آذربيجان واعتصموا بها .

واستتب الأمر لغياث الدين شير شاه بعد انتصاره على خاله « ايغان طائيسى » وأراد التوسع فقرر الاستيلاء على أتابكية فارس سنة ٦٢٠ هجرية . فباغت صاحبها الأتابك سعد بن زنكى وأستولى على حاضرة ملكه شيراز سنة ٦٢١ هجرية (١٢٢٤م) دون مقاومة تذكر ، فما كان من الأتابك سعد بن زنكى الا الاعتصام باحدى القلاع المنيعه في نفس اقليم فارس ، ولما لم يجد غائده من المقاومة تصالح مع غياث الدين شير شاه واتفقا على أن يحكم كل منهما جزءا من أتابكية فارس (١) .

ولم ينجح غياث الدين شيرشاه في حكم البلاد الخوارزمية التى كانت تحت حكمه لكثرة الفتن والدسائس والمؤامرات التى كانت تحاك من الخوارزميين أصحاب النفوذ والسلطان البائد ، وانغماس الأمير نفسه في المذات والشهوات ، وأيضا قيام جنوده الأتراك بنهب البلاد وتخريب ما تصل اليه ايديهم . كذلك كانت أم غياث الدين شيرشاه مسيطرة على ولدما تحركه كيف يشاء ، وهى التى حرضته على الاستيلاء على شيراز وانتزاعها

(١) ابن الوردي : تمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

من الاتابك سعيد بن زنكى . وما أن تم فتح شيراز حتى تلقبت بلقب « خدافند جهان » أسوة بما كانت تتلقب به ترکان خاتون أم والده علاء الدين محمد الخوارزمشاه . واستمرت تلك الفوضى والاضطراب الإدارى والمباسبى والاقتصادى يسود الأقاليم التى كانت تحت سيطرة غياث الدين شيرشاه حتى عاد أخوه الأكبر جلال الدين منكبرى من منفاه فى بلاد الهند .

الصراع بين جلال الدين منكبرى وغياث الدين شيرشاه :

مكث جلال الدين منكبرى فى الهند فترة من الزمان جمع فيها قوة اسلامية كبيرة من الجند الفارين من وجه المغول الذين التجأوا الى الهند وتمكنوا من عبور نهر السند ، وايضا من انضم اليهم من جنود مسلمين مندفعين بروح اسلامية وحمية دينية للدفاع عن الاسلام والمسلمين . كذلك انضم الى جلال الدين منكبرى كثير من القواد الخوارزميين الذين قدموا من العراق العجمى فرارا من تسلط أخيه غياث الدين شيرشاه وسخطهم على سياسته . وساعد هذا المدد الاسلامى الممتلىء حماسا وغيرة ووطنية جلال الدين منكبرى على مهاجمة الأقاليم الهندية الواقعة فى حوض نهر السند ، حتى أنه أخضع بعض الأقاليم الهندية لسلطانه واستولى على خيراتها ، فغزم منها مغازم كثيرة لا تقاس الا بتلك التى استولى عليها السلطان محمود الغزنوى عند فتحه للهند . ومما يؤخذ عليه اقدامه على قتل كل من كان يصادفه دون تمييز بين مسلم ووثنى . عندى وغير هندی مما يؤخذ عليه .

وتحالف أمراء المسلمين حكام اقليم السند ضد جلال الدين منكبرى بعد أن استفحل خطره وزادت شروره وهم الذين آووه فى محنته وقدموا له الموعات ابان تشرده . وانضم اليهم سلطان دهلئى ، فصار الجميع مندفعين لمواجبة جلال الدين منكبرى وطرده من بلاد الهند برمتها . ولم يستطع السلطان الخوارزمى الطريد اللاجئ الوقوف أمام القوات المتحالفة . وانقسم قواده الى فريقين ، فريق رأى ضرورة العودة الى اراضى الدولة الخوارزمية ، خاصة وأن غياث الدين شيرشاه تمكن من الاحتفاظ بما كان تحت يد الدولة من أقاليم ، الا اقليم ما وراء النهر واستتب الأمر له . وزين هؤلاء

لجلال الدين منكبرتي العمل على انتزاع السلطة من يد أخيه غياث الدين شيرشاه لأنه خائفة والده وأرشد أخوته . أما الفريق الآخر فأنه اثر البقاء في بلاد الهند - رغم مساواة جوها وصعوبة الحياة فيها - ليكون السلطان الخوارزمي في مأمن من چنكيز خان وجيوشه الى أن تنتصح الأمور .

وأثر جلال الدين منكبرتي الاخذ بالرأى الأول ، فعبر نهر السند في سنة ٦٢٢ هجرية (١٢٢٥ م) ، وأسرع الى الاقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية الواقعة تحت سيطرة أخيه غياث الدين شيرشاه ، وعين هو في طريقه احد قواده حاكما على مدينة غزنه وما يليها .

وصل جلال الدين منكبرتي الى كرمان ، فاستقبلها حاكمها التركي « براق الحاجب » الذي ينتمي الى دولة الخطا ، وأسس لنفسه دولة في كرمان سنة ٦١٩ هجرية (١٢٢٢ م) فأظهر ولاءه للسلطان الخوارزمي الجديد ، وقدم له من البداية ما كان في حوزته . ولكي يؤكد هذا الولاء، عرض على جلال الدين منكبرتي الزواج من إحدى بناته ، فقبل السلطان الخوارزمي ذلك . وغادر جلال الدين منكبرتي أتابكية كرمان بعد أن تأكد خضوعها لسلطانه واتجه الى أتابكية فارس حيث أظهر له الأتابك سعد بن زنكي ولاءه وتأييده وزوجه أيضا إحدى بناته . وفي أثناء إقامة الخوارزمشاه في شيراز قدم اليه الأتابك علاء الدين صاحب يزد معلنا خضوعه وتبعيةه ، وحذا حذو كل من أتابكي كرمان وفارس غزوج الخوارزمشاه من ابنه أيضا ، فأقره جلال الدين منكبرتي على ما بيده من بلاد . ومن يزد مسار الخوارزمشاه ومعه جيش قوى الى مدينة اصفهان التي لم تلبث أن قدمت اليه فروض الطاعة والولاء والتبعية والتأييد . وتقدم الخوارزمشاه للملاقة أخيه غياث الدين شيرشاه في حرب غايته السلطة والمنصب .

وكان غياث الدين شيرشاه يتتبع بحذر بالغ نشاط أخيه جلال الدين منكبرتي ويستعد لحربه أن لزم الأمر . وكانت تحت امرته قوة كبيرة تمسك على مقربة من مدينة الري . وكان كلما سمع بتفوق أخيه يزداد تحمسا لقتاله واستعدادا للقضاء عليه . وأراد جلال الدين منكبرتي استمالة أخيه الى جانبه وذكره بوصية والدهما الا أن غياث الدين شيرشاه رفض قبول عرضه وصمم على حربه .

ووجد جلال الدين منكبرتي أن قوات أخيه تفوقه عدة وعدداً فاستعمل الخديعة وحمل جنده أعلاماً بيضاء ، كذلك الأعلام التي يحملها المغول . فلما رأى غياث الدين شيرشاه ذلك المنظر ظن أن أمامه جيشاً مغولياً فولى الأدبار . لكن حيلة جلال الدين منكبرتي لم تلبث أن انكشفت ، فأعاد الكرة مرة أخرى على رأس جيش كبير يتألف من ثلاثين ألف جندي من الخيالة . ولما وجد جلال الدين منكبرتي أنه لن يستطيع مواجهة هذا العدد الوفير من جند أخيه ، أثناء أيضاً عن طريق الحيلة والغدر . وأعلن أنه لم يأت من بلاد الهند إلا ليكون بجوار أخيه والوقوف أمام المغول عدوهم المشترك صفاً واحداً ، والعمل معاً على إعادة الدولة الخوارزمية التي أقامها أجداده إلى سابق مجدهما وعزها ، بل وإصلاح ما خربه المغول وأنه يضع نفسه تحت تصرف أخيه ورعيه إشارته . وخدع غياث الدين شيرشاه بهذه الحيلة وصرف جيوشه وأمرها بالعودة إلى سابق مواقعها بعد أن كانت متفوقة ومتماسكة . ولما أطمأن جلال الدين منكبرتي إلى تفكك قوة أخيه الواقفة بجواره ، انقلب عليه وأعمل السيف في رقاب جند أخيه الذين فوجئوا به ولم يكن استعدادهم كافياً ، وهزم جلال الدين منكبرتي جيوش أخيه هزيمة منكرة ، وفر غياث الدين شيرشاه من أرض المعركة واعتصم بإحدى القلاع المنيعة بالقرب من مدينة الري .

وبانتصار جلال الدين منكبرتي على أخيه غياث الدين شيرشاه أصبح يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، وتوافد عليه قواد الدولة الخوارزمية الذين كانوا تحت إمرة أخيه ، وأعلنوا ندمهم على عصيانهم وتوسلوا إليه أن يصفح عنهم ونادوا ببيعته سلطاناً على الدولة الخوارزمية . فأجابهم جلال الدين منكبرتي إلى طلبهم ، كذلك أسرع إليه حكام المدن والأقاليم المختلفة الذين انتهزوا فرصة القضاء على الدولة الخوارزمية واستقلوا ببعض ولايات خراسان ومانندران والعراق العربي في الفترة التي أعقبت رحيل جنكيز خان عن البلاد الإسلامية يمثلون طاعتهم وتأييدهم له . فمنهم من صفح عنه السلطان وأعادته إلى بلاده معزاً مكرماً ، ومنهم من عزله السلطان عما كان بيده من بلاد . وبخاصة أولئك الذين ساعدوا المغول وخضعوا لهم وساروا في ركابهم لتثقيت مراكزهم دون النظر إلى صالح رعاياهم من المسلمين .

وعكذا استقر جلال الدين منكبرتي على عرش أبيه ، وعمل جبهده على إعادة الأمن وإصلاح ما خربه المغول ، وتجهيز جيش إسلامي للوقوف على أهبة الاستعداد لمواجهة أى طارئ ، وامتد سلطانه على أقاليم خوارزم و غزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران ، ولم يفقد من بلاد الدولة الخوارزمية سوى إقليم ما وراء النهر لتمسك المغول بالسيطرة عليه . وأعاد الدولة الخوارزمية الى ما كانت عليه قبل المحنة ، لكنه جلس على عرش دولة تختلف عن عهود آبائه وأجداده ، إذ كانت الدولة في عهده تعاني آثار التخريب والدمار الذى لحق بأقاليمها المختلفة بعد غزو جنكيز خان . فاضطربت أحوالها السياسية والاجتماعية وأصبحت خاوية تماما من أى نشاط ، وباتت طعمة للمعصبيين من الحكام والقادة ، وانتشر قطاع الطرق ينهبون الناس في وضح النهار ، وتوقفت الحركة التجارية وأقفلت كثير من الحوانيت نتيجة موت أصحابها أو فرارهم من بلادهم .

وكان أهم سمة من سمات الدولة الخوارزمية بعد المحنة ، انعدام الرابطة السياسية والعاطفية بل والروحية بين الشعب الإسلامى رغم وجود سلطان خوارزمى واحد نتيجة انفراد كل حاكم بما تحت يده من اقطاع أو مدينة ، وأصبح لايعترف للسلطان الخوارزمى الا بتبعية اسمية منتهزين فرصة انشغال السلطان بجمع الجيوش لمواجهة المغول ومحاربة أعدائه من ملوك وأمراء المسلمين . وساعد على ذلك أن السلطان جلال الدين منكبرتي عادى كل جيرانه من الحكام عندما آنس في نفسه قوة . وكان من أثر ذلك أنه لم يجد في النهاية من يقف الى جانبه عندما عاد المغول لغزو الدولة الخوارزمية من جديد . ومع ذلك كانت سياسته الحفاظ على ما استولى عليه من بلدان والوقوف في وجه أعدائه الكثيرين في الداخل والخارج . هذا فضلا عن أنه كان يرمى الى التوسع على حساب جيرانه من الأمراء المسلمين . ويحاول الانتقام من الخلافة العباسية لسابق عدائها للدولة الخوارزمية ، بينما كان كثير من الأمراء المسلمين يؤثرون مسالة السلطان جلال الدين منكبرتي ومهادنته وعقد صلح معه ، لأنهم وجدوا أن المغول باتوا يهددون أملاك الخوارزميين في فارس ويخشون استيلاء المغول على الدولة الخوارزمية من جديد فتدور عليهم الدائرة بالتبعية ، فآثروا الصلح على الحرب . كما كانت شخصية جلال الدين منكبرتي القوية الشجاعة دافعا لهم على ذلك ،

لأنهم وجدوا فيه ضاللتهم الكبرى والذي يمكنه مواجهة الخطر المغولي الذي بات يهدد كيان الخوارزمشاه وكياناتهم جميعا .

زوال الدولة الخوارزمية على أيدي المغول :

توفي چنكيز خان - كما سبق أن ذكرنا - سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧ م) وأحوال المغول غير مستقرة . ورجع أمراؤهم وكبار رجال دولتهم وقادتهم المنتشرون في الأقاليم الخاضعة للمغول في آسيا وأوروبا إلى العاصمة « قره قورم » لانتخاب خاقان جديد . واستمر الوضع على ذلك سنتين إلى أن تم انتخاب « أوكتاي بن چنكيز خان » سنة ٦٢٦ هجرية (١٢٢٩ م) خاقانا ، وأخذ على عاتقه إخضاع الدولة الخوارزمية من جديد .

وفي سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧ م) أي بعد وفاة چنكيز خان مباشرة كان أول احتكاك مباشر بين السلطان جلال الدين منكبرتي والمغول ، عندما خرجت قوة من المغول فاصدة الدولة الخوارزمية وتوغلوا في أراضيها حتى أصبحوا على مقربة من مدينة الري . وتصدى السلطان جلال الدين منكبرتي لجيش المغول ، واستطاع أن ينتصر عليه ، بل ويبيده عن آخره . وفي سنة ٦٢٥ هجرية (١٢٢٨ م) نشبت معركة أخرى بين جيش خوارزمي بقيادة جلال الدين منكبرتي وفرقة مغولية قرب أصفهان . وقد ظن المغول أنهم في استطاعتهم أن يلعبوا نفس الدور الذي لعبه چنكيز خان مع الدولة الخوارزمية من قبل ، فانتصر عليها الخوارزمشاه وبددعا تماما . يقول الحافظ الذهبي عن واقعة أصفهان ما يلي : « أخبار سنة أربع وعشرين وستمئة : فيها جاء الخبر إلى السلطان جلال الدين وهو بتوريز (تبريز) أن التتار قد قصدوا أصفهان وبها أهله . فسار إليها وتأعب للملقى . فلما التقى الأجمعان خذله أخوه غياث الدين وولى وتبعه جهن بهلوان ، فكسرت ميمنته ميسرة التتار ، ثم حملت ميسرته على ميمنة التتار فطحنتها أيضا ، وتباشر الناس بالنصر ، ثم كرت التتار مع كمينتها وحملوا حملة واحدة كالسيل وقد أقبل الليل . فزال الأقدام وقتلت الأمراء واشتد القتال وتداعى بنبان جيش جلال الدين وثبت هو وطائفة يسيرة وأحيط به فانهزم على حمية ، وطعن طعنة لولا الأجل لتلف . وتمزق جيشه إلا أن ميمنته زخت في أقفية التتار ، ورجعت بعد

يومين نلم يسمع بمثله في الملاحم من انهزام كلا الفريقين وذلك في رمضان» (٢).

وجيز الخاقان الجديد ، اوكتاي « جيشا من ثلاثين ألف مقاتل لقتال الخوارزميين وشن حرباً شاملة على جلال الدين منكبرتي . واستطاع ذلك الجيش عبور الضفة الغربية من نهر جيحون والوصول الى خراسان بسرعة فائقة ومنها الى الاقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، والاستيلاء على الري وعمدان وما بينهما من البلاد (٣) . وواصلوا سيرهم الى حدود آذربيجان سنة ٦٢٨ هجرية (٢٢٣١ م) . وفيها يقول الحافظ الذهبي أيضا : « أخبار سنة ثمان وعشرين وستمئة : لما علمت التتار بضعف جلال الدين خوارزم شاه بادروا الى آذربيجان . فلم يقدم جلال الدين على لقائهم . فملكوا مراغة ، وعاثوا وبدعوا وفر هو الى آمد وتفرق جنده . فبيته التتار ليلة فنجاب نفسه . وطعم الأكراد والفلاحون وكل أحد في جنده وتخطفوه . وانتقم الله منهم . وسافت التتار الى ديار بكر في طلب جلال الدين لا يعلمون أى طريق سلك » (٤) .

وكان هدف الحملة المغولية مطاردة السلطان جلال الدين منكبرتي والقبض عليه . حتى اذا تم لهم القضاء على رأس الدولة الخوارزمية ، اطمانوا الى اخضاعها في سهولة ويسر . لذلك كانت حركات المغول وتنقلاتهم في أراضي الدولة الخوارزمية في تلك الفترة مقيدة تماما بحركات الخوارزمشاه وتنقلاته فيها . وعندما رحل جلال الدين منكبرتي الى تبريز نتبعه المغول ، وأرغموه على التقهقر الى سهل موقان المجاور للساحل الغربي من بحر قزوين قيل أن يتمكن من جمع جيوشه . وحاول السلطان الخوارزمي الاستنجاد بأمراء ديار بكر والجزيرة والخابضة العباسي ، لكنهم جميعا تقاءسوا عن نصرته ، وتركوه وحيدا يواجه مصيره المحتوم . فلما وصل الى مدينة آمد في أعالي نهر دجلة ، لحق به المغول ، وهزموه شر هزيمة . وقتلوا وأسروا الكثير من جنده . واستولوا على ما كان معه من سلاح وعتاد ، وتفرق الباقون لا يلوون

(٢) الحافظ الذهبي : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٣٠ .

(٤) الحافظ الذهبي : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ١١٠ .

على شىء ، وكان السلطان جلال الدين منكبرتى ضمن من ولوا الادبار ، فتبعه خمسة عشر فارسا مغوليا وادركه اثنان منهم قتلها جلال الدين منكبرتى ، وعاد الباقيون بعد ان يئسوا من الظفر به . واخيرا لجأ السلطان الخوارزمى الشريد الى جبال كردستان (٥) ، وهام على وجهه حتى عثر عليه رجل كردى ، واخبره انه عن السلطان ، فاخذ الرجل الى منزله ، وتركه ذلك الكردى تحرسه زوجته وخرج لاحضار بعض خيوله ليستعين بها فى ارجاعه الى بلاده . وبينما كان الكردى غائبا عن منزله اتى كردى آخر وتحقق من قيامه السلطان الخوارزمية . وكان جلال الدين منكبرتى قد قتل له اخا من قبل ، فضربه بحربة كانت بيده فاعنت عن الثانية . وكانت وفاته فى منتصف شعبان سنة ٦٢٨ هجرية (١٥ أغسطس ١٢٣١ م) وان ذكر الحافظ الذهبى واقعة وفاته على انها تمت فى أوائل سنة ٦٢٩ هجرية (٦) .

تلى هزيمة السلطان جلال الدين منكبرتى وقتله اعتداء الأهالى من سكان المدن والقرى من الفلاحين والرعاة على كل من وجدوهم من الخوارزميين انتقاما منهم لما فعلوه بهم من قبل ، مما يساعد المغول على الاستيلاء على البلاد الاسلامية ونهبها بعد ذلك . واستولى المغول فى سنة ٦٢٨ هجرية - وعى السنة التى قتل فيها السلطان جلال الدين منكبرتى - على بعض المدن الاسلامية مثل ديار بكر وماردين ونصيبين وسنجار ، وأخذوا يبعثون فيها حسادا دون ان يجدوا مقاومة من السكان .

وتقدم المغول الى آذربيجان فى نفس السنة التى قتل فيها الخوارزمشاه (٦٢٨ هـ) واقتربوا من حاضرتها تبريز ، فاستقبلهم وفد من سكانها واقتدوا أنفسهم بكثير من الأموال والهدايا النفيسة ، ثم تمكن المغول من الاجهاز على مدن آذربيجان بعد ذلك الواحدة تلو الأخرى . وساعد على استيلاء المغول على تلك المدن الهزيمة التى حلت بجلال الدين منكبرتى وتفرق جيشه . وتمزق دولته واخيرا اختفاؤه عن المسرح المسرحى والسياسى باختفاء أخباره . اذ لم يكن معروفا على وجه التحقيق المصير الذى آل اليه لتعلق الناس به

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٣٤ .
(٦) الحافظ الذهبى : العبر فى خبر من غير ، ج ٥ ، ص ١١٤ .

وتداولهم سيرته كيطال مغوار . كل ذلك شجع حكام آذربيجان واران على الثورة ضد الخوارزميين تقربا منهم للمغول ، فقطعوا روس من قبضوا عليهم ، وارسلوها الى المغول ليبرهنوا على عداءهم للخوارزميين وفناييدعم للحكم المغولي .

ان نجاح المغول في السيطرة على الأقاليم الاسلامية التي كانت تحت سيطرة الخوارزميين وغيرهم ، من أقاليم مثل أران وجورجيا وأراضى العراق العربي ، ليس نتيجة لزوال آخر شخصية خوارزمية وقفت في وجه الغزو المغولي حيث لم يعد هناك من يحول بين المغول وبين العبث في أراضى العالم الاسلامي دون ان يوقف في وجههم عائق دون تنفيذ أغراضهم فقط . بل أيضا عن تقاعس المسلمين عامة ، حكاما وشعوبا عن نصره الخوارزمشاه وتركه بمفرده يواجه المصير المحتوم .

عوامل زوال الدولة الخوارزمية :

ان الاموال التي أدت الى انهيار الدولة الخوارزمية كثيرة ومتنوعة . يرجع بعضها الى ضعف العالم الاسلامي عامة قبيل الغزو المغولي لدرجة أنه كان مفكك الأوصال تتنازعه أيدي المقتصبين في الداخل والخارج . ولم تكن هناك قوة واحدة تستطيع أن تقف في وجه التيار المغولي الجارف، عندما قرر چنكيز خان اجتياح الدولة الخوارزمية . والبلاد الاسلامية عامة .

ان موضوع هزيمة دولة كبيرة كالدولة الخوارزمية وفنائها في فترة زمنية قصيرة رغم ما كانت تحويه من مدن كبيرة وحضارة مزدهرة وجنود غفيرة وشعب أصيل عاش طوال حياته يدافع عن شرفه وحقه وكرامته من أي مغبر أو طاري، من خارج ايران أو من مستبد يظهر داخلها على يد شعب بدوي نصف وحشي ان الأمور الغربية حقاً . بل نقدر أن أسباب الهزيمة وموضوعاتها المنسوبة تحتاج الى كتاب مفصل أو عدة كتب مستقلة . كما نقرر أيضا أن السبب الواحد من أسباب انهيار الدولة الخوارزمية يكمن بمفرده لدمار دولة . بله الأسباب مجتمعة . وبصفة عامة نوجز فيما يلي أهم أسباب النكسة الخوارزمية :

١ - استبداد وغرور وتعصب السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه

الذى واجه المغول وكان عمدا السلطان الخوارزمى مصابا بأمراض نفسية تتمثل فى حبه للسيطرة واضافة الممتلكات ، وتأسيسه امبراطورية على حساب القوى الاسلامية وغير الاسلامية الاخرى حتى أنه طمع فى فتح الصين وبلاد الكرج . فكان من أثر سياسته تلك أن أزم الموقف الاسلامى وحاربت الجيوش الاسلامية بعضها البعض ، وخشى كل أمير من جاره ، وانتهى الأمر بضعف تلك القوى جميعها ، وضعفت الدولة الخوارزمية أيضا . وما أن غر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه من المغول ، لم يكن هناك أمير قوى يستطيع أن يقود العالم الاسلامى ويقف به فى وجه المغول .

٢ - تدخل « ترکان خاتون » والدة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه فى شئون المملكة واستبداد رأيها بما كان لها من قوة ونفوذ . وكانت تلك الملكة الخوارزمية من تبائل « قنقلی » ، وأصلهم قبائل تركية سكنت السهول الواقعة شمالى إقليم خوارزم وفى الجزء الشمالى الشرقى من بحر قزوين . واندفعوا الى اراضى الدولة الخوارزمية اثر تصاهرهم مع السلطان علاء الدين تكش من بنات احد زعماء تلك القبائل . وكانت ترکان خاتون صاحبة سلطان قوى سوا ، فى حياة زوجها أو فى عصر ولدها علاء الدين محمد . وكان من اثر ذلك أن هاجر كثير من رجال تلك القبائل التركية من اقرباء ترکان خاتون وافراد عشيرتها الى اراضى الدولة الخوارزمية . ودخلوا خدمة ولدها السلطان علاء الدين محمد ، ووصلوا الى أعلى المناصب وأرقاها حتى تكونت منهم قوة وعصبية لا يستهان بها بعد أن حكموا اقاليم الدولة وأطلقت أيديهم فيها . وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن قسوة الخوارزميين تأثرت نائرا كبيرا بتلك الطائفة بزعاماتها الجاهلة واستبدادها وطيشها وقسوتها ، وتضايلات امام قوة تلك الارستقراطية العسكرية ، وشعر الأهلئ والسلطان بالحاجة الى وقف هؤلاء عند حدهم ، فلما شعروا بنوايا السلطان نحوهم عمدوا الى ارباب الأهلئ المسلمين ونهب حواميتهم وما يملكون من حبوب وحيوانات ، فاضطرب الأمن فى البلاد واضطربت معه أحوال الدولة السياسية والاجتماعية (٧) .

(٧) الديار بكري : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس ذئبس . ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

ومما زاد اضطراب الأمور السياسية والإدارية سوءاً داخل الدولة الخوارزمية أن تركان خاتون كونت لها عصبية قوية من قواد عشيرتها حتى أصبح نفوذها في الدولة لا يقل عن نفوذ ولدها السلطان نفسه . بل وصل الأمر بها أن كل المناصب العسكرية والوظائف الهامة في الدولة الخوارزمية كانت في يد طائفتها وأقاربها وحاشيتها . وكان ولاء هؤلاء جميعاً للملكة تركان خاتون أكثر من ولائهم للسلطان نفسه ، بل كانوا لا يهتمون بقراراته ويصدرون ما يخالفها ويحرضون على إهمال غراماناته وقراراته بأى حجة من الحجج . وآخر الأمر كان حرص هؤلاء على الحياة كطبقة متمتزة المسيطرة على شؤون الدولة أكثر من حرصهم على سلامة الوطن الإسلامى المنهار أمامهم .

٣ - نشوب الخلافات بين أمراء الجيش وقادته وشيوع النفاق بينهم وإهمالهم تدريب قواتهم استعداداً للقتال . وكانت كل جماعة تخالف غيرها من الجماعات ، وظهر بينهم التنافس البغيض على ارتقاء العنصر التركى وغلبيته دون النظر للكفاءة والمقدرة والاخلاص والتضحية . وفى كثير من الأحيان كانت جماعات كثيرة تخالف السلطان نفسه وتعصى أوامره ، ولا تتشارك فى قتال إذا أمرهم به ، بل كانوا ينظرون أول كل شئ الى ما سيعود عليهم بالفائدة من عدمه ، ثم يقررون على ضوء ذلك اشتراكهم فى القتال أو عدمه . وكان الجيش الخوارزمى يعتمد على الأتراك الذين كانوا فى نفس الوقت مصدر ثقل واضطراب الدولة ، ولم يهتموا كثيراً بالدفاع عن تلك الدولة لأنها لا تهمهم من قريب أو بعيد ، فهم مرتزقة أوكل إليهم أمر الدفاع عن شعب غريب عنهم كانوا يدركون أنهم إذا انتصروا فى ميدان القتال ، فلن يعود عليهم عذبا النصر بخير كثير .

كذلك كان الجيش الخوارزمى ينقصه النظام والطاعة للقادة ، والقدره على تحمل الصعاب وكانت تلك الصفات من أهم مميزات الجيش المغولى ، فكان النصر حليفه فى كل معركة .

٤ - كانت غالبية الجيوش الخوارزمية من أتراك القيقاق وقنقلى دون غيرهم من القبائل التركية . وكان هؤلاء لا يطيعون أمراً الا صادراً من رؤسائهم حتى السلطان نفسه ، وكان ولاؤهم لسادتهم ورؤساء عشائهم ، وليس

للدولة الخوارزمية ولا السلطان نفسه . وكانوا يسعون للقتال لا حبا فيه ولكن حبا في الغارات التي كانوا يشنونها بعد القتال والتي كانت تدر عليهم كثيرا .

٥ - معاملة الخوارزمشاه وكبار رجال دولته والخوارزميين عامة الشعوب المغلوبة في أغلب الأحيان معاملة غير انسانية ، خاصة ملوك وقادة تلك الشعوب . وأثبت التاريخ أن عددا كبيرا من زعماء الشعوب المغلوبة من الملوك والنزادة والوزراء وكبار الشخصيات العسكرية والمدنية بعد انهزامهم سيقوا الى خوارزم مكبلين في الحديد حيث يقيم السلطان الخوارزمي . وآوهم كثيرا حتى أن كثيرا من هؤلاء وضعوا في سجون أشبه بالكهوف لا يعرفون ليلهم من نهارهم . كما أغرقوا بعضهم في نهر جيحون دون ذنب جنوه سوى دفاعهم عن شعوبهم حتى انهزموا وأصبحت مقاديرهم في أيدي الخوارزميين ليس أكثر .

٦ - معاداة الخليفة الناصر لدين الله العباسي السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه لمحاولة الأخير السيطرة على بغداد والحجر على الخليفة العباسي ، فنشبت بينهما الحروب . وأقدم الخوارزمشاه على تعيين أحد العلويين خليفة بعد أن فشل في الحصول على ما كان للسلاجقة ببغداد من نفوذ أدبي وسياسي لدى الخلافة العباسية ، وتصميم السلطان علاء الدين محمد على احتلال بغداد والاطاحة بالخليفة . وكانت تلك الأحداث المؤسفة سببا في احجام سائر طبقات المسلمين عن تقديم المساعدة عندما اجتاحت المغول اراضي الدولة الخوارزمية وهدارهم الكرامة الاسلامية باذلالهم المسلمين . وما كان ذلك الا لأن غالبية المسلمين كانوا يعتقدون في الخليفة العباسي .

٧ - كان السلطان علاء الدين محمد - حتى في أحلك الظروف وأشدّها قسوة - يخشى تجمع الجيش في يد قائد واحد ، قد تحدّثه نفسه بالعصيان والاستئثار بالسلطة والاطاحة بالأسرة الخوارزمية - كما فعلوا هم من قبل . وواقع الأمر أن قواد الجيش كانوا هم رؤساء العشائر وزعماء الطوائف الذين كانوا يستمدون قوتهم وسيطرتهم من كثرة عدد أتباعهم ، ولم يكونوا من الكفاءة والمقدرة بحيث يستطيع أحدهم قيادة جيش كبير ومواجهة المغول أصحاب الخطط والنظريات والاستراتيجية النسيجية .

٨ - انهيار السد المحكم بين إيران ومنغوليا ، ونقص ذلك دولة الأتراك القراخانيين . وكان وجود هؤلاء في حد ذاته مانعا للمغول من مجاورة الولايات الشرقية للدولة الخوارزمية ، فانفتح بذلك أمام المغول الطريق الى إيران دون أن يجدوا عائقا يوقفهم .

٩ - خوف السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه من المغول وخشيته منهم وأصيب بالجبن والخور في العزيمة منذ فراره أمام جحافلهم بعد معركة صحراء الفججاق التي نشبت بينه وبين جيش مغولى بقيادة جوجى بن چنكيز خان ، وكان الخوارزمشاه قبل ذلك مشهورا بالشجاعة النادرة والقوة الجسمانية الفائقة . ولازم الخوف الخوارزمشاه في كل مرة واجه فيها المغول ، حتى أنه كان يفر أمامهم ولا يستطيع مواجهتهم ، وفعل مثله بقية الشعب الاسلامى الذى أصيب بشلل كامل في التفكير والتصرف ومواجهة الأحداث . وكان يسبق المغول عادة دعائهم ينشرون بين الناس الرعب والفزع ويجرّسوه على الاستسلام حتى لا يتعرضوا للقتل والذبح كما حدث ابتداء من معركة أوتار وما فعلوه بحاميتهما وحاكمها غازي خان وشعب المدينة ، كل ذلك أضعف من معنويات الخوارزمشاه ووجد أن من الصعب عليه أن يلتقى بأعدائه في ميدان القتال ، وفضل التحصن في المدن ، وثبت فشل خطته ، ومع ذلك استمر عليها الى أن وجد نفسه آخر المطاف مطاردا شريدا ألقت به المقادير في جزيرة « آبسكون » ليموت فيها دون أن يدري به أحد .

١٠ - نفرة الشعب الاسلامى في مختلف الولايات الايرانية مثل خراسان وأفغانستان (بلاد الغور) ومازندران والعراق العجمى من الحكم الخوارزمى بسبب الظلم وتجاوز الحكام على رعاياهم ، وابتزازهم الأموال بطرق غير سليمة أقرب الى اللصوصية منها الى العمل الحكومى الرسمى . وكانوا يحصلون الضرائب بطريقة منفردة ومؤذية ومع ذلك لم يقدموا للشعب الايرانى أية خدمات مقابل ذلك ، بل كانت تلك الأموال تصرف على الخوارزمشاه وحاشيته والحكام الأتراك وطبقة العسكريين دون سواهم . هذا علاوة على اعتداء الحكام الأتراك على السكان الآمنين ومنكهم الحرمات ، وآخر الأمر كانت الطبقة الخوارزمية الحاكمة تشكل طبقة أرستقراطية تنصور في نفسها السيادة والسيطرة وتتعامل فيما بينها

ولا تتعامل مع غيرها ٠٠ وعندما جد الجدد وجدوا أنفسهم محاصرين من المغول من ناحية والشعب الاسلامي من ناحية أخرى مما سهل هزيمتهم ٠

١١ - افتتار بلاط الخوارزمشاه الى المستشارين الجيدين والوزراء الممتازين اصحاب الراى والتدبير ، ولم نسمع طوال قرن من الزمان أن وزيرا خوارزميا برز على مسرح السياسة الاسلامية والدولية مثلما كان عند العباسيين والسمانيين والغزنويين والسلاجقة ٠ وكان كل واحد منهم يسعى للحصول على الثراء باى وسيلة وعن أى طريق ، لأنه لم يصل الى منصبه الا عن طريق ملتو ذون كفاءة ادارية أو علمية ، بل وحتى فى اهلاك الأوقات نجد الوزير نظام الملك محمد بن صالح (٨) ينفرد بالسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ويؤثر عليه ، ويجعله يغير خطه العسكرية والادارية كلية ، فبدلا من قرار السلطان التوجه الى بلاد الغور والتوجه الى غزنه لقربها من ميدان القتال نجد الوزير - وهو من المناطق الغربية - يزين له التوجه الى العراق العجمي ومازندران أى المناطق الغربية من الدولة الخوارزمية لبعدها عن الجيوش المغولية ومسرح القتال مما أودى بالسلطان الى كارثة سريعة وفاجئة غير متوقعة ٠

١٢ - نشوب الخلاف بين أبناء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ، سواء فى زمن ابيهم أو بعد انهيار الدولة ، وتم ذلك لأنهم من أمهات مختلفة ، وكل واحد منهم يعمل بطريقته ليخلف والده ويفوز بالعرش دون سواه ، وكان كل واحد منهم يعتمد على عضبية أمه ، فجاء صراعهم مؤثرا على قادة المملكة ورجالها ، فتشتت قواهم ، وأجهز عليهم المغول واحداً بعد الآخر بسهولة ويسر ، وكان الأجدر بهم أن يتحدوا ويواجهوا الخطر المغولى الدمر لكن عنادهم وكراهيتهم بعض البعض عجل بدولتهم وجعلهم عبرة لمن بعدهم ٠

١٣ - السرعة الفائقة للجيش المغولى فى تنفيذ أوامر الخاقان والطاعة العمياء لكافة القادة والجنود ووقوفهم صفا واحدا وبروح نشطة مما مكّنهم

(٨) ناصر الدين منشى كرماني : نسائم الأسحار من لطائف الاختبار - در تاريخ وزرا ص ٩٦ - ٩٧ .
(م ٧ تاريخ الدولة المغولية)

من عدم إتاحة الفرصة للخوارزمشاه لتمرکز قواته وإعادة خططه لدرجة أن الخوارزمشاه وخذ نفسه في نهاية الأمر يفر أمام المغول من مدينة إلى أخرى وهو مشلول الحركة غائت حرية التصرف .

١٤ - عدم وصول المعونات اللازمة سواء في الأفراد والمواد الغذائية والتدوينية والعسكرية إلى المناطق المعرضة للغزو المغولي . وأيضا ترك بعض الحكام المدن والأقاليم الخوارزمية مواقعهم عندما علموا بقدوم المغول، وكان تصورهم أن فرارهم هذا حماية لأنفسهم ولأموالهم وكنوزهم التي حملوها معهم تاركين الشعب وحده يواجه المصير المحتوم ، فأصبحت البلاد تحت رحمة المغول وتحت وطأة أقدامهم فقتلوا على مدن برمتها بمن فيها وما كان فيها مثل أوترار - خجندة - جرجانية - نيسابور - هرات . ثم الهزيمة الشاملة آخر الأمر واستيلاء المغول على كافة البلاد الإيرانية بسهولة ويسر .

١٥ - وجود طابور خامس لجنكيز خان منتشر في المدن الإسلامية عامة وبلاد الدولة الخوارزمية خاصة . وكان واجب هؤلاء الجواسيس موافاة قياداتهم بأخبار الدولة الخوارزمية وإشاعة الفوضى والاضطراب والخوف والرهبة في نفوس السكان قبل المعارك حتى لا يتمكنوا من محاربة المغول .

١٦ - اقدام المغول على القتل العام وتخريب المدن واشعال الحرائق في مدن كاملة حتى يعجز الناس عن مقاومة المغول بعد ذلك والاستسلام آخر الأمر للواقع الذي هم فيه ، مثل ما حدث لنيسابور وسمرقند وبلخ وبخارى حيث كان خوف الناس من القتل العام سببا في أن جعلهم يستسلمون للمغول . ومع ذلك كان جزء الكثير منهم القتل .

١٧ - استبداد السلطان جلال الدين منكبرتي برأيه . ومعاداته أخاه غياث الدين شيرشاه الذي استتب له الأمر ، ونشوب الحرب بينهما وهزيمة الأخير ، في الوقت الذي كان يتحتم على أخيه جلال الدين منكبرتي الاستفادة بمجهود كل رجل في دولته . وعندما ظهر المغول في الميدان للمرة الثانية للأجهاز على الدولة الخوارزمية والقضاء على جلال الدين منكبرتي ، كان جيش الخوارزميين مجهدا من كثرة القتال وعدم وجود نصير له من أمراء

المسلمين غآخذة المغول على غرة ، ووجد نفسه آخر الأمر يفر أمامهم حيث ألفت به المقادير في بلاد كردستان يذبح ذبح الشاه ، وتنتهى بنهايته السيئة الدولة الخوارزمية تماما . ونتج عن ذلك أن استتب الأمر للمغول وأصبحوا حكام البلاد وسادتها بعد زوال الدولة الخوارزمية وعلى أنقاضها بزوال آخر شخصية خوارزمية من سلالة نوشنكين ، ونعنى به السلطان جلال الدين منكبرتى .

الفصل الخامس

المغول من چنكيز خان حتى هولاكو خان

كان چنكيز خان يرى أن خير وسيلة لتدريب أبنائه على مباشرة مهام الحكم وتحمل المسؤوليات والاحتفاظ بدولته التي أسسها بجد سيفه ، أن يقسم إمبراطوريته وهو على قيد الحياة بينهم ، وذلك طبقا للتقاليد المغولية ، فخص كل فرد من أفراد أسرته بعدد من القبائل (أولوس) ، وجعل له موطنًا (يورت) يشتمل على مساحة من البراري تمارس فيها هذه القبائل حياة الرعي ، وأن يكون له من الخراج ما يكفي للانفاق على بلاطه وعسكره . وهذا الخراج تؤديه الشعوب التي خضعت للمغول في الصين وتركستان وإيران . وطبقا للقانون المغولي (الياسا) يعطى الأب قبل وفاته قسما من أملاكه لأبنائه الكبار بحسب سنهم ويترك الجزء الأهم لأصغر أبنائه ، وفعلا تم التقسيم على النحو التالي :

١ - كان نصيب جوجي وهو أكبر أبناء چنكيز ، وكان يشرف على شؤون الصيد وتنظيم القصور وتزيينها ، البلاد الواقعة بين نهر آرتش والسهول الجنوبية لبحر قزوين . وتسمى عادة تلك المنطقة بالقبچاق ، ويطلق عليها اسم « القبيلة الذهبية » (آلتون أوردو Golden Horde) نسبة إلى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبي ، وكان غالب أهلها من الترك والتركماني (١) . ولما رحل جوجي قبل والده قرر چنكيز خان أن تكون تلك المناطق من نصيب حفيده « باتو » وهو ابن جوجي الذي اشتهر بركة العاطفة وعضوية الحديث ، والتعقل والرزانة التي أوصلته ليكون رأس بيت چنكيز خان ، وظهر ذلك بوضوح عندما قام بدور حاسم فيما نشب من منازعات على ولاية العرش في البيت الجنكيزي .

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ، حاشية ٤ .

٢ - اختص چغتاي بن جنكيز خان ببلاد الأويغور وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنة . وكان چغتاي في حياة أبيه يشرف على القضاء والعمل على تنفيذ احكام جنكيز خان وقوانينه (النياسا) وتوزيع الجزاء والعقوبات للمقصرين .

٣ - نال أوكتاي بن جنكيز خان المنطقة المنحصرة بين جبال «تارباغاي» وأطراف بحيرة «الاجول» وحوض نهر «أيميل» الذي يصب في بحيرة الأجلول ويقع غربي منغوليا . وتعد هذه المنطقة أقل نصيب وزعه جنكيز خان على أبنائه . وكان أوكتاي مختصا بالشئون المالية والإدارية وتنظيم شئون الملك وتدبير مصالح الناس والإشراف على الرعايا .

٤ - أما تولوي أصغر أبناء جنكيز خان ، وهو الذي كان يباشر شئون الدفاع واعداد الجيوش وأحد مستشاري والده الخاقان حتى لقب بأولغ نوبان أي الأمير الكبير (٢) ، فقد حصل على منغوليا وهي الوطن الأصلي لجنكيز خان والمغول ، والتي تشمل وديان وأنهار كرولين وأونون وأرخن ومنطقة قره قورم . وهو الذي استمر بحكم الإمبراطورية المغولية بعد وفاة والده جنكيز خان طبقا للقانون الجنكيزي مدة عامين من سنة ٦٢٤ حتى ٦٢٦ هجرية (١٢٢٧-١٢٢٩م) بصفته وصيا على العرش وبمساعدة ثلاثة من المستشارين إلى أن انتخب خاقان جديد خلفا لجنكيز خان .

وكان جنكيز خان قد وقع اختياره على ابنه أوكتاي ليكون ولي عهده وخليفته من بعده ، خاصة وأن جوجي الابن الأكبر مشكوك في شرعية بنوه أبيه جنكيز خان له ، حيث ولدته أمه بعد اختطافها بمدة تؤكد ذلك وأعادها جنكيز خان مع ولدها واعتبره ابنه الأكبر ، وأيضاً لما كان يمتاز به أوكتاي من اتساع الأفق وعمق التفكير ونفاذ البصيرة رغم ما كان لأخوته من صيت ذائع مثل شهرة تولوي في للشئون العسكرية وما اتصف به چغتاي من صرامة يستطیع أن يفيد منها في تحقيق المبادئ الأساسية التي تشكل نظام جنكيز خان الإداري والاجتماعي .

انتخاب أوكتاى خاقانا للمغول :

توفي چنكيز خان سنة ٦٢٤ هجرية ، وظل العرش المغولى أو ما أطلق عليه بالعرش الذهبى خاليا من ملك مدة عامين اثنين ، وأخيرا رأى كبار الأمراء من الديت الچنكيزى ضرورة التعجيل بتنصيب خاقان جديد حتى لا يتطرق الفساد والخلل والطمع الى أساس الملك . واجتمع مجلس الشورى المغولى (القوريلتاي) فى ربيع عام ٦٢٦ هجرية فى منغوليا ، وأجمعوا على تولية أوكتاى عرش الخاقانية ، وأعلنوا تنصيبه « خاقانا » للإمبراطورية المغولية .

سار أوكتاى على نهج والده ، واهتم اهتماما كبيرا باتمام الفتوحات التى بدأها والده چنكيز خان وجيش الجيوش اللازمة لغزو ايران والصين وأوروبا . ويهمن فى هذا المقام حروب المغول فى ايران أكثر من غيرها .

وسبق أن ذكرنا أن السلطان جلال الدين منكبرى انتهب فرصة انصراف المغول عن البلاد الايرانية اثر وفاة چنكيز خان لاهتمامهم بشؤونهم الداخلية وانشغالهم بأمور الملك والاعداد لمن سيتولاه خاصة وأنه قد ساهم فى الانتخاب القواد والحكام والأمراء المغول المتواجدين فى أماكن بعيدة عن الوطن الأصلى وعادوا الى منغوليا .

وفى هذه الفترة التى انشغل فيها المغول بأمورهم الداخلية ، انتهب السلطان جلال الدين منكبرى الفرصة ورجع من الهند ، وأخذ يجمع شتات الامبراطورية الخوارزمية من جديد ، ونجح فى ذلك نجاحا كبيرا بحيث لم تفقد الدولة من ممثلكاتها سوى اقلهم ما وراء النهر فقط ، ووفق الخوارزمشاه فى خطته الى حد كبير وأعاد للدولة الخوارزمية مكانتها فشملت خراسان وكرمان وفارس والعراق العجمى وآذربيجان ، كما نهب الخوارزمشاه حصون الاسماعيلية عندما بلغه أنهم على اتصال بالمغول أعداء الاسلام وقتل منهم خلفا كثيرا وفرض عليهم جزية ثقيلة . وأخذ المغول يباوئون الخوارزمشاه بغير نجاح فى أول الأمر ، حتى اذا ما تولى أوكتاى العرش الذهبى أرسل جيشا قويا استولى به على الري وهمدان وما بينهما من بلاد ، ثم قصد آذربيجان وأستطاع أن يوقع بالسلطان جلال الدين منكبرى ليلا وهو بظاهر آمد عام ٦٢٨ هجرية (١٢٣١ م) فهزم هزيمة منكرة وتشئت جنده ، وفر السلطان الى الجبال حيث قتله أحد الأكراد كما أن ذكرنا . وبذلك تخلص

المغول من أخطر عدو استطاع أن يواجههم في بسالة منقطعة النظر ، وأصبح الطريق أمامهم ممهدا للغزو والفتح دون أن يعوقهم عائق ، وبالتالي استطاعوا في سهولة ويسر أن يشنوا حملاتهم على معظم البلاد الإسلامية ، وينشروا فيها الخراب والدمار .

واستمر أوكتاي قا آن يحكم الامبراطورية المغولية مدة ثلاث عشرة سنة الى أن توفي سنة ٦٣٩ هجرية بسبب افراطه في اللهو والشراب ، بعد أن ضم الى دولته البلاد الايرانية . وشرعت جيوشه تناوش جيوش الخلافة العباسية في العراق العربي . وكانت أهم معركة نشبت بين المسلمين والمغول تلك التي وقعت سنة ٦٣٤ هجرية (١٢٣٦م) عندما تقدمت الجيوش المغولية الى مدينة سامراء ، لكن جيوش الخليفة العباسي بقيادة مجاهد الدين ايبك الدوبدار الصغير استطاع أن يهزم المغول بالقرب من تكريت في منطقة تقع ما بين دجلة وجبل حمرين ، وأن يكسب عدد كبير من المسلمين كانوا قد وقعوا أسرى في أيدي المغول أثناء قتالهم في أربيل . وفي العام التالي عاود المغول الكرة مرة أخرى (أي في سنة ٦٣٥ هـ) وهزموا المسلمين في خانقين وقتلوا عددا كبيرا منهم .

واشتهر الخاقان المغولي أوكتاي في الشرق الاسلامي بكرمه ومروءته ، وهناك حكايات كثيرة نروى عن جوده وعطاياه لدرجة أنه كان يطلق عليه « حاتم آخر الزمان » . هذا الى جانب ما عرف عنه من عدل وحب للرعية وعطف على المسلمين ، فكان على العكس من أخيه چغتاي الذي كان فظا غليظ القلب شديد اللطافة على الاسلام والمسلمين .

وعندما توفي أوكتاي قاآن تمكنت زوجته « توراكيينا خاتون » المسيحية بداهاتها وسياستها أن تحافظ على عرش المغول لابنها كيوك ، بعد أن اختار أوكتاي قبيل وفاته ابنه الثالث « كوجو » ولها لعهد لأنه كان يؤثره بحبه ، لكن كوجو توفي أثناء حياة أبيه ، فاختر أوكتاي حفيده « شيرامون بن كوجو » ولها لعهد ، وكان لا يزال طفلا صغيرا . وجريا على عادة المغول شرعت توراكيينا خاتون أرملة أوكتاي في مباشرة مهام الحكم الى أن عقد القوريلتاي لانتخاب الخاقان الجديد . وكانت هذه السيدة التي امتازت بالحزم والذكاء وقدحرات خاصة أهمها قوة الشخصية تحرص حرصا شديدا على أن يتولى

ابنهما الأكبر كيوك هذا المنصب ، فعملت على أن يطول أمد وصايتها لكن تمهد السبيل لتحقيق هدفها .

كيوك خان (٦٤٤ - ٦٤٧ هـ) - (١٢٤٦ - ١٢٤٩ م)

تولى كيوك خان العرش المغولي بعد مداوات دامت قرابة أربع سنوات بين أفراد الأسرة الجنكيزية ، حيث بدأت تظهر الأطماع على السلطنة والخلاف بين أفراد العائلة الواحدة . وفي عام ٦٤٤ هجرية (١٢٤٦ م) انعقد القوريلتاي لهذا الغرض على ضفاف إحدى البحيرات غربى منغوليا ، حضره جميع أفراد الأسرة الجنكيزية والشخصيات المغولية البارزة ما عدا « باتو » (٣) ابن جوجى كبير أمراء البيت الجنكيزى الذى اعتذر لمرضه ، وأرسل اخوته بدلا منه ، كذلك حضره عدد كبير من حكام الأقاليم واللوك التابعين للمغول ، ومنذوبون عن الدول الأخرى فى الشرق والغرب ، فكان من بين هؤلاء أمراء الخطا والأمير أرغون حاكم خراسان وفى صحبته أمراء وعظماء الأقاليم ، والسلطان ركن الدين قنچ أرسلان الرابع سلطان سلجقة الروم بآسيا الصغرى ، ومنذوبون عن كرمان وفارس الموصل ، والمطالبان بعرش مملكة الكرج ، وممثلون عن الملك علاء الدين خورشاه الحاكم الاسماعيلى ، كما أرسل الخليفة العباسى منذوبيا عنه .

واقترح أغلب الحاضرين انتخاب كيوك خان خاقانا للمغول ، ورغم أنه كان يتعذر عن تلبية رغبة الحاضرين محتجا بضعفه ومرضه ، إلا أنه فى النهاية قبل أن يتقلد المنصب نزولا على رغبة الأمراء بشرط أن يكون الحكم وراثيا فى سلالته . فوافق الجميع على ذلك ، وأعلنوا انتخابه رسميا خاقانا للمغول . وتذكر المصادر للتاريخية (٤) أن الخاقان كيوك خان عامل رسول الخليفة معاملة حسنة ، لكنه سلمه رسالة كلها تهديد ووعيد ، أما ممثلو

(٣) هو الأمير باتو بن جوجى ملك خانات روسيا وادى التبتياق ومؤسس دولة القبيلة الذهبية التى اتخذت من مدينة « سراى » عاصمة لها ، وأحد كبار أمراء البيت الجنكيزى فى عهده .
(٤) عطا ملك الجوينى : تاريخ جهان گشاي ، ج ١ ، ص ٢١٣ ، رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٧ .

علاء الدين خورشاه الملك الاسماعيلي فراح كيوك. يصب عليهم جام غضبه
وصرفهم أذلاً. مهانين ، ورد على زعيمهم ردا جافا الى أقصى حد .

وكان كيوك خان على خلاف أبيه رجلا مغامرا محاربا ميالا الى الغزو
والفتح ، فكان في تلك الناحية أقرب الشبه الى جده چنكيز خان ، وصرف
وقته في تعبئة الجيوش لفتح الصين الجنوبية وعهد بذلك الى القائد المغولي
الشهير « سوبوتاي » ، وأوفد « ايلچكتاي » الى ايران لفتح بقية الممالك
الاسلامية ، وجعل له السلطة العليا في الاشراف على شئون بلاد الروم والكرج
والموصل وديار بكر ، ونصب محمود يلواج حاكما على ممالك الخطا ، وولى
ابنه الأمير مسعود بك حاكما على ما وراء النهر وتركستان ، وعين الأمير أرغون
واليا على بلاد خراسان والعراق العجمي وأذربيجان وشبروان والזור وكرمان
وغارس وأطراف الهند ، وقتل السلطان ركن الدين قتلج أرسلان السلجوقي
حكم بلاد الروم لأنه قدم الى منغوليا بمناسبة تنصيبه إمبراطورا للمغول .

وكان الأمير أرغون حاكم ايران على صلة قديمة بها ، فقد عينته
« توراكينا خاتون » الوصية على العرش حاكما على ايران سنة ٦٤١ هجرية ،
وحضر الى خراسان في نفس السنة ومنها قصد الى العراق العجمي وأذربيجان ،
وصار يعمل على تخليص البلاد من ظلام واستبداد الحكام المغول الذين سبقوه .
كما سلك مع الرعية سلوكا حسنا (٥) ، ومن أعمال أرغون اختياره بهاء الدين
الجويني والد المؤرخ عطا ملك نائبا عنه في حكم آذربيجان وجورجيا وبلاد
الروم (آسيا الصغرى السلجوقية) . ولم يعمر كيوك كثيرا حيث توفي
سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) .

منكوتا آن (٦٤٨ - ٦٥٥ هـ) - (١٢٥٠ - ١٢٥٧ م)

توفي كيوك خان عام ٦٤٧ هجرية ، فقامت أرملته « أقول قيمش خاتون »
بمباشرة مهام الحكم الى حين انتخاب خاقان جديد طبقا لرسوم المغول
وعاداتهم . وكانت الوصية على العرش المغولي ترى تولية ابن أخي
كيوك خان ، غير أن أغلب الأمراء لم يوافقوها على اختيارها لصغر سن الأمير

(٥) حبيب الله شاملوئي : تاريخ ايران ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ .

المرشح للعرش الذهبي وقله خبرته ، وكانوا يرون أن الأمير منكو بن تولوى أحق أمراء المغول بهذا المنصب حيث تجتمع فيه صفات القائد المحنك والاداري الحازم . وكان على رأس المؤيدين ، بل وزعيمهم الأمير باتو بن جوجى الذى كان يعد أعظم شخصية مغولية في وقته ، كما كانت له الكلمة الأولى في اختيار الخاقان الجديد .

وكان الخلاف على تنصيب الخاقان الجديد في هذه المرة شديدا ، ذلك أنه على أثر وفاة كيوك خان أراد أبناء أوكتاي وأتباعه أن يقيموا الأمير « شيرامون » خاقانا للمغول ، ولكن كان لا بد من الحصول على موافقة الأمير باتو باعتباره أكبر الأمراء سنا ومقاما ، فأرسلوا اليه يطلبون حضوره الى منغوليا لعقد القوريلتاي وتنصيب الخاقان الجديد . فرد عليهم معذرا بعدم قدرته على السفر الى منغوليا بسبب مرضه ، وفي نفس الوقت وجه الدعوة الى كبار الأمراء والقادة العسكريين للحضور الى القنچاق حيث يقيم ، والاشتراك في القوريلتاي لانتخاب الخاقان . ولكن أبناء أوكتاي وجغناي عارضوا هذا الاقتراح وأصروا على عقده في المقر الأصلي لچنكيز خان جريا على العادة المتبعة . وعلى هذا النحو امتنعوا عن الذهاب الى القنچاق ، واكتفوا بأن أنابوا عنهم بعض المندوبين . أما منكو وأخوته فقد لبوا الدعوة وأسرعوا الى مدينة « سراى » عاصمة باتو حيث عقد القوريلتاي ، ونودى بمنكو خاقانا ، وتلقب بلقب « منكو-قا آن » . وبهذا انتقل الحكم الى أولاد تولوى الذين يمثلون الفرع الثانى من أسرة چنكيز خان .

وحدث خلاف شديد بين جماعة باتو ومنكو وبين المعارضين لهما والممثلين في بعض أبناء أوكتاي وجغناي من جهة أخرى حيث تمسكوا بجان بطل الحكم في أسرة أوكتاي وكيوك ، واستمر النزاع سائدا بين الطرفين مدة عامين ، وأخيرا حسم باتو الموقف واقترح عقد القوريلتاي في شهر ذى الحجة عام ٦٤٨ هجرية (ابريل ١٢٥٠ م) في منطقة قراقورم ، وفيه أعلن انتخاب منكو قا آن رسميا . وقد استطاع الخاقان الجديد أن يضرب على أيدي المناوئين له من أمراء المغول ، خاصة أسرة أوكتاي حيث أمر الخاقان الجديد منكو قا آن بوضعهم في أكياس مغلقة ورميهم تحت حوافر الخيول فهشمت عظامهم ، وأمر باعدام أتباعهم رميا بالحجارة .

واذ تولي منكوقا آن العرش المغولي ، أحيا سياسة المغول التوسعية ، وأمر كبار الأمراء بالعودة الى مراكزهم وحكوماتهم وأجرى تعديلا بين المناصب الكبيرة لتنفيذ سياسته ، فأعطى الأقاليم الشرقية من الامبراطورية المغولية الى ثانى اخوته « قوبيلاي » وفوضه في حكم الصين وما يقدر على فتحه من بلاد ، ونهض قوبيلاي لفتح الصين بكل ما توافر له من نشاط وما اتخذته من أساليب سياسية وطرق حربية . وتحول قوبيلاي الى البوذية وتشرب الحضارة الصينية ، واتسمت حروبه ومعاملته للمغوليين على أمرهم بالانسانية والرفق . وبقي في منغوليا منكوقا آن وشقيقه الأصغر أريق بوقا للإشراف على ضبط الامبراطورية المغولية المترامية الأطراف . أما ورثة چغتاي في تركستان ، فانهم شرعوا في القيام بمحاولات تمهيدية لمد سلطانهم الى الهند عبر مضبة البامير . ونقل باتو مقر سلطته الى الروافد السفلى لنهر الفلجا حتى يتسنى له السيطرة على أتباعه الأمراء في روسيا . وأنشأ بتلك البلاد الخانية التي أطلق عليها المؤلفون المسلمون اسم دولة دشت القبچاق والتي اشتهرت عند المغول والدروس باسم دولة القبيلة الذهبية (Golden Horde) ، أما حكومة فارس فانقلبت الى يد هولاء ثالث اخوة منكوقا آن فاضحت جهود المغول الرئيسية موجبة الى طرفين اثنين ، طرف فارس في الغرب وطرف الصين في الشرق (٦) .

وفي السنة الثانية من حكم منكوقا آن توجه الى الغزو والفتح بعد أن استقرت الأحوال الداخلية ، وصمم على فتح البلاد التي لم يتيسر فتحها من قبل ، ودفعه هذا التصميم الى تجهيز حملتين كبيرتين ، الأولى نصب عليها أخيه الأصغر هولاء وعهد اليه بالقضاء على طائفة الاسماعيلية واخضاع الخليفة العباسي ، والثانية نصب عليها أخاه الأوسط قوبيلاي على رأس حملة لفتح جنوب الصين . ويعيننا هنا فقط ذكر حملة هولاء على ايران .

ولم تقف استعدادات منكوقا آن على النواحي العسكرية فقط بل تعدى ذلك الى تحول في سياسته الخارجية أيضا ، فاتصل منكوقا بالأمم المسيحية واتخذ سنداً له وقصده وفد الامبراطور لويس التاسع الذي أرسله أثناء إقامته في عكا . وكان الوفد برئاسة الراهب الفرنسي سكاني روبروك . ومما يذكره الأخير أن منكوقا آن كان يرغب في إيجاد سبب مشترك مع

امبراطور فرنسا لمهاجمة الشرق • ودارت محاورات لطيفة وطريفة بين روبروك والخاقان المغولي تنبأ فيها الأول بأن منكو سوف يحكم العالم ويسبغ عليه العذل والسلام • وعلى كل فإن المفاوضات التي تمت بين لويس التاسع ومنكو ما أن لم ترتفع الى مستوى الاتفاق نظرا لغطرسة المغول وعدم قبولهم التحالف مع أى جهة تعتبر نفسها على قدم المساواة في السيادة والسلطة مع الخاقان المغولي ؛ ذلك أن منكو ما أن طلب من لويس التاسع أن يكون تابعا له •

أما التحالف الحقيقي والواقعي الذي تمكن منكو ما أن من تحقيقه فكان مع هيتوم (حاتم) ملك دولة أرمينيا الصغرى بعد أن أصبح الأخير تابعا للمغول ، وذلك من أجل بسط النفوذ المغولي في جهات الشرق حسب الاتفاق المعتقد بين الجانبين في شهر يوليو سنة ١٢٥٤م ، والذي تضمن :

- ١ - تبعية هيتوم لامبراطور المغول •
 - ٢ - التعاون مع كافة الدول المسيحية لاسترجاع بيت المقدس •
 - ٣ - تعيين ملك أرمينيا مستشارا للخاقان في شئون المشرق •
 - ٤ - إعفاء الكنائس في الامبراطورية المغولية من الضرائب كافة أنواعها ،
- ان الاتفاق الذي وقعه هيتوم ملك دولة أرمينية الصغرى المسيحية يظهر هيتوم وكأنه يتكلم باسم كافة ملوك أوروبا المسيحيين ، بل وعن كافة أوروبا اللاتينية والدولة الصليبية ••

حملة هولاكو على ايران :

حرص منكو ما أن على اعداد حملة أخيه هولاكو اعدادا دقيقا ، وبأشر ذلك بنفسه ، فأمدّه بكثير من القوات التي مارست الطعن والذوال واقتحمت ميادين القتال • ولم يكتف بذلك ، بل أرسل رسله الى بلاد الخطا لاستدعاء آلاف أسرة من الذين مهروا في استخدام أدوات الحرب مثل المنجنيق وقاذفات النفط ورمى السهام ، كما قام باختيار اثنين من كل عشرة رجال من خيرة جنود جنكيز خان ليكون حرسا خاصا لهولاكو ، وأوصل تعداد الجيش المغولي لأزاحف نحو الغرب الى ١٢٠.٠٠٠ جندى من خيرة محاربى المغول • وما أن سار هولاكو بجيشه نحو ايران حتى انضم اليه الأمير أرغون الحاكم المغولي على ايزان الذي وضع نفسه وقواته تحت امرة هولاكو ، فأبغاه في منصبه •

وقبل أن يتحرك الجيش المغولي من العاصمة المغولية « قراقورم » أرسل
 مئكو الرسل والبرشدين لاختبار الطريق الذى سيسلكه الجيش لبدء من
 قراقورم حتى شاطى، نهر جيحون، ووضعوا أيديهم على جميع المزارع
 والمراعى التى تمتد على طول الطريق، وأقاموا الجسور على الأنهار العميقة،
 وعلى مجارى المياه السريعة. ويذكر رشيد الدين فضل الله مؤرخ المغول الخطه
 التى رسمها مئكو قًا أن أخيه هولاكو فى نصيحة أشبه بوصية، فقال له :
 « انك الآن على رأس جيش كبير، وقوات لا حصر لها، فينبغى أن تسير من
 توران الى ايران، وحافظ على تقسايلد چنكيز خسان وقوانينه فى الكليات
 والجزئيات، وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نزاهيك فى الرقعة الممتدة
 من جيحون حتى أقاصى بلاد مصر - بلطك وبأنواع عطفك وانعامك -، أما
 من يعصيك فاغرقه فى الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه، وكل ما يتعلق
 به. وابدأ بإقليم قهستان فى خراسان، فخرّب القلاع والحصون. وإذا
 فرغت من هذه المهمة، فعليك أن تنتوجه الى العراق، وأزل من طريقك اللور
 والأكرد، الذين يقطعون الطرق على سالكيها. وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم
 فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقا. أما اذا تكبر وعصى، فالحقه بالآخرين
 من الهالكين. كذلك ينبغى أن تجعل رائدك فى جميع الأمور العقل الحكيم
 والرأى السديد، وأن تكون فى جميع الأحوال يقظا عاقلا، وأن تخفف على
 الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم. وأما الولايات الخربة فعليك أن
 تعيد تعميرها فى الحال. وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك
 الأعداء، حتى يصير لك فيها مصاييف ومشات عديدة. وشاور دوقوز
 خاتون (٧) فى جميع القضايا والشئون » (٨).

وخرج هولاكو على رأس جيشه من عاصمة المغول قراقورم سنة ٦٥١
 هجرية (١٢٥٣ م) وأسرع أمراء الأطراف الى تقديم كافة التسهيلات لتجهيز

(٧) كانت زوجة تولوى المفضلة، ثم آلت من بعده الى ابنه هولاكو،
 فتزوج منها جريا على عادة المغول الذين كانوا يتزوجون نساء آبائهم. وكانت
 امرأة حازمة ذات شخصية قوية وتدين بالمسيحية. وكان هولاكو يعزها
 ويحترمها ويستشيرها فى مهام الامور.

(٨) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ، نشر كاترمير (الترجمة
 العربية) ص ٢٣٤ وما بعدها.

الجيش ، كما أنهم أخذوا على عاتقهم تنظيف الطرق من الحجارة والأشواك .
وعلى هذا النحو صار هولاء وجنوده يقطعون المراحل والمنازل حتى وصلوا
الى سمرقند في شعبان سنة ٦٥٣ هجرية (فبراير ١٢٥٥ م) .

وسلك هولاء بعد ذلك طريق مراعى « كان كل » ، وكان مسعود بك
حاكم ما وراء النهر وتركستان قد أقام له هناك خيمة مطرزة بالذهب ،
فأمضى فيها هولاء ما يقرب من أربعين يوما ، ثم رحل منها الى مدينة
كش جنوب غربى سمرقند ، فمكث فيها مدة شهر كان خلاله موضع تكريم
الوجه والأعيان فى إقليم خراسان الذين أسرعوا اليه حاملين هداياهم ،
ومقدمين له فروض الطاعة والخضوع . وكان على رأسهم الأمير أرغون حاكم
ايران من قبل المغول .

ووجه هولاء خان عدة رسائل الى الملوك والأمراء فى ايران ، قال فيها :
نقد اتينا هنا بناء على أمر الخان الأعظم ، وعزمنا على تحطيم قلاع
الاسماعيلية ، والتضاء على تلك الطائفة . فاذا ساهمت معنا فى تلك الحملة
بالجيش والعدد والآلات ، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ،
وستحمد لكم موافقكم . أما اذا تهاونتم فى امتثال الأوامر وأهملتم ، فأننا
حين نفرغ بقوة الله تعالى من أمر الملاحدة ، فسوف لا نقبل عذرکم ، ونواجه
اليكم فيجرى على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم « (٩) » .

وعندما وصل هولاء خان الى الأراضى الإيرانية كانت قد سبقته
أخبار قوته وما يقصده ، فتلقى الترحيب من أتباع جدد ابتداء من شمس الدين
كرت ملك هرات ، والأتابك سعد بن زنكى أتابك فارس وكياووس الثانى
وقلج أرسلان الرابع سلطانى سلاجقة الروم والقائمين بالحكم فى آسيا
الصفرى (١٠) .

وفى الوقت ذاته كانت جماعة الاسماعيليه تستوطن الجبال فى ولاية

(٩) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (الترجمة العربية) ،
ص ٣٤٠ .
Grosset, L'Empire des Steppes, P. 247.
(١٠)

طالقان ورودبار والموت ، والأخيرة كما ذكرها القزويني « قلعة حصينة تبعد عن قزوین مسافة ستة فراسخ ، وتقع على قلة جبل ، وحولها وعاد لا يمكن نصب المنجنیق عليها ، ولا يبلغها النشاب . وكانت المركز الرئيسي لتجمع الاسماعيلية وكرسى ملكها » (١١) ، وهي بلغة الديلم « عش النسر أو ملجأ العقبان » وكانت هذه القلعة الحصينة ذات الموقع الخطير أحد حصون السلاجقة . وكانت لهم قلاع أخرى محكمة تصل الى الخمسين في قومس وقهستان بخراسان يحكمها حاكم يقال له « محتشم » .

وأمر هولاكو خان الخائذ المغولي « كتبغا نويان » بالتقدم في طليعة الجيش المغولي الى قهستان ، وهي المناطق الجبلية الوعرة الواقعة بين هرات ونيسابور ، فاستطاع أن يستولي على كثير من القلاع الموجودة هناك . غير أنه عندما تقدم الى قلعة « كرد كوه » وجدها حصينة محكمة ، فأمر جنوده بحفر خندق عميق حولها .

وفي غرة ذى الحجة سنة ٦٥٣ هجرية (٢ يناير ١٢٥٦ م) عبو هولاكو بجيشه نهر جيحون وتقدم بجحافل نحو القلاع المنيعه ، وأخذ هو وقواده يعملون على تخريبها وتحطيمها لكنه أدرك منذ اللحظة الأولى أنه اذا اعتمد على القوة في الاستيلاء على تلك القلاع ، فإن ذلك سيكلفه مزيدا من التضحية فضلا عن طول الوقت نظرا لمناعة تلك القلاع ولاستماتة المدافعين في الدفاع عنها ، فلجأ هولاكو خان الى سياسة الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد . ونجحت سياسته بالفعل ، فعندما أرسل هولاكو خان الملك شمس الدين كرت ملك هرات ، والذي كان مرافقا له في غنوحاته ، برسالة الى ناصر الدين محتشم قهستان الاسماعيلي في قلعة « سرتخت » يدعوه الى الدخول في طاعته ، أمثل لهذا الأمر ، وقصد هولاكو خان في صحة شمس الدين كرت ، وقدم لهولاكو جملة من الهدايا والتحف وقبل الأرض بين يديه ، فقبل هولاكو الهدايا وعامله بلطف ورثه ونصبه حاكما على مدينة « تون » واستمر في منصبه الجديد الى أن توفى في شهر صفر سنة ٦٥٥ هجرية (يناير ١٢٥٧ م) .

ثم أرسل هولاكو خان رسله الى ركن الدين خورشاه ملك الاسماعيلية

(١١) زكريا بن محمد القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٠ .

وزعيم الطائفة ، يطلب اليه الخضوع والتسليم . وفي الوقت نفسه لم ينتظر الرد من ملك الاسماعيليه ، وشرع جنوده يفتحون القلاع الواحدة بعد الأخرى حتى تبعت لهم الغلبة على أكثرها ، ولم تستعص عليهم أول الأمر الا قلعتنا « ميمون دز » و « الموت » . وأخيرا أرسل هولاکو خان رسله مرة أخرى الى قلعة ميمون دز حيث كان يقيم ركن الدين خورشاه لتهديده وتخفويه حتى يسارع الى التسليم : وكان يقيم في قلعة « ميمون دز » في تلك الاثناء، خواجه نصير الدين الطوسي وموفق الدولة جد المؤرخ «الابرانی الشهير رشيد الدين فضل الله اقامة جبرية ، وكانا قد سئما الإقامة عند الاسماعيليه ومالا الى هولاکو خان ، وودا لو وجدا على يديه الخلاص من سجنهما ، وصار خواجه نصير الدين الطوسي يزين لركن الدين خورشاه النزول على حكم هولاکو وعدم مقاومته لأن في هذا نجاة له ولأسرته .

وبرغم الحصار المضروب على القلعة من جميع الجهات وقوة المغول الجبارة لكن هولاکو خان تعذر عليه اقتحام القلعة ، وأرسل رسله الى ركن الدين خورشاه يهدده فيها بالتسليم ويوعده بالنظر في أمره ان فعل ذلك وقام بتسليم القلعة . وكانت تلك الرسالة ذات أثر بالغ على خورشاه ونفسيته ، فاستشار أركان دولته ، واستقر الرأي على أن يرسل الى هولاکو خان الخواجه نصير الدين الطوسي مع طائفة من الوزراء والأعيان والأئمة محملين بالتحف والطرائف الكثيرة ، فوصلوا الى معسكر هولاکو في يوم الجمعة ٢٧ شوال سنة ٦٥٤ هجرية .

وأخيرا وجد ركن الدين خورشاه أن الأمر قد خرج من يده ، ولم تعد له طاقة على المقاومة ، كذلك تطرق اليأس الى نفوس رجاله المحاصرين وفقدوا كل أمل في الصمود ، فنزل خورشاه الملك الاسماعيلي من قلعة ميمون دز ، وسلم نفسه لهولاکو مظهرا الخضوع والطاعة . وكان ذلك في صباح يوم الأحد غرة ذي القعدة سنة ٦٥٤ هجرية . وبذلك دلت دولة الاسماعيليه بعد أن استمرت ١٧١ سنة تثير الرعب والفرح في بلاد العالم الاسلامي كافة . ونظم خواجه نصير الدين الطوسي بيتين من الشعر في تاريخ تلك الواقعة ، هما :

سال عرب چو ششصد و پنجاه و چهار شد
يك شنبه أول مه ذى القعدة بامداد
خورشاه پادشاه اسماعيليان زخت
بر خاست پيش تخت هولاکو باستاد (١٢)

وهكذا خرج خورشاه من حصنه في قلعة ميمون دژ ، وقدم خضوعه
لهولاکو الذى استغل خضوع ملك الاسماعيليه أبرع استغلال ، فعامله معاملة
كريمة حتى أطاعه ، وأوحى اليه هولاکو أن يدعو قلاع الاسماعيليه الى
التسليم للمغول ، وسلمت له نتيجة دعوته تلك أكثر من خمسين قلعة . أما
القلاع التى أبى الاستماع الى نصيحة ملك الاسماعيليه مثل قلعتي «کردکوه»
و «الموت» فقد فتحهما المغول عنوة بعد قتال مرير (١٣) .

وبعد فتح قلعة الموت في شهر ديسمبر ١٢٥٦م ، حطم المغول ما وجده
من الأسلحة وأدوات القتال التى كانت لدى الاسماعيليه ، واستولوا على
الكنوز والأموال المخفية التى كانت في مخازن خاصة ولا يعلم مكانها سوى
قلة من المسئولين الاسماعيليين ، كما وقعت في أيديهم المكتبة النفيسة التى
كانت تعد أقيم مكتبة في عصرها ، بل كانت تعد التراث الاسماعيلي الوحيد
المتبقى منهم ، وجمعها الاسماعيليون طوال قرنين من الزمان حتى افترنت
شهرتهم وبعد صينتهم بمكتبتهم تلك المحتوية على عقائدهم ونظمهم .
واستأذن المؤرخ الايرانى عطا ملك الجوينى هولاکو خان في الاطلاع على المكتبة
والنفايس الاسماعيليه الأخرى ليجبى منها الصالح ويحرق منها الباقي الذى
يتعلق بعقيدتهم . وبذلك استطاع عطا ملك الجوينى أن يخرج كثيرا من

(١٢) وترجمة البيتين :
عندما صارت السنة الهجرية ستمائة وأربع وخمسين
فجر يوم الجمعة أول شهر ذى القعدة
قام خورشاه ملك الاسماعيليه من على العرش
ليقف تحت عرش هولاکو
(١٣) الذهبى : العير في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ٢١٦ .

(م ٨ - تاريخ الدولة المغولية)

المصاحف والكتب النفيسة وآلات الرصد والنجوم ، ومن بين النفائس عشر الجويني على كتاب « سر گذشت سيدنا » الذي يتناول تاريخا لحسن الصباح مؤسس الدولة الاسماعيليه في ايران ، وقد لخص الجويني ذلك الكتاب في الجزء الثالث من كتابه التاريخي « جهای گشای » فحفظ لنا تاريخ ذلك الجماعة من الضياع (١٤) .

ولما تأكد هولاكو خان من صدق نيات نصير الدين الطوسي وإخلاصه شمله بعطفه وألحقه بخدمته ، ثم أمر فأعطيت له الدواب اللازمة لحمل أسرته وأمتعته ، وكل ما يتعلق به الى معسكره وصيره من أتباعه وملازميه ، وصحبه في حملاته التالية بوصفه منجم البلاط ، ثم عهد اليه في انشاء المرصد الفلكي الكبير في مدينة مراغة بأذربيجان .

مصير ركن الدين خورشاه وشعبه الاسماعيلي :

عامل هولاكو خان ملك الاسماعيليه ركن الدين خورشاه في بداية الامر معاملة حسنة لدرجة أن خورشاه وثق في هولاكو واعتقد انه ضمن الإبقاء على حياته . وكان ذلك احدى أساليب هولاكو المغولية التي استدرج بها خورشاه ، فأعطاه أسرار وأسرار دولته وشعبه ، وأرشدته الى مخايب كنوز الاسماعيليه وثرواتها ، وغالى هولاكو في معاملة خورشاه ، فمنحه فتاة مغولية تزوج بها ، واختار له مدينة قزوین لتكون مكان اقامته وحفظ أمتعته وأمواله ، ويتخذها سكنا له ولأتباعه . وبذلك ظهر هولاكو أمام أمراء المسلمين أنه يحافظ على عهده باعطائه الأمان لخورشاه على حياته وأمواله .

ثم سمح هولاكو لركن الدين خورشاه ، ملك الاسماعيليه بالذهاب الى العاصمة قره قورم ليقابل الخاقان منكو قا آن عساه أن ينعيم عليه بفرمان يعيده اليه بعض ممتلكاته ، وأن يتشفع لبقية الاسماعيليه . لكن الخاقان المغولي رفض مقابلة ملك الاسماعيليه ، وأشار بامتعاض وأزدراء ، « لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبثا على الدولة التي يركبها ، انه من المؤسف حقا

أن تنهك قوى خيول مغولية على مهمة تافهة كهذه « (١٥) » .

وأمر الخاقان بأرجاعه ، وأرسل من قبله شخصا فنك به أثناء عودته في الطريق ، كما أمر بآبادة كافة الاسماعيلية وتدمير آثارهم في إيران ، ونفذ هولاء أوامر منكو قا آن بكل دقة في شأن الاسماعيلية في إيران ، وحبك خطة محكمة للقضاء عليهم ، إذ تظاهر بالعفو عنهم لكي يخرجهم من مكامنهم بحجة أنه يود عمل احصاء عام للنفوس . وعندما تم اكتشاف هؤلاء ، أمر بأعدامهم جميعا ، وتبع ذلك حركة تقتيل في جميع أفراد أسرة ركن الدين خورشاه وأقاربه من الرجال والنساء والأطفال . وكان ذلك في موقع ما بين أبيهر وقزوین .

وهكذا حقق الخاقان الأعظم للمغول هدفه الكبير بقضائه على جماعة الاسماعيلية قبل أن يشتبك مع الخليفة العباسي . ولما اطمان الى نجاح خطته ، أمر أخاه هولاء بالاستعداد للقضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد حاضرة العالم الاسلامي .

وبرغم القضاء على طائفة الاسماعيلية على يد المغول وإبادة الشعب الاسماعيلي كافة ، إلا أنه كان لاندجارهم وإبادتهم رنة فرح وسرور عمت العالم الاسلامي ، رغم ما يعانیه من المغول ، وبرغم ما كان يتوقعه على أيديهم من أحداث جسام قد تصل الى ما وصل اليه الشعب الاسماعيلي . وما ذلك الا لأن الاسماعيلية قد بثت الرعب والفرع في النفوس ، وأشاعت المفاسد والنفكرات . وكان يخشى بأسها الملوك والسلاطين والخلفاء ، كما كانت عاملا في افساد العالم الاسلامي وتفككه وتحطيم معنوياته والحد من تقدمه ، وقد علق على ذلك المؤرخ الإيراني عطا ملك الجويني بقوله : « حقا ، لقد كان هذا العمل مرعيا لجراح المسلمين ، وتداركا للدين من الخلل . وأن الناس الذين يبقون من هذا العهد يعرفون الى أي حد بلغت فتنة هذه الطائفة ، والى أي مدى بلغ اضطراب الناس وانزعاجهم . وإن الشخص الذي على وفاق معهم منذ عهد الملوك السابقين حتى عهد ملوك هذا العصر .

(١٥) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (الترجمة العربية)

ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

نما كان فقط مدفوعا بدافع الخوف منهم • أما اذا عادهم فكان عليه ان يعيش ليله ونهاره سجيناً خوفاً من رعاهم • لقد كان كأسا طافحا وريحا عاتية • ولكنها أخذت • ذلك ذكرى للذاكرين ، وكذلك يفعل الله بالظالمين « (١٦) •

سقوط الخلافة العباسية :

طمع هولاكو ، منذ البداية ، أن ينشئ لنفسه بوصفه تابعاً لأخيه منكوتا آن امبراطورية خاصة في الغرب ، وقد يكون أخوه الخاقان قد أوعز له بذلك ليكون في بيتهم الملك والسلطان • وحقق هولاكو هدفه الأول بالقضاء على طائفة الاسماعيليه وجعلها عبءاً لغيرهم ممن يفكرون في المقاومة ، ثم سار لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية وفتح بغداد • فانتقل الى همدان وعسكر فيها ليكون قريبا من العاصمة العباسية • وكان أول عمل تقدم عليه هولاكو أن أرسل الى المستعصم ، آخر الخلفاء العباسيين ، في شهر رمضان سنة ٦٥٥ هجرية (= مارس سنة ١٢٥٧ م) رسالة يدعو فيه الى تجريد حصون بغداد وأسوارها من أدوات الدفاع ، كما دعاه الى الخضوع بنفسه شخصيا وتسليم المدينة له ، فان فعل ذلك ضمن حريته وحفظ مركزه ، وإن أبى واستكبر أحل بنفسه وبأهله وبلاده الدمار والخراب ، لأن جيوش المغول سوف تسيطر الى بغداد لا محالة وتستولي عليها وتنتزعها من سلطانه ، ولن تدع أحدا على قيد الحياة في كل مملكته ، كما ضمن رسالته لوما شديدا على عدم امداده بالجند عند محاربته طائفة الاسماعيليه •

وجاء رد الخليفة المستعصم على هولاكو شديدا ، وإن حرص ان يصوغه في قالب من ، اذ دعاه الى الاقتلاع عن غيبه والرجوع الى خراسان ، وقال

(١٦) وهذا هو النص الفارسي من كتاب الجويني (تاريخ جهانگشای ج ٣ ، ص ٢٧٨) :

« راستی آن بود که این کار مرهم جراحتهای مسلمانی بود ، و تدارک خللهای دینی ، جماعتی که بعد از این دور وعده در رسند بدانند که فتنه ایشان تابعه غایت بود وتشویش در دل عالم تابعه حد کشیده ، کسی را که بایشان دم موافقت بودی از عهد پادشاهان گذشته تاوقت شاهان وقت خوف وبیم بودی ، و از مخاصمت ایشان پیمانه بود که بسر آمد وبادی می نمود که بسته شد ، ذلك ذكرى للذاكرين ، وكذلك يفعل الله بالظالمين » •

له (١٧) : « أيها الشاب الحدث . . . الذى لم يخبر الايام بعد ، والذى يتمنى قصر العمر ، والذى أغرته اقبال الايام ومساعدة الظروف فتخيل نفسه مسيطرا على العالم ، وحسب أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم . لماذا تطلب منى شيئا لن تجده عندى ؟ . . . ألا يعلم الامر أنه من الشرق الى الغرب ، ومن الملوك الى الشحاذين ، ومن الشيوخ الى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعتقدون الاديان ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لى ؟ . . . اننى عندما أشير بجمع الشنات ، سأبدأ بحسم ايران ثم أتوجه منها الى بلاد توران ، وأضع كل شخص فى موضعه ، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملوءا بالقلق والاضطراب . غير اننى لا أود الحقد والخصام ، ولا أشتري ضرر الناس وايذائهم ، كما أننى لا أبغى من وراء تردد الجيوش ، أن تلهج ألسنة الرعية بالمح والقدح ، خصوصا وأننى مع الخافان وهولاكو قلب واحد ولسان واحد . »

فاذا كنت مثلى تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق ريعتى وحصونى ؟ . . . انملاك طريق الود وعد الى خراسان . وان كنت تريد الحرب والقتال . فلا تتوان لحظة ولا تعتذر ، فان لى ألوا مؤلفة من الفرسان والرجال هم على أهبة الاستعداد للقتال » .

ثم أرسل هولاكو رسالة أخرى الى الخليفة ، ذكر فيها أنه سوف يبقيه فى منصبه بعد اعترافه بالتبعية للدولة المغولية وتقديم الاتاوات السنوية ، فاعتذر الخليفة المستعصم بعدم جواز ذلك شرعا ، الا أنه على استعداد تام لدفع الاموال التى يطلبها هولاكو مقابل عودته من حيث أتى . ومما زاد فى غضب هولاكو أن وثب الناس فى بغداد على أعضاء الوفد المغولى وقتلوا بهم .

وعندما وصل رسسل الخليفة الى هولاكو ، واطلع الاخير على رسالة خليفة المسلمين أعاد الرسل الى بغداد ، وحملهم رسالة أخرى تتضمن انذارا نهائيا للخليفة ، صيغ فى لهجة شديدة عنيفة . فما أن عرضت الرسالة على الخليفة ، جمع كبار رجال دولته واستشارهم فيما عساه أن يفعل ، فكان

الوزير الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي يرى أن يبذل الخليفة الاموال والتحف والهدايا ويرسلها الى هولاء في معسكره مع تقديم الاعتذار اليه . كذلك رأى أن يذكر اسم هولاء في الخطبة ، وأن ينقش اسمه على السكة على نحو ما كانت تسير عليه الامور أيام البويهيين والسلاجقة . وكان ابن العلقمي يرى أن مثل هذه الاجراءات تثني هولاء عن عزمه على فتح بغداد، ولايتعرض للخليفة بسوء . وكان المستعصم بعد أن فقد رباطة جأشه ووجد الطريق مسدودا أمامه يميل الى الاخذ بهذا الرأي ، غير أن الوزير مجاهد الدين أبيبك الدويدار الصغير رفض مقترحات الوزير ابن العلقمي ، وأصر على المقاومة ، بل واتهم ابن العلقمي بالخيانة والتواطؤ مع هولاء ، فعدل الخليفة المستعصم بكل بساطة عن رأى ابن العلقمي ووافق على ما ارتآه الدويدار الصغير .

وفي الجانب المقابل استشار هولاء منجمه الخواجه نصير الدين الطوسي في فتح بغداد والقضاء على الدولة العباسية ، فأقره على خطته . وكان نصير الدين الطوسي يكره الخليفة ويعمل على اسقاطه ، بل لعله هو الذي زين لهولاء الاستيلاء على بغداد وتملكها .

حصار بغداد :

شرع هولاء بعد أن يئس من اقناع الخليفة المستعصم بالله العباسي بالتسليم ، في الزحف نحو العراق . فأمر بعض جيوشه بالتحرك من أطراف بلاد الروم عن طريق أربل والموصل ، وأن تتجه نحو بغداد لتحصنها من الجهة الغربية . وكان هذا الجيش جناحه الايمن . وأمره أن ينتظر حتى تصل جيوش هولاء وتتمركز في الناحية الشرقية ، وكان الجيش المرافق لهولاء يشكل القلب للجيش المغولي والقوة الضاربة . أما الجناح الايسر ، والذي قاده « كيتو بوقا » فقد اتجه صوب بغداد عن طريق لورستان وخوزستان .

وعسكر هولاء بجيشه في الناحية الشرقية من مدينة بغداد . ووافاه الحد من بعض أمراء المسلمين الذين أجبرهم هولاء على تقديم المعونات للجيش المغولي ، فأمره كل من بسدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والأتابك

أبى بكر سعد بن زنكى السلغرى حاكم اقليم فارس بالرجال والمال . كما
قدم بعض أمراء المغول المقيمين فى آذربيجان بقواتهم عن طريق كردستان ،
وبذلك أحكم الجيش المغولى حصار بغداد وسد جميع منافذها .

وكانت المدينة بالبائسة ببغداد تضم أربعة أبواب رئيسية فى ذلك
الوقت ، هى باب السلطان (ويسمى حالياً الباب المعظم) ، ثم باب خراسان ،
والذى أطلق عليه مؤرخوا الباب الوسطانى ، وباب الحلبة وباب كلواذى
(وهو الباب الشرقى للمدينة) . واتخذ هولاء معسكره فى الجهة الشرقية
الممتدة بين بابى السلطان وكلواذى بعد أن استسلمت له الكرخ واکاظمية .

وحاول الجيش العباسى الذى جهزه الخليفة وأنفق عليه الاموال بقيادة
مجاهد الدين ايبك الدويدار الصغير أن يحول دون استقرار المغول فى أماكنهم ،
وعدم تمكينهم من اتخاذ مواقع ثابتة ، فكان نصيب ذلك الجيش الهزيمة من
أول جولة وقتل عدد كبير من جنوده نتيجة عدم انضباطهم العسكرى وعدم
خبرتهم فى القتال حيث كانوا أقرب الى رجال العسس منهم بالمقاتلين ، ولم
يجد قائدعم مجاهد الدين ايبك الدويدار الصغير الا الهرب مع من نجى بنفسه
ولاذ الى بغداد حيث اختبأ خلف أسوارها .

وكان الجيش المغولى ضخماً يقرب من مائتى ألف مقاتل من الفرسان ،
وبين صفوفه وحدات حصار من أمهر المهندسين الصينيين . وكانت خطة
هولاء العسكرية حصار بغداد بجيوشه من جميع النواحي وسد جميع
المنافذ المؤدية اليها حتى تسقط سهلة فى يده دون جهد كبير لتصوره أن بها
جندا جرارا وقوى خفية لم تظهر حتى حصارها ، وفى نفس الوقت كان يخشى
أن يتعاطف الامراء المسلمون مع خليفة المسلمين ويمدونهم بقوات أو يشتركوا
فى القتال . وأيضاً حاول هولاء وهو يقيم على أسوار المدينة ببغداد استمالة
للفرق التركية العاملة بجيش الخلافة ، لكن هؤلاء ظلوا على ولائهم واخلصهم
لخليفة المسلمين حتى النهاية ، بل وصمموا على الدفاع عن بغداد حتى آخر
قطرة من دماءهم .

وقبل أن يبدأ القتال ، أراد هولاء مروعة الخليفة لكسب الوقت ،

فأرسل اليه يقول : « اذا كان الخليفة عازما على التسليم ، فليأت بنفسه الينا ، واذا كان عازما على محاربتنا فليرسل الوزير سليمان شاه والدويدار الصغير قبل كل شيء ليصغوا الى مطالبنا » (١٨) ، ثم تبع ذلك ارسال هولاكو ثلاثة من قواده مع غرقهم على عجل وكلفهم بعبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد من الغرب وبسرعة خاطفة .

ونجح هولاكو في مناورته تلك ، ذلك أن قوات الخليفة العباسي عندما علمت بالهجوم المغولي من الناحية الغربية ، تحركت من مواقعا ، وعبرت نهر دجلة لصددهم ، فتركت هولاكو حرا طليقا وسار حتى وصل شاطئ نهر حلوان . وبعد أن عسكر جيش هولاكو في خانقين بضعة أيام واصل سيره حتى أقام معسكره شرقي بغداد في ١٨ يناير ١٢٥٨ م .

وفي ٣٠ يناير من نفس السنة (١٢٥٨ م) ، اشتد القصف المغولي وصارت منجنيقاتهم تقذف بصخور جيء بها من جبل حميرين القريب من بغداد ، وتمكنت بعض الوحدات المغولية في اليوم الخامس من شهر فبراير من نفس السنة من اعتلاء الاسوار في جهة برج الفرس . وفي صباح اليوم السادس من فبراير (أى اليوم التالى) سيطرت القوات المغولية على السور الممتد من باب الحلبة الى ما وراء البرج الفارسى ، فأصبحت المدينة تحت رحمتهم (١٩) .

سفارة ابن العلقمى الوزير الى هولاكو :

أحس الخليفة المستعصم العباسى بالخطر الفادح وأن الأمر قد غلت من أيدي المسلمين وأن ملكه مهدد وشعب المدينة قد أصبحوا تحت رحمة المغول وسيوالجهون المصير الذى واجهته مدن ما وراء النهر وخوارزم وخراسان من دمار ، فبدأ يفكر في طريقة مثلى يمكنه بها انتقاذ الخلافة الاسلامية من السقوط في أيدي المغول . وهذاه تفكيره أن يعمل لاستمالة

Quatremere; Histoire des Mongols, P. 279. (١٨)

Glubb J., The Lost Centuries 1145-1453, London, (١٩)

P. 252.

هولاكو وارضائه ، فأرسل وزيره مؤيد الدين بن العلقمي في أول الامر وأمره أن يقول لهولاكو : « لقد طلب مني الامير المغولي أن أرسل وزيرى ، وهانذا اليوم قد اقتنعت بما طلب . راجيسا أن يحفظ الأمير كلمته ٠٠٠٠ » (٢٠) . وكان الخليفة يهدف من وراء ذلك اقناع هولاكو بالرجوع من حيث أتى بعد أن نفذ له ما طلبه منه .

وقام ابن العلقمي بتنفيذ المهمة التى كلف بها وصاحبه فيها بطريق النساطرة في بغداد الذى أرسله الخليفة مع الوزير عندما علم بأن هولاكو متزوج من مسيحية ، لكن هولاكو رد على الخليفة بقوله : « عندما قطعت على نفسي هذا الوعد كنت لا أزال تحت أسوار همدان ، أما الآن وأنا أعسكر أمام بغداد ، وقد هاج وهاج بحر المشكلات والعداوة ، كيف أكتفى باستقبال أحد كبار رجال الدولة ، يجب أن يرسل الخليفة رؤساء حكومته الثلاثة : الوزير (أى ابن العلقمي) والدويدار الصغير وسليمان شاه » .

وفي اليوم التالى أرسل الخليفة الوزير ابن العلقمي دون أن يرافقه الدويدار الصغير وسليمان شاه كطلاب هولاكو ، ورافقه تسعة من حاشية الخليفة وخاصته وعددا آخر من كبار رجالات الدولة العباسية ، لكن الوزير ابن العلقمي لم يستطع أن يحقق هدفه ، وردهم هولاكو دون أن يعبرهم أدنى القفّات » (٢١) .

وفي اليوم الثالث أرسل الخليفة ابنه الاكبر أبا بكر وبصحبه الوزير وعددا من رجال الحاشية ، وأيضا لم يستمع اليهم هولاكو وردهم جميعا يجرون أذيال الخيبة والفشل . وكان هولاكو يصر في كل مرة على ارسال الدويدار الصغير وسليمان شاه . ولما تأكد الخليفة المستعصم من أن هولاكو لا يزال مصمما على اتباع طريق العنف معه ، بادر الى اجابة مطالبه حتى يسلم من اذاه ، وأرسل في اليوم الرابع كلا من الدويدار الصغير وسليمان شاه . فكان ذلك ايذانا من الخليفة العباسي بأنه في سبيله الى التسليم . وقبض هولاكو على مبعوثي الخليفة ، الدويدار الصغير وسليمان شاه ،

ومرافقيهما ، وأمر بقتل كليهما فنفذ ذلك أمامه ، ثم أمر بتوزيع المرافقين على الجنود المغولية فذبحوهم عن آخرهم .

ولما تسامح أهل بغداد بما حدث طارت نفوسهم شعاعا ، وأصيبوا بذعر شديد واضطراب كامل وشال في التصرف والتفكير ، وأخذ كل واحد منهم يدبر أمره بنفسه ، فأخذ فريق منهم يختبئ في المغارات وفي أفسران الحمامات ، وخرج بعض كبارائهم من المدينة أيعرضوا تسليمها إلى هولاكو ويرحبوا به قائلين بأن الخليفة إنما أراد بإرسال أولاده أولا أن يحضر بنفسه بعد ذلك . ولكن هولاكو لم يستمع لهم ولم يجبههم إلى مطالبتهم . أما الخليفة فقد تسرب الخوف إلى قلبه ، وتحقق من المصير الرهيب الذي ينتظر بغداد وأهلها . ومما زاد وضعه سوءا أن الوزير ابن العلقمي أخذ في تثبيط همته وإدخال الخوف إلى قلبه والخليفة يستمع إليه ويزداد رعبا وهلعا .

موقف الوزير ابن العلقمي :

أجمعت المصادر الإسلامية أن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي كان شيعيا ، وأنه كاتب المغول يحثهم على فتح بغداد والقضاء على الخلافة العباسية ، وفي ذلك يقول الحافظ الذهبي (٢٢) :

« كان الوزير المؤيد بن العلقمي قد كاتب التتار وحرصهم على قصد بغداد لأجل ما جرى على أخوانه الرافضة من النهب والخزى . وظن المخذول أن الأمر تم ، وأنه يقيم خليفة عاويا . فأرسل أخاه ومملوكه إلى هولاو (يقصد هولاكو) وسهل عليه فتح بغداد ، وطلب أن يكون ناشدا لهم عليها ، فوعده بالأمان ، ثم أن ابن العلقمي عندما ذهب إلى هولاو وتمكن له عاد فأخبر المستعصم بأن الملك (يقصد هولاكو) قد رغب في أن يزوج بنته بابنك الأمير أبي بكر ، وأن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلجوقية ، ثم يرحل . فخرج إليه المستعصم في أعيسان الدولة . ثم استدعى الوزير العلماء والرؤساء ليحضروا العقد بزعمه فخرجوا ، فضربت رقاب الجميع .

(٢٢) الحافظ الذهبي : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ٢٢٥-٢٢٦ .

وصار كذلك تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم حتى بقيت للرعية
بسلام » .

واضطر الخليفة العباسي الى الخروج : ن بغداد وتسليم نفسه
وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط ، وذلك في يوم الأحد الموافق الرابع من
شهر صفر سنة ٦٥٦ هجرية (١٠ فبراير ١٢٥٨ م) ومعه أهله وولده
بعد أن وعده هولاكو خان بالأمان . وكان يرفقته ثلاثة آلاف شخص من
السادة والأئمة والقضاة وكبار رجال الدولة وأعيان المدينة . فما أن وصلوا
الى معسكر هولاكو حتى أمر بوضعهم في مكان خاص ، وأمر بتقسيم مرافقي
الخليفة الى جماعات . وفي البداية أخذ هولاكو يلاطف الخليفة المستعصم بالله
ويطيب خاطره ، ثم طلب اليه أن ينادي في الناس بالبقاء أسلحتهم والخروج
من المدينة لأحصائهم . فلما ألقى الناس أسلحتهم وخرجوا طبقا لتعليمات
هولاكو قتلهم المغول جميعهم ، أما الخليفة وأولاده وكل ما يتعلق به
فوضعهم هولاكو بالقرب منه في مكان بجوار باب كلواذي ، وفرض عليهم
حراسة مشددة ، وهنا أحس الخليفة أنه هالك لا محالة .

ثم أمر هولاكو بدمر الخنادق وإزالة أسوار المدينة ، وإقامة جسر على
نهر دجلة ، ولما تم له ذلك أمر القوات المغولية المعسكرة في الناحية
الشرقية للمدينة بدخولها من جهتهم ، وأمر أيضا قواته المعسكرة على
الشاطئ الغربي بعبور الجسر ودخول المدينة من الغرب ، فدخلها أولئك
وهؤلاء كالجراد وأنفوا على أهلها جميعهم ولم يسلم الا من اختفى في بئر أو
تقنة . أما المدينة كثارت حضارى فقد قام المغول بتخريب المساجد بقصد
الحصول على قبائدها الذهبية وهدموا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف
نادرة ومنقولات قيمة ، واستمر الجنود المغولية في غارتهم الوحشية تلك
أربعين يوما ، وكلما يمشطون منطقة يشعلون فيها النيران من كل جانب ،
فكانت تلتهم كل ما يصادفها ، فأنت على الأخضر واليابس ، وخربت أكثر
الابنية وجامع الخليفة ومشهد الامام موسى الكاظم وقبور الخلفاء في
الرصافة (٢٣) .

(٢٣) لاسترننج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشير
فرنسيس ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

وبالبح المؤرخون مبالغة شديدة في عدد من أزهقهم المغول أو أبادوهم بطريقة أو بأخرى حين دخلوا بغداد ، فقدّر بعضهم القتلى بمليون وثمانمائة ألف نسمة ، وقدرهم آخرون بمليون نسمة ، وقدرهم غريق ثالث بثمانمائة ألف نسمة ، وهناك من قدرهم بألفي ألف نسمة . يقول الحافظ الذهبي وهو ممن كتبوا عن المغول عن ذلك « ويقال ان هولاء أمر بعد القتلى غلبوا ألف ألف وثمان مائة ألف وكسر ، فعند ذلك نودى بالأمان » (٢٤) وعلى كل فقد أزال هولاء معالم بغداد ومبانيها التي كانت آية من آيات الفن الاسلامي ، كما ضاعت الثروة الادبية والفنية الاسلامية التي اشتهرت بها بغداد دون غيرها من البلدان الاسلامية وأصبحت أثرا بعد عين ، ولم يبق منها سوى حطام المدينة ليس أكثر .

وفي اليوم التاسع من شهر صفر سنة ٦٥٦ هجرية (١٥ فبراير ١٢٥٨م) دخل هولاء مع حاشيته من أمراء المغول وفادتهم مدينة بغداد ، وقصد قصر الخليفة المستعصم الذي كان يرافقه ، وكانت الجنود المغولية لم تمس قصر الخليفة بسو ، وأمر هولاء باحضار الخليفة والمثول بين يديه ، وقال له : « أنت الضيف ونحن الضيوف ، فيجب عليك أن تقوم بواجب الضيافة » . وكان الخليفة المستعصم في حالة نفسية سيئة بعد أن شاهد بعينه ما حدث لكنه وشعبه والدين الاسلامي من تكبات على يد المغول ، وكان ينتظر للقتل كل لحظة تمر عليه ، فصدق قول هولاء واستولت عليه الدهشة واعتراه الذهول ، لدرجة أنه لم يعد يعرف أين وضع مفاتيح خزانته ، فأمر بكسر الأقفال وأخرج الفين من الثياب وعشرة آلاف دينار وجواهر عديدة قدمها هدية لهولاء ، فأخذوا منه باذرا ، وعدم مبالاة ، وقدمها الى أمراءه ، وقال للخليفة : « ان الكنوز التي تملكها والتي توجد فوق سطح الأرض من السهل معرفتها ، وهي تحت تصرفي وتصرف أتباعي ، انما ما أريده هو أن تظهر لنا ثروتك المدفونة ، وتبين لنا موضعها » . ولما أخبره الخليفة العباسي أن في وسط القصر جرة مملوءة بالذهب ، أمر هولاء بالحضر في الموضع الذي عينه ، فوجدوا الجرة مملوءة بالذهب الابريز ، وبها عدد من

القطع الذهبية تزن الواحدة منها مائة مثقال . ثم أن هولاءكو أمر بأن يحصوا حرم الخليفة وحاشيته ، فوجدهم سبعمائة من النساء والسريرا وثلاثمائة خادم خصى . ولم يدع هولاءكو للخليفة الا مائة فقط من النسوة ممن اقاربه والمحبات اليه من الجوارى ، ثم باشر هولاءكو بنفسه ما جمع من قصر الخليفة من ثروة اقتناها الخلفاء العباسيون في مدة خلافتهم الطويلة ووضعت حول خيمة هولاءكو فصار كجبل قائم . وفي ذلك يقول ابن العبري : « أمر هولاءكو الخليفة أن يفرز جميع النساء اللاتي باشرهن هو وبنوه ويعزلن عن غيرهن ، ففعل فكن سبعمائة امرأة فأخرجهن ومعهن ثلاثمائة خادم خصى ٠٠٠٠ » (٢٥) .

٥- سرور الخليفة المستعصم بالله العباسي :

وفي الرابع عشر من شهر صفر سنة ٦٥٦ هجرية (٢٠ فبراير ١٢٥٨م) أمر هولاءكو بقتل الخليفة المستعصم بالله الذي يعد آخر الخلفاء العباسيين في بغداد ومعه ولده الأكبر وخمسة من رجاله المخلصين الذين أثروا البقاء معه ولم يتركوه عندما نزلت به كل تلك المصائب والنكبات . يقول ابن العبري ما يفيد ذلك بطريقة أخرى « ٠٠٠٠ » وفي رابع عشر صفر رحل هولاءكو من بغداد ، وفي أول مرحلة قتل الخليفة المستعصم وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان بالليل وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواز « (٢٦) » . واختلف كثير من المؤرخين العرب والفرس والفرنجة في تاريخ قتل المستعصم وطريقته ، فكثير من المؤرخين العرب يذكرون أن قتل الخليفة تم في شهر المحرم من عام ٦٥٦ هجرية دون تحديد لليوم الذي تمت فيه ، بينما يذكر المؤرخون الايرانيون ومعهم ابن العبري أن القتل حدث مساء يوم ١٤ صفر سنة ٦٥٦ هجرية (٢٠ فبراير ١٢٥٨م) ، وعندهم أخذ مؤرخوا الفرنجة . يقول الحافظ الذهبي « ان الكافر هولاءكو أمر به (أى الخليفة المستعصم) وبولده أبى بكر فرغسا حتى ماتا ، وذلك في حدود آخر المحرم . وكان الأمر أشغل من أن يوجد مؤرخ لموته أو موار لجسده » (٢٧) .

كذلك اختلف المؤرخون في الطريقة البشعة التي قتل بها الخليفة

(٢٥) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧١ .

(٢٦) ابن العبري : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

(٢٧) الحافظ الذهبي : العبر في خبر من عبر ، ج ٥ ، ص ٢٣١ .

العباسي ، فيقول بعض مؤرخي العرب أنه قتل رفسا بأن وضع في عدل حتى مات ، ويذكر البعض الآخر أنه خنق ، ويقول آخرون أن جسده مزق اربا ، وجماعة ذكروا أنه لف في بساط وألقى به في نهر دجلة (٢٨) . أما مؤرخو الفرس وعنهم أخذ مؤرخو الفرنجة فقالوا أن هولاء وضع أمامه شيئا من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وطلب منه أن يأكلها إذا أراد بعد أن وضعه هولاء في حجرة مغلقة (٢٩) .

ولا شك في أن الطريقة التي قتل بها الخليفة العباسي المستعصم يكتنفها الغموض ، وما ذلك إلا أن هولاء قد أخفى على الناس قتل الخليفة ردا من الزمن لذلك لم يقف المؤرخون على الطريقة التي لقي بها الخليفة المستعصم حتفه فهي واقعة من الوقائع التاريخية غير المتفق عليها في توقيتها وطريقتها .

وفي اليوم التالي لأصرع الخليفة العباسي المستعصم ، أمر هولاء بتنقيب أفراد الأسرة العباسية وقتلهم جميعا ، ويقال انه ظفر بهم ولم ينج منهم سوى أصغر أبناء الخليفة المقتول ، ويدعى أبا المناقب مبارك ، وكان ذلك بناء على طلب زوجة هولاء . وقد أرسل الأمير العباسي مبارك هذا الى الشرق حيث تزوج بامرأة مغولية . ومن نجا أيضا من أفراد أسرة الخليفة المستعصم احدى بناته التي أرسلها هولاء الى أخيه منكوا أن . ويقال ان تلك الأميرة عندما وصلت الى سمرقند استأذنت مرافقها لزيارة قبر قثم بن العباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقيق عبد الله بن العباس وقد استشهد في سمرقند ، ولما أجابوها الى طلبها وقفت على القبر وقالت : « رب اذا كان لقثم بن العباس عندك قدر فاقبض عبدك اليك ونجها من أيدي هؤلاء الناس » فاستجاب لها ربها وسقطت على القبر ميتة (٣٠) .

وما أن فرغ هولاء من فتح بغداد وتنظيم شئون الدولة في البلاد المفتوحة حتى رحل من بغداد في الرابع عشر من صفر بعد أن فوض أمر بغداد

(٢٨) ابن شاذكر الكتني : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٢٩) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٣٠) D'Ohsson; Histoire des Mongols. Tome III, P. 242-244.

الى شمس الدين صاحب الديوان الجويني والوزير ابن درنوش . توجه الى آذربيجان حيث اختار مدينة مراغه عاصمة للكه ، وأقام أيضا عدة بُنية في اقليم أورميه ، كما شيد عدة معابد وثنية (بت خانه ها) في مدينة خوى في آذربيجان . وكلف مستشاره الخواجه نصير الدين الطوسي ببناء المرصد في مدينة مراغه سنة ٦٥٧ هجرية .

وقع انتصارات هولاكو على الدويلات الاسلامية المجاورة لبغداد :

لا شك في انه رغم الخلافات السياسية والأحقاد الشخصية التي كانت سائدة العالم الاسلامي في ذلك الوقت وكثرة الحروب بين الدويلات الاسلامية والفتن الداخلية ، الدينية منها وغيرها ، الا أن سقوط بغداد وقتل الخليفة العباسي أصاب المسلمين بحسرة وحزن عميق ، ومع ذلك لم يجرؤ أحد من ملوك المسلمين وقادتهم على الوقوف بجانب بغداد أو مناصرتها في محنتها خوفا من المغول ورهبة من عقابهم . وكان الأمراء المسلمون المجاورون لبغداد ينظرون بعيون زائغة الى تقدم هولاكو نحو بغداد والاهواز عليها ، وهم في حالة من الهلع لا يعرفون معها كيف يتصرفون . ان الخلافات بين الحكام المسلمين وصلت الى درجة سيئة وطريق مسدود ، وكان النفاق والعداء وحب السيطرة والظهور هو المسيطر عليهم ، كان كبيرهم يريد ابتلاع صغيرهم والجميع يعبس في ذلك الجو المضطرب لا يعرف هل سيأتي عليه يوم جديد في منصبه أم لا حتى داهمهم هولاكو بجيوشه وسقطت الخلافة العباسية التي كانت تعد في نظرهم قلعة الاسلام وملاذ المسلمين ، كما سقطت بغداد وقتل أهلها وشردهم وأصبحت المدينة التي اشتهرت بعظمتها مسرحا لجنود المغول يعيشون فيها الفساد والدمار والخراب ، فملا الرعب والفرع والهلع قلوب أكثرية أمراء الجزيرة وسورية وآسيا الصغرى من جراء الفظائع التي ارتكبها الجيش المغولي بالعراق والخلافة العباسية ، فهرعوا جميعا الى هولاكو يقدمون له فروض الطاعة والولاء والتهنئة بما ناله من فتح واحرزه من انتصار ، وبتمناهونه خوفا من بطنته واتقاء لشره . ان الفرع جعل كل واحد منهم يتلمس طريقا للنجاة بنفسه أولا مهما كانت الطريقة . فكان ممن حضر لتهنئته في بغداد « بدر الدين لؤلؤ » أتابك الموصل ، وكان شيخا في الثمانين من عمره ، واستدعاه هولاكو ليشكره على تعاونه معه بما قدمه من جند وعتاد وخيول ،

فأتى على عجل وأسرع بتقديم التهنئة بفتح بغداد ، وقدم لهولاكو هدية قبلها الأخير منه ، ولأزمه فترة من الزمان إلى أن غادر هولاكو المدينة البائسة متوجها إلى آذربيجان التي اتخذها مقرا له . كما أرسل أبو بكر السلغرى أتابك فارس ابنه للغرض نفسه .

وفي مدينة مراغه حيث عسكر هولاكو ، وفد إليه اثنان من سلاطين سلاحته الروم ، هما الأخوان المتنافسان على العرش الساجوقي في آسيا الصغرى ، السلطان عز الدين كيكاووس الثانى ، والسلطان ركن الدين قلج أرسلان الرابع ، وكلاهما يمنى نفسه أن يقوم هولاكو بانصافه والوقوف بجانبه ضد أخيه . أما عز الدين كيكاووس الثانى فكان يرتجف رعبا، ويخشى أن يعاقبه هولاكو على اشتباكه جنوده مع المغول بقيادة « بابجو نوبان » الذين هزموه قرب مدينة « آفسرا » (٣١) فلما سقطت بغداد على يد هولاكو أحس عز الدين كيكاووس الثانى بحرج موقفه ومركزه وخشى بطش الخان المغولى يسبق أن يأتاه إلى زيارة هولاكو وحاول أن يخلص نفسه من تلك الورطة بنوع مبتكر من التملق الذى يحمل طابع الخضوع والذلة والولاء ، فرسم صورته على نعل زوج من الأحذية ، وقدمهما إلى هولاكو قائلا له : « عبدك يأمل أن يتفضل الملك ، فيشرف رأس عبيده بوضع قدمه المباركة عليها » (٣٢) .

أسباب سقوط بغداد :

هناك أسباب أدت إلى سقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية ، ترجع إلى المواقف المتنافرة بين طبقات الشعب وفئاته ، وتصرفات الخليفة العباسى نفسه التى كانت لا تبشر بمستقبل سليم ، بل كانت كلها مواقف اتسمت بخلافات شخصية وعقائدية وحب للسيطرة ، وفقر فى الأخلاق وتملص من المسئوليات ، حتى داهم هولاكو بجيوشه تلك القوى المتنافرة وقضى عليها كلها ، نذكر من هذه الأسباب :

Grousset; L'Empire des Steppes, P. 433.

(٣١)

(٣٢) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ (تاريخ المغول فى إيران) الترجمة العربية من ٣٠١ ، وأيضا الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

أولا - موقف الخليفة المستنصر بالله ورجاله المقربين :

ورث الخليفة المستنصر بالله عن أسلافه دولة ضعيفة مفككة ، وكان الفناء قد دب في جسدها المتهالك . إن الخليفة نفسه كان رجلا تقيا صالحا ، طيب القلب ، إلا أن أفئته كانت في ضعف إرادته وانقياده لاتباعه وتردده الأمر الذي جر عليه وعلى الاسلام الخراب والدمار . ولم تكن شخصية الخليفة المستنصر بالله مؤهلة لقيادة جيوش أو زعامة سياسية ، بل كانت شخصيته ضعيفة مستكينة ولم يهتم بتجيش الجيوش واستنفار أمراء المسلمين وحكام البلاد والشعب الاسلامي لمواجهة المخاطرة فكان لنقصه في الوقوف في وجه هولاء أكبر الأثر في جعل سقوط بغداد أمرا محتوما ، وكان دائما يقول للمقربين اليه « إن بغداد تكفيني وهي مصونة بعناية الهية ومن قصدها بسوء أباده الله » . ومع ذلك نحمد له موقفه البطولي الشريف الذي وقفه بمفرده دون مساعدة من أحد .

ثانيا - موقف أهل السنة :

كان هؤلاء أصحاب الأمر والنهي في بغداد ، وكان المذهب السني هو المذهب الرسمي للخلافة العباسية . وكان أهل السنة يحيطون الخليفة برعايتهم ويعتبرون سقوط بغداد سقوطا لهم وضياعا لأنفسوهم ، لذلك نجدهم يفتنون أمام الغزاة من المغول في صمود وصلابة . وقبل سقوط المدينة بعام واحد (أي سنة ٦٥٥ هجرية) نشبت فتن طائفية بين السنة وبين الشيعة ، وهاجم السنيون محلات الشيعة وخاصة محلة الكرخ - وشاركهم في غارتهم تلك رجال الشرطة والحكومة ، وقاد الحملة وتزعّمها أبو بكر الابن الأكبر للخليفة المستنصر نفسه ومعه الدويدار الصغير ، فنهبوا محلة الكرخ ، وهتكوا النساء الشيعيات الأمر الذي أحفظ قلوب أهل الشيعة عليهم .

ثالثا - موقف أهل الشيعة :

كان موقف هؤلاء ازاء تلك الكارثة الرهيبة من أسوأ المواقف التي وقفتها إحدى الطوائف في أمة عبر التاريخ ، إذ لم يبرأ الشيعة أن العراق هو وطنهم الأم الذي يجب الدفاع عنه أمام زحف المغيرين وأن الهزيمة التي وقعت إنما هي هزيمة للاسلام والمسلمين جميعا . وحاول مؤرخو الشيعة الدفاع عن (م ٩ - تاريخ الدولة المملوكية)

ذلك الموقف السلبي لطائفتهم أثناء نشوب القتال بين الخلافة العباسية والمغول وأن يجدوا لهم عذرا ومخرجا ، فذكروا في كتبهم أنهم ثأروا لأنفسهم مما حل بهم من بلاء في الفتنة التي وقعت ببغداد عام ٦٥٥ هجرية على أيدي أهل السنة ورجال الشرطة . ان موقف الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الذي كان وزير الخليفة المستعصم ومن أكبر الشخصيات الشيعية البارزة كان يحوطه الشك والريبة في تصرفاته مع هولاكو والمغول . وقد اتهم كثير من المؤرخين المسلمين الوزير ابن العلقمي بالخيانة وحملوا عليه حملة ضارية ، وإن كان يؤخذ عليهم أنهم كانوا يدينون بإحدى فرق المذهب السني ، فقد ذكر كل من ابن شاکر الکتبی في كتابه « فوات الوفيات » وأبى الفداء في كتابه « المختصر في أخبار البشر » وابن خلدون في كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » والنسبوي في كتابه « تاريخ الخلفاء » والمقریزی في كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » والذهبي في كتابه « دول الاسلام » أن ابن العلقمي حث المغول على الاستيلاء على بغداد ، وكانت له رغبة في إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها ، وأنه مهد لانتصار المغول بأن أقنع الخليفة العباسي المستعصم بالله انقاص الجيش توفيراً للنفقات ، ثم دعا الى بذل المال المتوفر لديه من جراء ذلك في استمالة المغول .

رابعاً - موقف أهل الذمة :

كان النصارى واليهود من رعايا الدولة العباسية يتمتعون بالطمأنينة في أحيائهم ، وينعمون بالغنى والاحترام والحرية الدينية المطلقة في أداء شعائرهم الدينية ، وكان كل ذلك يتم في رعاية الخلفاء ، بل وكثير من أهل الذمة وصل الى أرقى المناصب بجده وتفوقه ونبوغه ، وحدث أن وقف لليهود ازا غزنوي المغول لبغداد موقفا مشرفا ، فحاربوا مع المسلمين حتى آخر لحظة وقاسوا معهم ويلات المذابح التي أعقبت سقوط بغداد . أما المسيحيون ، وكانوا يفتقون اليهود عددا فلم يفعلوا ذلك رغم أنهم كانوا أكثر تقربا الى الخلفاء ، واتصالا بالحياة العامة في بغداد ، بل سألوا المغول ، وتقربوا اليهم وتمكنوا من الحصول على عطف هولاكو بفضل تأثير زوجته المحبوبة « دوقوز خاتون » المسيحية . وأمر هولاكو البطريرك النسطوري بجمع المسيحيين في إحدى الكنائس حتى يتميزروا عن غيرهم ، فلا يتعرض لهم جند المغول عند دخولهم بغداد ، وخالوا بعض المسلمين اللجوء الى تلك الكنيسة ، وعرضوا

تقديم كل ثرواتهم مقابل الحفاظ على أرواحهم ، فلم يقبل البطريرك النسطوري ذلك وتركهم تحت رحمة سيوف المغول وهم يتوسلون اليه . وهكذا لم يدافع عن بغداد في محنتها وبلاقي من الغزاة العذاب والهوان الا أهل السنة واليهود .

نتائج سقوط بغداد :

تعد واقعة سقوط مدينة بغداد وانقراض الدولة العباسية من أكبر الوقائع التي حدثت في تاريخ البشرية حيث كانت لها أبعاد عدة على مستقبل الشعوب الاسلامية ودولهم وثقافتهم ولغاتهم ، وتبدو واضحة في النواحي التالية :

١ - **الناحية الروحية :** ويتجلى ذلك في شعور المسلمين بفداحة الواقعة التي حلت بشعوب العالم الاسلامي قاطبة الأمر الذي جعلهم يعتقدون أن الساعة قادمة لا ريب فيها ، واستوى في ذلك الاعتقاد العالم والجاهل . وأشار الى تلك النقطة التي سيطرت على أذهان العامة والخاصة بعض المؤرخين في محاولة منهم لتعليل الحوادث والكوارث الطبيعية التي سبقت سقوط بغداد بأنها اشارات ربانية على قرب نهاية العالم ، وأورد الذهبي (٣٣) والسيوطي (٣٤) بأنه ظهرت في ثالث جمادى الآخرة سنة ٦٥٤ هجرية في المدينة المنورة حيث قبر الرسول الأكرم ، صلى الله عليه وسلم ، نار عظيمة في إحدى الحرات (صخور بركانية) القريبة منها ، وسالت منها أودية ، وطار منها شرر هائل ، حتى شاهد ضوءها من كان بمكة أو في الفلاة . واجتمع الناس الى قبر النبي الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، من حولها مستغفرين تائبين . واستمرت تلك النار أكثر من شهر . أما المؤرخ ابن خلدون فقد وصف مجيء المغول واسقاطهم بغداد وقتلهم الخليفة العباسي بها بأنهم « طمسوا معالم الملة ، وكادت تكون من أشرار الساعة » (٣٥) .

وكان المسلمون يتطلعون الى الخلافة على أنها رمز للممالك الاسلامية

-
- (٣٣) الذهبي : دول الاسلام ، طبع الهند سنة ١٣٦٥ هـ ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .
- (٣٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٧ .
- (٣٥) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) ، طبع القاهرة ، ص ٣٦٤ .

جميعها ، يجب أن يظل قائما ، وكانوا ينظرون الى خليفة المسلمين نظرة
اجلال واحترام ، حيث كان نفوذه الديني بعيد الأثر في نفوس المسلمين جميعا .
ورغم أن الخلافة العباسية كانت قد فقدت منذ قرون جانبا كبيرا من
سلطانها الاداري والأدبي والروحي ومن قوتها المادية الا أنها كانت لا تزال
تدخر قدرا كبيرا من سلطانها الأدبي والروحي ، فلما سقطت بغداد وقتل
الخليفة ، قضى على ذلك النفوذ وزال ما كان لتلك العاصمة من مكانة
دينية متميزة .

لا شك في أن شعور المسلمين بسقوط بغداد ونظرتهم الى الواقعة كان
في حد ذاته مأساة يقر بها المتعلم والجاهل ، كما يقر المسلم في ذلك الوقت
بأنه هو السبب في الكارثة لعدم الوحدة والوقوف في وجه كل مصلح والسير
وراء كل طامع في السلطة ، فاعتبروا ذلك خسارة عظيمة لهم لفقدانهم المادية
التي عاصرت أمجادهم وعاش فيها فقهاؤهم وفنانوهم وأدباؤهم ففقدوا
تراثها الحضاري ومكانتها الدينية . وهذا ما عبر عنه في شعر الشعراء ونشر
الأدباء ، فمن الشعراء الذين رثوا بغداد الشيخ نقي الدين اسماعيل بن ابراهيم
ابن أبي اليسر التنوخي بقصيدة دامعة في ستة وستين بيتا ، مطلعها (٣٦) :

لسائل الدمع عن بغداد أخبار فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين الى الزوار لا تفسدوا فما بذلك الحمى والدار ديار
كذلك نظم الشاعر الفارسي سعدى الشيرازي قصيدتين ، احدهما
بالعربية والأخرى بالفارسية في رثاء المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين
وذكر واقعة سقوط بغداد ، يقول في مطلع قصيدته العربية (٣٧) :

حبست بجفنى المدامع لا تجرى فلما طغى الماء استطاع على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها تمنيت لو كانت تمر على قبرى
لأن هلاك النفس عند أولى النهى أحب له من عيش منقبض الصدر

(٣٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥١ .
(٣٧) كليات شيخ سعدى ، نشر مكتبة علمى بطهران ، ص ٤١٠ .

أما قصيدته الفارسية ، فيقول الشيخ سعدى فى مطلعها (٣٨) :
 آسمانرا حق بود گر خون بگرید بر زمین
 بر زوال ملك مستعصم أمير المؤمنين
 آى محمد گر قيامت مى بر آرى سر زخاك
 سر بر آور وين قيامت در ميان خلق بين
 وترجمة البيتين :

يحق للسماء أن تمطر الأرض دما على زوال الملك المستعصم أمير المؤمنين
 يا محمد ! اذا كنت ستطل برأسك من الثرى يوم القيامة
 فاطل بها الآن، وانظر هذه القيامة وسط الخلق

كذلك من الكتاب والأدباء الذين أثرت فيهم حادثة سقوط بغداد وأهاجت
 مشاعرهم الفنية ظهر الدين الكازرونى المتوفى سنة ٦٩٧ هجرية (١٢٩٨ م)
 مائشاً مقاومة وصف فيها ما كانت عليه دولة الخلافة العباسية ، وخاصة دار
 الخلافة ، وما كانت تحويه بغداد من دواوين للوزارة والحجاب والمخازن
 وحجرات نساء الخليفة ، وغيرها مظهرا عزا ومجدها المندثر (٣٩) .

٢ - الناحية السياسية : كانت بغداد قبل حملة المغول مركزا للنشاط
 السياسى لكافة أنحاء الشرق الاسلامى ، وكذلك كانت لا تزال رغم ضعفها
 لها سيطرة سياسية على العالم الاسلامى كافة ومؤثرة فى كافة المسائل
 السياسية الدولية . وكان اسمها ماثلا فى الأذهان بالنسبة لكافة المسلمين
 وحكام الدول الاسلامية . وأوضح ذلك الخليفة العباسى نفسه عندما أرسل
 رسله الى هولاءو كى يثنيه عن عزمه فتح مدينة بغداد باعتبارها مدينة خالدة ،
 وحتى يخيفه ذكر له أن جميع من تصدوا لها اندثروا وأصيبوا بلعنة من السماء .
 فلما سقطت بغداد فى أيدي المغول أصبحت مجرد مدينة تابعة لامبراطورية

(٣٨) كليات شيخ سعدى : مرجع سابق ، ص ٤٨٨ - ٤٨٩ .
 (٣٩) الكازرونى : مقامة فى قواعد بغداد فى الدولة العباسية ، نشر
 كوركيس عواد ومبخائيل عواد ، بغداد سنة ١٩٦٢ م .

المغول (٤٠) . وانتقل مركز بغداد السياسى والروحى الى القاهرة التى تصدرت للعالم الاسلامى وتزعمت المقاومة الاسلامية نتيجة احياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة ٦٥٨ هجرية بعد مرور سنتين على قتل آخر خليفة عباسى فى بغداد وتمكن سلاطين المماليك حكام مصر من هزيمة المغول . وان كانت الخلافة العباسية فى مصر لم تزد عن كونها روحا بغير جسد ، حيث وضع الخليفة العباسى فى قصر السلطان أشبه بالسجين يمنح البركات ان يطلبها ، ولا يأبه به احد لحين ارتقاء عرش السلطنة سلطان جديد ، وعند ذلك يخرج الخليفة من مكمنه كى يعطى تقليد السلطنة ويعود الى مكانه مرة أخرى ، وبذلك يكسب السلطان للجديد صفة الشرعية أمام الرعية وأمام الأمراء المتنافسين (٤١) .

كذلك انتقل النشاط السياسى المغولى الى مدن الشمال فى آذربيجان فى مراغة وتبريز وخوى . وأخذت تلك المدن تلعب دور العواصم ، يقول رينسمان : « أخذت بغداد تستعيد رويدا رويدا نظافتها ، وتعود الى سابق عهدها من النظام والترتيب ، على أنها لم تعد بعد أربعين سنة سوى مدينة اقليمية ولفترة الرخاء لا تتجاوز عشر حجمها السابق » (٤٢) .

٣ - **الناحية الاجتماعية :** كانت غالبية الشعب الأيرانى يتبعون مذهب أهل السنة والجماعة ، وكانت الحكومات التركية تحارب التشيع ، وتناصر الخليفة العباسى السنى . وبالقضاء على الخلافة العباسية افتشر التشيع فى المشرق الاسلامى نتيجة نفوذ رجال من الشيعة كانوا يتدبأون مراكز هامة عند المغول ، كنصير الدين الطوسى الذى كان مستشارا لهولاكو ومؤيد الدين بن العلقمى الذى أسند اليه حكم بغداد بعد سقوطها ، وكان قبل ذلك وزيرا بها عند آخر خليفة عباسى . والشيعة بصفة عامة عاونوا المغول

(٤٠) مصطفى طه بدر : مخنة الاسلام الكبرى ، القاهرة سنة ١٩٤٧م ، ص ١٨٢ .
(٤١) الذهبى : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ٦٤ .
(٤٢) رينسمان : تاريخ الحروب الصليبية (الترجمة العربية) ، ج ٣ ، ص ٥٢٢ .

وتقربوا الى هولاء ، فحظوا عندهم بالتقرب والمناصب سواء في عهد هولاء أو في عهد ايلخانات فارس . وفي عهد السلطان محمود غازان خان ازداد نفوذ الشيعة وقرب اليه أهل البيت وقام بيناء توكايا عرفت باسم « دار السادة » خصصها لأحفاد الامام علي بن أبي طالب ، أما أخوه « أولجايتو محمد خدابنده » فانه اعتنق التشيع وحاول فرضه بالقوة على المغول وغيرهم ولم يقرب اليه احدا من رجال المذاهب الأخرى ، لذلك اشتهر بين العامة باسم « خربنده » (أي عبد للحمار) . وفي الوقت نفسه عاش أهل السنة وهم الغالبية العظمى من الشعب الايراني تحت الحكم المغولي أسوأ حياة ، وتحملوا من أساليب العنف والاضطهاد ما تنوء به الجبال .

أما المسيحيون الذين ساعدوا هولاء في فتح بغداد فانهم لا تقوا من ايلخانات فارس كثيرا من العسف والاضطهاد ، وفقدوا ما كان لهم من حقوق وإمتيازات التي كانت لهم أيام الخلافة العباسية وأيام هولاء . كما فقدوا الود والصدقة التي كانت قائمة بينهم وبين كافة طبقات الشعب الاسلامي ، وبلغ من سوء حالهم أن البطريرق النسطوري اضطر الى نقل مقره الديني من بغداد الى اربل لينتفادي ما كان ينزل به من اضطهاد وعسف . كما ان جميع مسيحي بغداد اضطروا أيام السلطان محمود غازان خان الى التزام منازلهم عندما قوى الشعور ضدهم ، حتى صارت ذسائهم يذهبن الى الحوانيت للبيع والشراء بدلا منهم لأنهم كن يلبسن ثياب المسلمين فلا يمكن تمييزهن .

٤ - **الناحية العلمية :** كانت بغداد مركزا هاما للعلوم والفنون والآداب ، يهرع اليها العلماء وطلاب العلم حيث كانت غنية بمدارسها ومكتباتها وبعلمائها وأدبائها وشعرائها وفلاسفتها وفنانيها ، وكان كل هؤلاء بمثابة أساتذة وموجهين وملهمين لرجال العلم والأدب في مختلف عواصم الشرق الاسلامي ، فما حلت النكبة ببغداد على أيدي المغول قتل آلاف من العلماء والأدباء والشعراء والفنانين ، وأحرقت المكتبات واتلفت الكتب وخربت المدارس والمعاهد العلمية وقضى على الآثار الاسلامية التي كانت تتميز بها بغداد .

ان النكبة التي حلت ببغداد أضاعت الكثير من التراث العربي الاسلامي

لا سيما وأن المغول عبثوا عمداً بالكتب لاقتفارهم إلى الحضارة والثقافة وعدم معرفتهم قيمة الكتاب أو قيمة ما في الكتاب من علم أو أدب أو غيره من الفنون ، وقيل أنهم بنوا بالكتب العربية الاصطبلات للخيول والمعالف (٤٣) . كما قيل أيضاً أنهم بنوا بها جسراً مع الطين والماء بدلاً من الآجر (٤٤) ، وذكر المؤرخون أيضاً أن المجاعة التي حلت ببغداد في ذلك الوقت دفعت كثيراً من الناس لبيع ما سلم من كتبهم . ونتج عن ذلك أن انتشرت كتب مكتبات بغداد في عدة مدن (٤٥) .

كذلك كان أهم أثر علمي نتج تلقائياً عن نكبة بغداد أن فقدت اللغة العربية المكانة الممتازة التي كانت تتمتع بها قبل الغزو المغولي في ميادين الثقافة والعلوم والآداب ، ومهدت الظروف الجديدة تحت ظل الحكم الجديد تفوق اللغة الفارسية على اللغة العربية في الاقاليم الفارسية . يقول المستشرق الانجليزى إدوارد براون في هذا المعنى : « ان تحطيم بغداد كعاصمة للمسلمين وانزالها الى مرتبة المدن الاقليمية ، قد أصاب رباط الوحدة بين الأمم والشعوب الاسلامية بلطمة شديدة ، كما أصاب مكانة اللغة العربية في ايران بضربة قاصمة ، فاقترص استعمالها بعد ذلك على العلوم الفقهية والفلسفية ، فاذا وصلنا الى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) لم نعد نصادف الا القليل النادر من الكتب العربية التي تم تأليفها في ايران » (٤٦) .

(٤٣) كتاب مختصر أخبار الخلفاء - مجهول المؤلف وينسب خطأ لابن الساعى ، بولاق ١٣٠٩ هـ صفحة ١٢٧ .

(٤٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥١ .

(٤٥) الحوادث الجامعة - مجهول المؤلف ، حوادث سنة ٦٥٦ هـ . (١٢٥٨ م) .

(٤٦) إدوارد براون : تاريخ الأدب في ايران - من الفردوسى الى السعدى ، ترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربى ، القاهرة سنة ١٩٥٤م ، ص ٥٦٤ .

الفصل السادس

حملة هولاكو على الشام

وما أن تم لهولاكو فتح بغداد وتحطيم الخلافة العباسية حتى رنا بصره صوب الغرب حيث بلاد الشام ومصر ، وكان أول شىء أقدم عليه أن كلف أحد قواده ويدعى « أرقيو نوبان » بالسير الى اربل ، وكان يعيش بها آنئذ خليط من الناس ما بين عرب وإيرانيين ، وكان العنصر الكردي هو السائد . وتمكن أرقيو بوقا من فتح مدينة اربل وبذلك أصبح المغول يشرفون على حدود الشام .

حالة البلاد الشامية قبيل الغزو المغولى :

كانت بلاد الشام في ذلك الوقت في يد ثلاث سلطات متنازعة بل وفي خصومة شديدة تتمثل في سلطة الأروبيين والصلبيين وسلطة الأرمن المسيحيين وسلطة الحكام المسلمين الذين كانوا يتمثلون في البيت الأيوبي . وكان هؤلاء الأيوبيون يحكمون مدن ميفارقين وماردين وحصن كيفا والكرك ودمشق وحماة وحمص . ومن المؤسف حقا أن هؤلاء الأمراء وهم من أسرة واحدة وينتسبون الى البطل صلاح الدين الأيوبي كانوا في نزاع دائم وخلافات مستمرة وتطاحن على السلطة والسلطان . ورغم الخطر الذى بدأ يلوح في الأفق وظهر مدمرا مخيفا ، إلا أن أمراء البيت الأيوبي لم يقصدوا الموقف ودايمهم هولاكو وهم على خلافاتهم فاصطادهم الواحد تلو الآخر وتقضى عليهم جميعا . أما مصر فكانت تحت سيطرة أمراء المماليك البحرية وهم الذين حلوا محل الدولة الأيوبية وبين الفريقين نزاع وخصام . ورأى سلاطين مصر ومماليكها وهم من الجركس وأنراك القبقاق أن يضعفوا شوكة المغول ويقفوا في وجههم انتقاما منهم لما حل بالاسلام من خطوب ومحن على أيديهم وحفاظا على سلطتهم في مصر .

الحرب بين الأيوبيين والمغول :

كان الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق (٦٤٠-٦٥٩هـ) أكثر الأمراء الأيوبيين قدرة واقتدارا ، لكنه أعلن خضوعه لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة ، وأرسل ابنه العزيز - وكان صغيرا - الى هولاكو يحمل اليه الهدايا والتحف ويقدم صك العبودية ، وطلب الناصر يوسف الأيوبي من ابنه أن ينقل الى الخان المغولي على لسان أبيه امداده بنجدة تساعد في الاستيلاء على مصر وتخليصها من المماليك الذين انتزعوها من بيته (١) .

لكن هولاكو رأى أن الوغد الذي أرسله الملك الناصر يوسف الأيوبي اليه لا يناسب مقامه ، فأرسل اليه رسالة يأمره فيها بضرورة المجئ اليه وتقديم الخضوع والتبعية دون قيد أو شرط (٢) ، وقال له فيها : « اذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأملاك وفرسانك الى طاعة سلطان الأرض تأمن شره وتنتل خيره ، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحریمهم الى « كروان كسرى » (أي مصر بلغة المغول) فان كانوا في الجبال نسفناها ، وإن كانوا في الأرض خسفناها » (٣) . وانزعج السلطان الناصر يوسف وأن كانوا في الأرض خسفناها » (٣) . وانزعج السلطان الناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق انزعاجا شديدا واضطربت أحواله وفقد رباطة جأشه مع اشتهاره بالشجاعة والاقდالم وأيقن أنه هالك لا محالة ، فبعث بأسرته وأمواله الى مصر وحاول في غمرة يأسه الوقوف في وجه المغول .

وفي شهر رمضان سنة ٦٥٧ هجرية (١٢٥٩م) توجه هولاكو مع حلفائه من أمراء جورجيا وأرمينيا من عاصمة ملكه « مراغة » في آذربيجان قاصدا سورية ومعه جيش يزيد عدده على مائة وخمسين ألف جندي ، واستولى جيش مغولي على مدينة ميافارقين عاصمة دياربكر وكانت تحت سيطرة « الملك الكامل محمد الأيوبي » الذي أظهر هو وشعبه ضروبا من الشجاعة والفداء ، دنقطة النظر ، ولم تسقط المدينة الا بعد أن عم القحط وانتشرت الأوبئة . وقتل المزن حتى اضط الناس أن يأكل بعضهم بعضا وهلك أكثر السكان . ولما تأكد الملك الكامل محمد أن المقاومة أصبحت عديمة الجدوى وأنه لا فائدة

- (١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٤١١ .
 (٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٨ .
 (٣) القلقشندي : صبيح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٦٠ .

في الصومود استسلم للمغول فقتلوه شر قتلة . وفي شأن تلك الواقعة يقول محمد كرد علي ما يلي (٤) « واستولى القنار على ميفارقين (٦٥٨) بعد أن حاصروها سنتين حتى فنيت أزرادهم وفنى أهلها بالوباء والقتل فقتلوا صاحبها الكامل محمد بن المظفر بن العادل أبي بكر بن أيوب وحملوا رأسه على رمح وطافوا به في الأرجاء ، فمروا بحلب وحماة ودمشق بالمغانى والطبول وعلفوه في شبكة بسور باب الفراديس إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين » .

وما أن نتم للمغول فتح ميفارقين حتى تقدموا نحو ماردين . وكانت في قبضة الملك السعيد فوقف في وجه المغول أيضا ، وحاصر المغول المدينة ثمانية أشهر دون أن ينجحوا في اقتحامها . وأخيرا حاول أحد أبناء الملك السعيد أن يثني آياه عن عزمه ، ويحملة على التسليم للمغول ، فلما لم يفلح ، لم ير الاين بدا من قتل أبيه ، حقننا لدماء المسلمين ، فتخلص منه وسلم القلعة للمغول فكافأه هولاكو على إخلاصه ونصبه واليا على ماردين بدلا من أبيه .

وفي أثناء حصار كل من ميفارقين وماردين كان هولاكو يغزو الإمارات الإسلامية الواحدة بعد الأخرى في سورية ، فاستولى على نصيبين واستسلمت له حران والرها ، ثم تقدم على رأس جيش كبير يعاونه حلفاء الفرنج والأرمن لحصار حلب ، وكان واليها « الملك المعظم تورانشاه » ، وجريا على عادة المغول أرسل إليه هولاكو رسالة يطلب فيها أن يسلمه المدينة وأن يلقى سلاحه ويهدم أسوار القلعة وتحصنات المدينة ، ووعده بأنه سوف يؤمنه على حياته ويؤمن أتباعه . فلم يجبه توران شاه إلى طلبه وصمم على محاربته والوقوف في وجه المغول مهما كانت الظروف والفتائج .

وكانت مدينة حلب الجائسة أول مدينة شامية واجهت العاصفة المغولية ، باعتبارها مفتاح البلاد الشامية ، وكانت أخبار سقوط بغداد وما ارتكبه المغول فيها من فظائع قد أثارت موجة من الرعب والفرع ، واتحد شعب المدينة مع حاكمهم الأيوبي وتحصنوا خلف أسوارها الننيعة ، ونشب قتال

(٤) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

شديد بين الطرفين ، وفشل المغول في اقتحام أسوار حلب أول الأمر على الرغم من فتكهم بجانب كبير من حاميتها ، واضطروا إلى رفع الحصار والرحيل عنها . ولم يلبث هولاء أن أعاد الكرة مرة أخرى وشدد الحصار على منافذ المدينة ، وأرسل إلى حاكمها الملك المعظم تورانشاه للمرة الثانية يدعو إلى تسليم القلعة ونزع سلاح جنوده ، لكن الأخير رفض انذار هولاء الذي قال فيه : « انكم تضعفون عن لقاء المغول ونحن تصعدنا الناصر والعسكر ، فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة ، ونوجه نحن إلى العسكر ، فان كانت الكسرة على الاسلام كانت البلاد لنا وتكونون قد حققتنما دما المسلمين ، وان كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين ، ان شئتم طردتموهما وان شئتم قتلتموهما » ، فلم يجب المعظم الى ذلك وقال : ليس لكم عندنا إلا السيف . فتعجب هولاء من هذا الجواب وتألم ، لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك « (٥) » .

وزحف المغول صوب مدينة حلب وأحكموا حصارها ، ويكمل الحافظ الذهبي ما فعله المغول بعد ذلك بقوله : « وحفر المغول خندقا عميقا قامة وعرض أربعة أذرع وبنو حائطاً بارتفاع خمسة أذرع ، ونصبوا عشرين منجنيقا ، وألحوا بالرماية وشرعوا في نقب السور . وفي تاسع صفر ركبوا الأسوار » (٦) . وبذلك اقتحم المغول أسوار مدينة حلب المنيعية واضطرت إلى التسليم ، واستباحها هولاء لجنوده سبعة أيام قتلوا خلالها خلقا كثيرا ، وسبوا للنساء والأطفال ، ونهبوا الدور والمتاجر ونشروا في أرجاء المدينة الخراب والدمار وقتل أن يغادر المغول المدينة تركوها شعلة من اللهب والدخان . يقول محمد كرد علي في شأن ما فعله المغول في حلب : « وأحاط القنتر بحلب وقتلوا مقتلة عظيمة حتى لم يسلم من أهلها إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين أخى مردكئى ودار البسازيار ودار علم الدين قيصر وخانداه زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بأيديهم . وقيل انه سلم بهذه الأماكن ما يزيد على خمسين ألف نفس . ونازل القنتر القلعة وحاصروها وبها المعظم ومن التجأ إليها من العسكر ، واستمر الحصار

(٥) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

(٦) الحافظ الذهبي : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ٢٤١ .

عليها ومضايقة القتر لها نحو شهر ثم سلمت بالأمان ، وأمر هولاكو أن يمضى كل من سلم الى داره وأن لا يعارض ، وجعل النائب بحدب عماد الدين القزويني « (٧) » وكان ابن العبري المؤرخ صاحب كتاب « تاريخ مختصر الدول » في ذلك الوقت يشغل منصب رئيس أساقفة حلب فسارع الى المغول وقدم طاعته وولاءه الى هولاكو خان . واستغل « هيثوم » ملك أرمينية وحليف المغول وشريكهم في فتح حلب الفرصة فأحرق الجامع الكبير انتقاما من المسلمين . كما قام هولاكو خان باعطاء حليفه ملك الأرمن جزءا من الأقاليم ، وأعاد اليه الأقاليم والقصور التي كان قد استولى عليها مسلمو حلب . كما رد هولاكو أيضا الى « بوهمند » ملك كيليكية الصليبي جميع الأراضي التي كان المسلمون قد اقتطعوها منه . وقبل أن يغادر هولاكو خان المنطقة حمل من الأسرى مائة ألف من النساء والشباب وأمر بقتل بقية السكان وتدمير مدينه حلب .

وجاء دور دمشق اثر حلب حيث قام حاكمها الملك الناصر يوسف بحشد كل ما استطاع جمعه من قوات عند « برزة » لصد المغول والوقوف في وجههم ، وانضم اليه كثير من المتطوعين من المدن الشامية وكذلك البدو الذين توافدوا على دمشق لساندها في محنتها حتى بلغ جيشه مائة ألف مقاتل . ولكن ما أن بلغ نبأ اقتراب المغول الى مسامح هؤلاء حتى انفضوا ، وغر كل واحد منهم لا يلوى على شىء بعد أن أيقنوا أنهم أعجز من أن يقفوا في وجه هذا السيل العرم ، وتركوا مواقعهم المخصصة لهم في ميدان القتال والحراسات ، وغروا صوب الجنوب . كذلك فعل الملك الناصر يوسف الأيوبي ، فقد انسحب من دمشق هو الآخر وفي صحبته أمير حماة وعدد ضخم من الحاشية والاتباع وما جمعه من أموال وممتلكات واتجه الى غزة بفلسطين ، وتركوا المدينة وشعبها لصيرها للتعس المحتوم .

وقرر سكان دمشق أن يستسلموا للمغول بعد فرار ملكهم وهروب المدافعين من حصونها وقرر وفد من أعيان المدينة التوجه الى معسكر المغول والاتصال بهولاكو ليطلبوا منه الأمان لأنفسهم ويعرضون تسليم مدينتهم .

وفي هذه الفترة التاريخية العصبية حدث اضطـر هولاكو خان الى مغادرة البلاد الشامية والعودة الى العاصمة المغولية عند سماعه خبر وفاة أخيه الاخاقان « منكو » وعهد بمهمة مواصلة فتوحاته في الشام ومصر ومطاردة الملك الناصر يوسف الأيوبي الى أحد قواده ويدعى « كيتوبوقا » ، وكان يعتبر من كبار قادة المغول العسكريين وهو الذى تمكن من احتلال دمشق ودخولها دخول الظافرين في سنة ٦٥٨ هجرية (أول مارس ١٢٦٠ م) دون مقاومة . وهكذا سقطت مدينة دمشق حاضرة الأمويين ودرة الشام صريعة تحت أقدام انغزاة المغول ، كما سقطت من قبل بغداد درة العراق وحاضرة الخلافة العباسية . أما قلعة المدينة ، فإنها امتنعت على المغول ، فحاصروها ونصبوا الجانيق التى قام بتشبيدها مهندسون صينيون ، وبدأ المغول يذوقون اندفاعين بوابل من نيرانهم وسهامهم وحجارتهم الى أن استسلمت لهم . وقتلوا من كان بها من أهالى وجنود على السواء . وما فعلوه بحلب كرروه في دمشق فنهبوا جميع دورها ومتاجرها وهدموا جميع جوامعها ، وأشعلوا فيها النيران فأنت عليها .

وأجمع المؤرخون المسلمون على أنه اثر فتح المغول مدينة دمشق انتظم المسيحيون في مواكب عامة اظهارا لفرحتهم بانكسار المسلمين ، وتأبيد مهم للمغول والترحيب بهم ، واعتبروا ذلك عنوانا للتسفى والانتقام من المسلمين . وكانوا ينشدون الأناشيد ويحملون الصليبان ، ويجبرون المسلمين على الوقوف لهم احتراما ، ومن امتنع من المسلمين كان يتعرض للسب والاهانة . وبلغ بهم القحذى مده ، فقد كانوا يذوقون ذواقيس الكنائس ويشربون الخمر جهارا في شهر رمضان ، وكانوا يرشونها على ثياب المسلمين وهم يسيرون في الطرقات ، كما صبوه على أبواب المساجد ، ولم يستثنوا من ذلك حتى الجامع الاموى . فضجر المسلمون من تلك الأفعال ، ورفعوا شكواهم الى قائد المغول « كيتوبوقا » ، فلم يحفل بهم ، بل زجرهم وأهانهم وضرب بعضهم ، وأخذته موجة من التقوى ، فجعل يزور الكنائس ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم (٨) .

(٨) انظر : الذهبى : دول الاسلام ج ٢ ص ١٢٥ ، المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٠ .

أما الملك الناصر يوسف فانه بعد أو وصله أنباء سقوط دمشق وتدميرها ، انفض رجاله من حوله ، وفر هائما على وجهه لا يلبى على شيء ، الى أن ألقى كيتو بوقا القبض عليه في جهات الأردن ، فأرسله الى هولاكو خان في تبريز بعد أن وعده باسناد حكومة الشام اليه عندما يستولى على مصر (٩) ، وفي تبريز قتله هولاكو خان بنفسه . يقول محمد كرد علي في كتابه « خطط الشام » تكلمة لما ذكرناه ما يلي : « وظل التتر ينتقلون في الشام حتى فتحوه الى غزة ، واستقرت شحائنهم فيه لأن الناصر صاحب دمشق لما بلغه أخذ حلب رجل من دمشق في عسكره الى الديار المصرية ، وفي صحبتته الخصور صاحب حماة ، فلما رأى كبراء حماة تخلي ملكهم عنهم توجهوا الى حلب ومعهم مفاتيح بلادهم وحملوها الى هولاكو وطلبوا منه الامان لاعل حماة وشحنة تكون عندهم ، فأمنهم هولاكو خان وأرسلهم الى حماة شحنة رجلا أعجميا اسمه خسرو شاه ، فقدم حماة وأمن الرعية . واستولى التتر (٦٥٨ هـ) على ميفارقين » (١٠) .

وعلى هذا النحو خضعت بلاد الشام للمغول بعد أن فتحوها بحد السيف وأرغموا أهلها على الخضوع لهم وهولاكو بعبدا عنها ، وبقي اتمام الخطوة التالية وهي فتح فلسطين ومصر . لقائده « كيتو بوقا » ومع عشرة آلاف جندي مغولي يعاونونه في ذلك حلفاء المغول من المسيحيين وعلى رأسهم « عيتوم » ملك أرمينية الذي كان يطعم في استرداد بيت المقدس من أيدي المسلمين .

هزيمة المغول على أيدي المماليك :

تقدر للمماليك حكام مصر قهر المغول في الصدام الرابع بين المغول والمسلمين وايقاف زحفهم مجددين خرافة الجيش المغولي القهار . وكان يحكم مصر في ذلك الوقت « الملك المظفر سيف الدين قطز » الذي أيقن بحاسته العسكرية منذ البداية أن اندفاع المغول غربا بعد أن احتلوا إيران والعراق

(٩) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، الترجمة العربية ، ص ٣٠٨ .
(١٠) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

سيكون هدفه مصر وميدانه أرضها ، فهي أقوى وأعنى أقاليم العالم الاسلامى قاطبة وأكثرها رخاء . وتمكن قطز بقوة شخصيته وصلابة عزيمته من جمع المهاليك حوله فقرروا اسناد الحكم اليه عام ٦٥٧ هجرية (١٢٥٩ م) حتى يواجه الخطر المغولى الذى بات يهددهم .

وكان هولاكو خان وهو فى بلاد الشام قبل عودته الى عاصمته بأذربيجان لرغبته فى الاشتراك فى انتخاب خلف لأخيه « منكوتان » الذى قضى نحبه سنة ٦٥٨ هجرية (١٢٥٧ م) ، قد أرسل خطابا الى السلطان قطز - جريا على عادته - مع أربعة من رسله كله تهديد ووعيد لحمله على الخضوع والتسليم ، قال فيها : « من ملك الملوك شرقا وغربا ، القائد الأعظم ، يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية أنا نحن جند الله فى أرضه ، سلطانا على من حل به غضبه ، فلکم بجميع البلاد معتبر ، وعن زمانا مزدرج ، ليس لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعدنا كالرمال ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم » (١١) .

جمع السلطان قطز الأمراء وكبار رجال الجيش والدولة واستشارهم فيما يجب عمله ، ولم يكن قادته فى أول الأمر يشاركونه منزلة المغول . ووقف قطز وجماعة من الأمراء وأعلنوا استعدادهم لمواجهة المغول والتضحية فى سبيل الاسلام . ومع أنه خاطب أولئك المتخاذلين يحثهم على التضحية الا أنهم كانوا بين نارين ، مواجهة المغول وهم قوة اشتهرت فى العالم بقسوتها وانتصاراتها أو فنائهم مؤثرين الاستسلام . وما أن رأى السلطان قطز ذبذبة بعض قادته اظهر امتعاضه منهم فى مؤتمر عقده لتلك الغاية بعد أن غادر القاعة صائحا بأعلى صوته « سأقاتل بمفردى » فاضطر القادة المهاليك ازاء ذلك المشاركة فى الحرب والوقوف فى وجه المغول وتصافوا فيما بينهم وأنهوا مشاكلهم وتوجهوا الى عدوهم بقلب واحد ، واستدعى قطز رسل هولاكو خان الأربعة واستقبلهم استقبالا جافا ، وأمر بالقبض عليهم وترك صبيبا كان برفقتهم واستبقاه فى خدمته ، وضرب عنق كل منهم أمام باب من أبواب

القاهرة ، ثم علق رؤوسهم الأربعة على باب زويلة . فكان الاجراء الذى أقدم عليه السلطان قطز بمثابة اعلان الحرب ، وكانت تلك الرؤوس أول ما علق على باب زويلة من رؤوس المغول (١٢) .

تحركت طلائع الجيوش المصرية نحو فلسطين في ٢٦ يوليو ١٢٦٠ م بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى (الملك الظاهر بيبرس فيما بعد) ليتجسس أخبار المغول ويستطلع تجمعاتهم ويمهد الطريق للقوات الرئيسية المصرية الزاحفة نحو فلسطين بالقضاء على أية مقاومة تصادفها وكان من ضمن ما قام به الأمير ركن الدين بيبرس أن هيا طريقا لعبور الجيوش المصرية عبر الاراضى الصليبية حيث رحب زعماء مملكة عكا ببيبرس وتعاطفوا معه وعرضوا تقديم المساعدة في الحرب التى سيخوضها الجيش المصرى ضد المغول لما لحقهم من أذى وخوفهم من مستقبل مجهول على يد المغول الذين نهبوا صور وبيروت ولم يفرقوا بين مسلمين ومسيحيين . ثم خرج السلطان قطز على رأس الجيش المصرى من قلعة الجبل لتتقدمه الطبول وتنفخ أمامه الابواق وتشيعه قلوب الشعب نحو الصالحية في طريقه الى فلسطين في مظاهرة وطنية سلمية اشترك فيها جميع أفراد القاهرة ومن وفدوا اليها وامتزج حب الوطن والتضحية في سبيله بالتعصب الدينى الاسلامى الذى نتج مما فعله المغول بالاسلام والمسلمين ، وذكر المؤرخون المسلمون الذين شاركوا في هذا العمل الوطنى أن العيون انهمرت بالدموع من الفرحه وأن القلوب خفقت تدعو الله سبحانه وتعالى بنصر جنده وتبديد شمل عدوه . وفي الناحية المقابلة كان كل فرد من أفراد القوات المصرية راكدا أو راجلا قد نسى نفسه في غمرة هذا اللهب الوطنى الدينى ولا هم له سوى التضحية والفداء .

وفي صباح يوم الجمعة ٢٨ رمضان سنة ٦٥٨ هجرية (٦ سبتمبر ١٢٦٠ م) بدأت المعركة بهجوم عنيف من فرسان المغول على صفوف المصريين في عين جالوت قرب الناصرة بين بيسان ونابلس وحمل قطز بنفسه على المغول

(١٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٤ ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(م) ١٠ - تاريخ الدولة المغولية

في تلك الموقعة ، وكاد أن يفقد فيها حياته غدرا ، إذ سدد إليه ذلك الصبي المغولي رفيق وفد هولاكو والذي استبقاه في خدمته سهما من الخلف ، فوقع السلطان قطز على الأرض . وأسعفه الفرسان وفتكوا بالصبي . وأنزل الجيش المملوكي المصري بالمغول هزيمة منكرة نتيجة الخطة المحكمة التي وضعها قطز بنفسه فشتت قواهم وبدد شملهم ووقع القائد المغولي « كيتوبوتا » (١٣) أسيرا واقتيد إلى السلطان قطز . وجرت محاورة قصيرة بين الطرفين ، قال قطز لكيتوبوتا : أترى كيف أصبحت مأسورا بعد أن كنت أسرا ؟ فأجاب كيتوبوتا : إن أمرت بقتلي فهي إرادة الله وليست إرادتك ، والويل لكم إن سمع هولاكو بقتلي يا سفاكي دماء أسياذكم .
 فأمر السلطان قطز بقطع رأسه فضربه الأمير المملوكي جمال الدين أقسوس الشمسي بسيفه . ويذكر الذهبي « أنه كان عظيما عند القتار معتمدا عليه لشجاعته ورأيه ، وكان هولاكو يتهنئ برأيه ويحترمه وكان شيخا مسنا كافرا يميل إلى النصراني » (١٤) .

وأعمل الجنود المصريون السيف في الرقاب ، وذبحوا كل مغولي كان على أرض المعركة في الفترة ما بين الصباح حتى الظهيرة . ووجد المغول أنفسهم للمرة الأولى قد جردوا من مقدرتهم على القتال حيث كانوا يفرضون على أعدائهم ميدان المعركة نفسها وطريقة القتال التي تحلو لهم فتكون لهم الغلبة والنصر . ومن أهم أسباب انكسارهم فقدهم القدرة على المناورة بالخييل كما هي عادتهم عندما ينازلون أعداء لهم . ولم يغنهم مهارتهم في ركوب الخيل والضرب بالقوس في إحراز النصر . وكسب المعركة . وقتل في معركة « عين جالوت » معظم قادة المغول وجزء كبير من مقاتليهم ونجت قلة قليلة تمكنت من الهروب حيث تفرقوا شراذم قليلة في كل اتجاه بحيث أنه ما أن جاء العصر حتى كانت أرض المعركة خالية تماما من المغول ، واستولى المماليك على غنائم هائلة لا تعد ولا تحصى .

ولم يكتف السلطان قطز بما أحرزه من نصر ، فأمر فرقة من الفرسان

(١٣) ، تكتبه المصادر العربية ولا سيما المصرية منها « كتبغا » .
 (١٤) الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ .

بمتابعة المغول الفارين وإلجأهم عليهم قادها الأمير بيبرس البندقدارى فأتى عليهم ، ومن استطاع النجاة من حراب المصريين وسيوفهم ، لم ينج من أهل البلاد الشامية المتورين ، واستمر الأمير بيبرس يتتبع نلول المغول ويجهز عليها حتى تطهرت منهم كل أراضى الشام وفلسطين .

وعندما وصلت أنباء هذا النصر الى دمشق ثار أهلها على جيش الاحتلال المغولى وفتكوا بالمغول المقيمين بالمدينة ، وكذلك اليهود والنصارى الذين انضموا الى الغزاة ضد المسلمين ، فاعملوا فيهم السيف ومزقوهم شر مزق . ويذكر محمد كرد على ما قاله الذهبي في هذه الواقعة وهى متممة لحديثنا ، يقول الذهبي : « ان نصارى دمشق شتمت أثناء مجئ هولاء الى البلاد ، ورفعوا الصليب فى البلد وألزموا الناس بالقيام له ونقضوا العهد ، وصاحوا ظهر الدين الصحيح ، دين المسيح ، فلما انتصر المسلمون على هولاء فى عين جالوت بين بيسان ونابلس وقتل مقدمهم كتبغا جاء الخبر الى دمشق ، فوقع النهب والقتل فى النصارى وأحرقت كنائسهم العظمى . وقال أبو الفداء : ان النصارى استطالوا بدمشق على المسلمين بدق النواقيص وادخال الخمر الى الجامع . قال فى الذيل : ان النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة التتر وتردد كبار المغول وقادتهم الى كنائسهم ، وذهب بعضهم الى هولاء وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء منهم وتوجه فى حقهم ، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتقاء دينهم دون دين الاسلام ، ويرشون الخمر على الناس بأبواب المساجد ، فركب (المسلمون) من ذلك هم عظيم ، فلما هرب التتر من دمشق أصبح الناس الى دور النصارى ينهاونها ويخربون ما استطاعوا فيها وخربوا كنيسة اليعاقبة واخربوا كنيسة مريم حتى بقيت كوما ، والحيطان حولها تمبل النار فى أخشابها ، وقتل منهم جماعة واختفى الباقون وجرى عليهم أمر عظيم اشتكى به بعض الاشتقاء صحرور المسلمين ، ثم هموا بنهب اليهود فنهب قليل منهم ، ثم كفوا عنهم لأنهم لم يصدر منهم ما صدر من النصارى » (١٥) .

أما السلطان قطز فقد غدا عقب معركة عين جالوت سيد الموقف في بلاد الشام حيث لم تستطع بقايا البيت الأيوبي في بلاد الشام مقاومته أو الوقوف في وجهه ، فدخل دمشق دخول الظافرين وقال أبو شامة : ومن العجائب أن التتر كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك وقيل في ذلك :

غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه بالشام أهلكهم وبدد شملهم ولكل شيء آفة من جنسه (١٦)

وبعد أن أطمأن السلطان قطز إلى تطهير بلاد الشام من بقايا المغول ، أعاد أمراء بلاد الشام من أيوبين وغير أيوبين إلى مناصبهم بشرط اعترافيهم له بالتبعية . وبذلك استطاع أن يمد سيادة الدولة المملوكية على جميع بلاد الشام وفلسطين ما عدا إمارة الكرك الصليبية . أما في مصر فقد حملت إلى القاهرة رأس « كيتوبوقا » قائد المغول ، وطوف بها في أهم شوارعها وندافع الناس إلى المساجد يشكرون الله على انتصار جيشهم ودحر أعدائهم . إن معركة عين جالوت تعتبر من المعارك الحاسمة بالنسبة لمصر ، إذ أنقذت البلاد المصرية من خطر الدمار ، ولم يجرؤ المغول بعد ذلك على التقدم نحو مصر . ومن ناحية أخرى عملت على رفع المعنويات الإسلامية وددت خرافة الجيش المغولي القهار .

أما هولاكو خان فإنه لم يستطع أن يتقدم نحو الغرب لانشغاله في حرب مع منافسيه من نفس البيت الچنكيزي ، وكان على رأسهم «بركه خان» ابن جوجي وخان القبيلة الذهبية « آلتون أوردو » الذي شعر بالخطر يهدده من جانب هولاكو خان بعد أن ثبت كفاءة ومقدرة في قيادة الجيوش المغولية أنتى قدمت من منغوليا وفتحت قلاع الاسماعيلية وحطمت الخلافة العباسية . وأراد بركه خان أن يستخلص لنفسه البلاد التي فتحها هولاكو خان ويوسع مملكة « آلتون أوردو » ، فاستمرت الحرب بينهما فترة طويلة انتصر فيها هولاكو .

(١٦) شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الشهير بابي شامة : نيل الروضتين ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ ، طبع القاهرة سنة ١٣٦٦ م ١٩٤٧ م ، ص ١٨٠ .

وراسل هولاكو خان الخاقان «قوبيلاي قا آن» وأخبره بما حل بالمغول من هزيمة على يد سلطان مصر ، ويستفاد من الرسالة التي أرسلها هولاكو لـخاقان أن المغول أصيبوا بصدمة قوية حلت بهم لعظم خسائرم في الرجال والعتاد ، وأبلغه أنه مصمم على الثأر والانتقام ومهاجمة الممالك والقضاء عليهم ، فما كان من «قوبيلاي قا آن» إلا أن أصدر مرسوما يقضى بأن يتولى هولاكو خان وذريته البلاد الواقعة بين شط نهر جيحون حتى بلاد الشام ومصر . وقام هولاكو خان بعقد صدور الرسوم (يزلخ) بتقسيم مملكته على النحو التالي :

- ١ - العراق وخراسان ومازندران إلى ابنه الأكبر «أباقا خان» .
 - ٢ - أران وأذربيجان إلى ابنه «يشموت» .
 - ٣ - بلاد الروم (آسيا الصغرى) إلى معين الدين سليمان پروانه .
- الذي كان وزيرا لسلاجقة الروم ودخل في طاعة المغول .

وبدا هولاكو خان يستعد لحرب الممالك المصريين لكن الموت عاجله سنة ٦٦٣ هجرية (١٢٧٥م) حيث توفي في ١٩ ربيع الآخر سنة ٦٦٣ هجرية وله من العمر ٤٨ سنة بعد أن حكم ايران وغرب آسيا مدة ١٢ سنة . ويذكر الحافظ الذهبي وصفا لهولاكو يقول فيه : « طوى الممالك وأخذ حصون الاسماعيلية وأذربيجان والروم والعراق والجزيرة والشام . وكان ذا سطوة ومهابة وعقل وغور وحزم ودعاء ، وخبرة بالحروب وشجاعة ظاهرة وكرم مفرط ومحبة لعلوم الأوائل من غير أن يفهمها . مات على كفره في هذه السنة (٦٦٤) بعلبة الصرع ، فانه اعتراه منذ قتل الشهيد صاحب ميافارقين الملك محمد بن غازي ، حتى كان يصرع في اليوم مرة ومرتين . وقيل مات في ربيع الآخر من العام الماضي بمرآغه ، ونقلوه الى قلعة تال وبنو عليه قبة . وخلف سبعة عشر ابنا . تملك عليهم ابنه أبغا . وكان اللان قد استناب هولاوو لا رحمة له ، على خراسان وأذربيجان وما يفتحه » (١) .

والى جانب اللفظائح التي ارتكبتها هولاكو كقائد مغولى في حق الاسلام والمسلمين ، وأصبح في نظرهم وفي صفحة التاريخ الاسلامى شخصية منفرة

تربيته ، الا انه كان يميل الى البناء والعمران وترك آثارا عديدة في مدينة
 مزائه . وكان هولاء يميل الى العلوم وتعلمها ، وله عشق زائد بالحكمة
 والنجوم وعلاقة بالكيمياء . وكان بوذى المذهب وان مال الى المسيحية نتيجة
 علاقته بزوجه « دوقوز خاتون المسيحية » وكان من مستشاريه أرمني يدعى
 « وارطان » فازداد في عهده نفوذ الارمن والمسيحيين حتى انهم بدلوا المساجد
 الى كنائس وتناولوا على المسلمين أيما تناول .

الباب الثالث

الفصل السابع

ت
ايلخانة فارس من عهد اباقا حتى بايدو (العصر الوثني)

اباqa خان (٦٦٣ - ٦٨٠ هـ = ١٢٦٥ - ١٢٨٢ م) :

تولى اباقا خان العرش الايلخاني بعد وفاة والده هولاكو خان سنة ٦٦٣ هجرية ، وكانت الدولة المغولية في ايران والتي اُرسى قواعدها والده هولاكو تشمل جميع الاراضى الممتدة بين نهر جيحون الى المحيط الهندي ومن السند الى الفرات مع جزء كبير من الاناضول وبعض اقالييم القفقاز . وقد اجتمع ممثلو الاسرة الجنكيزية المتواجدون في غرب آسيا وشكلوا قوريلتاييا مصغرا اشبه بذلك الذى يشكل في منغوليا والصين وانتخبوا اباقا ايلخانا على ايران وثوابعها . وقد اسهمت والدته « دوقوز خاتون » ارسلة هولاكو المسيحية في انتخابه بالتعاون مع مستشارها الارمنى « وارطان » ، وتم ذلك في الثالث من رمضان سنة ٦٦٣ هجرية . وبعد خمس سنوات اُيد اختياره « قوبيلاي قا آن » الخان الاعظم للمغول في خانبالق (بيكين) .

ولد اباقا خان في منغوليا في شهر مارس سنة ١٢٣٤ م ، ووفد على ايران عام ١٢٥٦ م مع ابيه هولاكو ، واشترك في معظم الحروب التي تمت في عهد ابيه . ونلاحظ منذ تولية اباقا خان أن نفوذ المغول الأصليين في قراقورم وبيكين كان ينمحي بالتدريج حيث أن خلفاء هولاكو كانوا يسرون على سنن سلاطين ايران المحليين منذ استقرارهم في ايران ، كما انبعوا رسومهم وتقاليدهم بجوار السنن المغولية والياسا الجنكيزية حتى يمكن وضعهم في عداد طبقة من سلاطين ايران .

وكان حكام ايران من المغول يحملون لقب « ايلخان » للدلالة على أنهم كانوا يتبعون الخاقان في بيكين ، ولذلك ظل هذا الاسم قائما حتى وفاة

قويلاى سنة ١٢٩٤م . وقد حلت تلك الرابطة الوثيقة الصلة بدخول حكام إيران المغول فى الاسلام نهائيا سنة ١٢٩٥ م . ومنذ ذلك الوقت اختفى اسم الخاقان من السكة الايرانية وحل لقب « الخان » محل لقب « ايلخان » . ومع ذلك فقد جرت عادة المؤرخين على أن يطلقوا على حكام المغول فى ايران حتى نهاية دولتهم فى سنة ٧٥٦ هجرية (١٣٥٥ م) اسم « العصر الايلخانى » .

وكان أباقا بوذيا فساعد ذلك على انتشار الديانة البوذية بين مغول إيران ، ونشط الرهبان البوذيون فى التبشير ، وهم المعروفون باسم « البخشوية » (بخشيلر) . وفى الوقت نفسه اظهرت الدولة الايلخانية ايثارها للمسيحيين ، وخاصة النساطرة الذين كانت تنتمى اليهم زوجة عولاكو الاثيرة « دوقوز خاتون » وأم أباقا . وان كانت قد توفيت فى نفس العام الذى توفى فيه زوجها هولكو (أى سنة ١٢٦٥ م) . كذلك ناصب الايلخانيون فى عهد أباقا خان المسلمين العداء ، خاصة أهل السنة والجماعة الذين كان العباسيون والمماليك منهم . وفى مقابل ذلك نجد المغول يتسامحون مع الشيعة . وكان لهذا التسامح آثار واضحة تظهر لنا فى مركز الشيعة الاجتماعى ونشاطهم فى نشر المذهب الشيعى والسماح لهم بالاشتراك فى حكم الدولة .

وما أن خلف أباقا والده على العرش الايلخانى حتى بادر الى العمل على اعادة سمعة المغول الحربية الى سابق عهدها ، ومن ثم سار على سياسة أبية فى مناوأة المماليك ومصادقة الصليبيين والمسيحيين عامة ، وقام بتنظيم شؤون الدولة داخليا فولى قائده الأمير « سونجاك » حكم فارس وبسلاد الجزيرة ، وهذا بدوره فوض حكومة العراق الى علاء الدين عطا ملك بن محمد الجوينى فى نفس المنصب الذى كان ينولاه على بغداد منذ عام ٦٦١ هجرية . كما رأس أخوه شمس الدين محمد بن محمد الجوينى الادارة فى فارس ، وكان يطلق عليه « صاحب الديوان » (أى وزير المالية) . واتخذ أباقا من تبريز عاصمة لدولته ، واحتلت فى عهده مكانة ممتازة ساعدها على ذلك أنها لم تصب بأضرار جسيمة ابان العهد المغولى الأول . وان كان يرجع السبب

الرئيسي في ازدهارها الى الاخوين شمس الدين محمد الجويني وعلاء الدين
تطبا ملك .

وكانت علاقة أباقا خان بالمسيحيين حسنة للغاية خصوصا وأنه سار
على سياسة والدته «دوقوز خاتون» التي كانت تمنح الامتيازات للمسيحيين .
ومع أنه كان بوذيا الا ان المسيحيين أصبحوا في عهده اصحاب قدرة وسطة
كبيرة . كذلك تزوج أباقا بمریم ابنة امبراطور القسطنطينية والمعروفة في
التاريخ باسم «ديسبينا خاتون» . وكان والدها ميخائيل بالبولوجوس
قد زوجها لهولاكو فقدمت ايران على هذا الاساس ، الا أن هولاكو كان قد
توفي قبل وصولها الى تبريز فتزوجها ابنه أباقا ، ولما كانت مريم مسيحية
نانها اشترطت على زوجها أباقا أن يتنصر فوافقها على ذلك لكنه استمر
على وثنيته ، ونشج عن هذه الزيجة أن ازداد نفوذ المسيحيين بصفة عامة
والأرمنية منهم بصفة خاصة وسعى أولئك وهؤلاء الى الإيقاع بالمسلمين
والعمل على القضاء عليهم .

وكانت سياسة أباقا التي انتهجها حيال المسيحيين قد مكنت الدولة
من الدخول في علاقات دبلوماسية مع الغرب المسيحي ، تلك العلاقات التي
بدأت بالفعل منذ عهد هولاكو ، لكنها أصبحت مشهودة ورأسخة في عهد
أباقا ، فأدى ذلك الى قيام علاقات أوثق مع المقر البابوي في عهد البابا كليمنت
الرابع Clement IV وجريجورى العاشر Gregory X وفيغولا الثالث ،
كذلك مع فرنسا في عهد لويس التاسع (القديس لويس) ، وكان أباقا يأمل
من توطيد علاقاته بالغرب المسيحي تنظيم حملة مشتركة ضد المماليك في
مصر وسورية . وان كانت الآمال التي كان يرمى أباقا الى تحقيقها من وراء
تحالفه مع المسيحيين لم تتحقق حيث كانت الروح الدينية والعنوية عند
الصليبيين قد ضعفت ، ومن ناحية أخرى ضعفت سلطة البابوات حتى
أصبحوا أتباعا للأباطرة والملوك .

وفي سنة ٦٧٣ هجرية (١٢٧٤ م) أوفد أباقا خان وفدا مغوليا اشترك
في المؤتمر الديني المسيحي الذي عقد في مدينة ليون بفرنسا ، وهو المؤتمر
الذي أمر بتشكيله ، ورأسه البابا جريجورى العاشر . وكان أباقا يأمل من

وراء اشتراكه في ذلك المؤتمر الكفسي الكبير أن يصل الى اتفاق مع الدول المسيحية للاشتراك في اتحاد ضد المسلمين ، لكن هذا الحلف لم يؤد الى نتائج حاسمة لعدم اطمئنان الأوروبيين من حليفهم الجديد لما اشتهر عن المغول من وحشية وتطرف وغدر . وهناك مكاتبات متبادلة في هذا الشأن ايضا مع كل من البابا جان الحادى والعشرين ونقولا الثالث ولكنها لم تصل الى حل نهائى نتيجة السمعة الرهيبة والخوف من خيانة المغول المحتملة وانفضاضهم من الحلف اذا ما وجدوه في غير صالحهم . وقد نتج عن اتصال أباقا بالمسيحيين وإيثاره اياهم أن نفسر المسلمون في كل من ايران والعراق من أباقا خان . واخذوا ينظرون الى تصرفاته العدائية حيالهم بالهم وحسرة وهم لا يستطيعون مقاومتها أو إيقافها .

وكانت هناك أحداث هامة وقعت في عهد أباقا خان لها تأثير كبير على سياسة الدولة الايلخانية الخارجية والداخلية تتمثل في الحروب التى نشبت بين مغول ايران الايلخانيين ومغول التتار بقيادة « بركة خان بن جوجى » من ناحية ، ومغول التركمستان بقيادة « براق خان » من ناحية أخرى . وفي الحرب الاولى التى شنها أباقا خان على خان القديلة الذهبية « بركة خان » تمكن من هزيمة أعدائه وقتل منهم عددا كبيرا ، وكان سبب الحرب بسين الفكتين المغوليتين أن تمكن « نوقاي » قائد بركة خان من هزيمة يشموت ابن هولاكو حاكم اران وأذربيجان فانتهز أباقا خان الفرصة التى واقتته بموت « بركة خان » في سنة ٦٦٤ هجرية فهاجم على أعدائه في الشرق وهزمهم .

أما المعركة الثانية فكانت في الرابع عشر من شهر ذى الحجة عام ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) عندما نجحت جيوش أباقا خان نجاحا باهرا من إيقاع الهزيمة بجيش جغتائى كان يقوده براق خان بالقرب من مدينة هرات وعلى بعد ثلاثين كيلو متر منها . وكان أباقا خان يريد من وراء حملته تلك القضاء على الهجمات التى يشنها أبناء عمومته المغول على أراضي مملكته ، فانتهز فرصة نشوب القتال في بلاد ما وراء النهر وتوجه الى بخارى في شهر يناير عام ١٢٧٣ م وخربها تماما بحجة أنها الملجأ والقاعدة الحربية للجيوش المغيرة . ولا شك أن الخلاف الذى قام بين أفراد البيت المغولى قد ساعد على

شعب وتشتيت قواهم ولم يتمكنوا من الايقاع بالممالك حكام مصر والشام .

كذلك كان من اعم الأحداث التي وقعت في عهد أباخان حربه مع الممالك في بلاد الشام ، وإذا كان أباخان قد نجح في ايقاع الهزيمة بأعدائه من أمراء المغول القيقاق والتركستان إلا أنه لم يتمكن من الانتصار على أعدائه الممالك حكام مصر حيث كانت كفة الممالك راجحه على المغول والصليبيين في آن واحد .

حروب الممالك والمغول في بلاد الشام :

وقعت حروب ثلاثة بين المغول والممالك انتصر فيها الممالك انتصارا باهرا ، وغاروا لها وقع للمسلمين من قتل وتشريد واذلال في التركستان وإيران وخوارزم والسند والعراق ، غاؤقوا بذلك المغول عند حدهم ، واقتنوا للعالم تجمع تفوقهم الحربي ، وأرهبوا الصليبيين وأجبروهم على الانصراف عن حربهم فلم يفكروا في شن حروب جديدة أو الاشتراك في معارك خاسرة ، وانصرفوا كلية عن حرب الممالك . وتوفى الملك المظفر سيف الدين قطز في عام ٦٥٨ هجرية ، وهى السنة التي انتصر فيها على المغول وقضى على توتهم في معركة عين جالوت ، وخلفه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الذى وضع سياسته الحربية بحيث يمكنها الوقوف في وجه المغول وأعاونهم ، وجيز جيشا قويا ذا استعداد سليم وقدرة قتالية فائقة ووضع خطته بحيث تكون الغلبة للجيش المصرى باستمرار . وكان أول شيء فعله أن أراد معاقبة مملكة أرمينيا الصغرى وإمارة انطاكية / طرابلس لتحالفهما مع المغول ضد المسلمين ، فأرسل فرقة من جيشه بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون استولت على القليعات وحلباء وعرقه ، وهى المراكز الثلاثة التى كانت تكون شبه مثلث تحمى طرابلس من جهة الشمال والشمال الغربى ، فجاء الاستيلاء على تلك المدن مهددا لطرابلس ذاتها . وانتهاز الممالك فرصة انشغال أباخان بالحرب ضد مغول القيقاق المسلمين من جهة ، ومغول التركستان الچغتائيين من جهة أخرى ، فانفردوا بملك أرمينية الصغرى « هيثوم الأول » حليف المغول ومستشار هولاكو والمغول ومحرضهم الاكيز على قتال المسلمين . وكان هيثوم الأول قد اتبع سياسة جديدة في حرب الممالك في مصر حيث فرض خصارا عليهم ، ومنع تصدير الأخشاب والحديد من آسيا الصغرى الى

مصر • وزحف الجيش المملوكى فى صيف عام ١٢٦٦ م تحت قيادة الأمير قلاوون (السلطان قلاوون فيما بعد) والملك المنصور الثانى الأيوبى صاحب حماة لمهاجمة دولة أرمنية الصغرى • واستطاع الحلف الإسلامى ان يوقع الهزيمة بالأمرن وحلفائهم الصليبيين والمغول فى ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦ م عند « دير بساك » قرب أنطاكية ، وقتل فى المعركة أحد أبناء الملك هيثوم الأول وأسر ابن ثان له فى حين كان هيثوم نفسه متغيبا عن بلاده فى تبريز يستجدى مساعدة المغول (١) •

ولم يلدت الأمير قلاوون أن أغار على المدن الأرمنية الرئيسية الثلاث فى قيليقية وهى المصيصة وأذنة وطرشوس ، فضلا عن ميناء إيباس • أما الملك المنصور الثانى الأيوبى فقد اتجه الى سبيس عاصمة دولة أرمنية الصغرى واستولى عليها وجعل عاليها سافلها ، ثم أشعل النار فيها فدمرتها رائت على كنيسيتها ومقابر ملوك أرمنية السابقين (٢) • وبعد أن قضى جيوش الحلف الإسلامى المشكل من المماليك أساسا وحلفائهم من أمراء البيت الأيوبى بالشام المتابعين لهم فى أرمنية عشرين يوما ، عادوا الى بلاد الشام ومعهم أربعون ألف أسير ، ومن الغنائم مالا يعد ولا يحصى « حتى ببح رأس البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه » (٣) •

وأخيرا عاد هيثوم الأول الى مملكته ومعه بعض المغول ، ولكن بعد أن وقعت الواقعة ودمرت دولته ونشبت شغبه ، وانتهت العملية العسكرية الانتقامية التى قام بها المماليك وحلفاؤهم فحاول هيثوم الأول ان يسترد ابنه الأسير من الأمير قلاوون لكنه لم يتمكن من ذلك الا بعد أن تدخل المماليك عن عدة مراكز استراتيجية هامة تتحكم فى طريق المواصلات بين أرمنية والجزيرة حيث يقيم المغول حلفاء هيثوم الأول •

أما الحرب الثانية التى شنها المماليك على المغول ، فكانت بسبب

- (١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٠ ، وأيضا
ابو الفداء : المختصر حوادث سنة ٦٦٤ هجرية •
(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ١٥٢ •
(٣) المتريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥٢ •

د محاولة المغول تكوين حلف صليبي مشترك للوقوف في وجه المماليك أو إقضاء عليهم ان أمكن . ذلك أن أباخان قام بإرسال مجموعة من الرسائل إلى بابا روما وإلى إدوارد الأول ملك إنجلترا في أواخر عام ١٢٧٣ م ، وكان الأخير قد قدم إلى بلاد الشام على رأس حملة صليبية صغيرة عام ١٢٧١ م وعاد إلى بلده بخفي حنين دون الوصول إلى شيء يذكر ، وكان إدوارد الأول من أشد المتحمسين لسياسة التحالف مع المغول والاستعانة بهم في القضاء على قوة المماليك في مصر والشام . وعندما عقد مجمع ليون الكنسي في المدة ما بين شهري مايو ويوليو عام ١٢٧٤ م حضره مبعوثان من قبل أباخان عرضا على قادة الغرب من جديد مشروع تحالف صليبي مغولي . وبعد أن تم تجميع المبعوثين المغوليين على المذهب الكاثوليكي انصرفوا دون أن يظفروا بوعود بتجهيز حملة صليبية جديدة تخرج من الغرب لحرب المسلمين على أن تتقابل مع جيش مغولي يأتي من الشرق لتطويق المماليك ، والواقع أن الحماسة الصليبية لحرب المسلمين كانت قد فترت في ذلك الوقت عند الغرب الأوروبي . وكان أباخان خان نائب الاتصال بملوك الغرب ويرسل السفارات بين الحين والحين لأنه جعل همه الشاغل إبادة المماليك لا أقل مهما كلفه من تضحيات وبأى تحالف أو قوى أخرى من أى جنس أو دين . وفي شهر مارس عام ١٢٧٧ م أرسل أباخان سفارة إلى البابا وملك إنجلترا لاستعجال مشروع الحملة الصليبية التي ستساعد المغول في حرب المماليك (٤) .

وكان السلطان الملك الظاهر بيبرس على علم بكل ما يحاك ضد دولته والمسلمين عامة من مؤامرات ودسائس ، فقرر مهاجمة أعدائه والأجهزة عليهم وتشيتت جمعهم قبل أن يفتكوا ويتمكنوا منه ، فجهز جيشا مملوكيا غزا به مملكة أرمينية الصغرى للمرة الثانية في شهر مارس ١٢٧٥ م وأغار على مدنها برا وبحرا ، ولم يجرؤ الملك « ليو الثالث » ملك أرمينية الصغرى ، والسذى خلف والده « هيثوم الأول » على العرش الأرمني على الوقوف في وجهه (٥) وتمكن السلطان المملوكي من تجميع قوة ملك أرمينيا وابعادها كلية عن مسرح القتال و الاشتراك مع المغول في معارك قادمة . ثم

Grousset, R., L'Empire Mongol, III, Paris, 1945, P. 693. (٤)

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٦١٧ - ٦١٨ .

أدار السلطان الملك الظاهر بيبرس وجهه للمغول للانتقام منهم لغزوهم بلاد الشام عام ١٢٧١ م بعد أن تمكنوا من دخول سوريا عن طريق الاناضول وتجاوزهم حلب الى معرة النعمان وعاثوا في البلاد فسادا لكنهم انصرفوا راجعين وانسحبوا خلف نهر الفرات بعد أن شعروا بانستعداد المماليك وعدم وجود قوة معهم تكفى لمواجهة الجيش المملوكى ، فأغار السلطان الملك الظاهر بيبرس على بلاد سلاجقة الروم بالاناضول والتي كانت مشمولة بالحماية المغولية ، وتمكن سلطان المماليك من إيقاع هزيمة منكرة بالجيش المغولى بالاناضول عند صحراء « أبلستين » في ١٨ ابريل عام ١٢٧٧ دون أن يستطبع الملك السلجوقى كيخسرو الثالث - الذى كان صغيرا - أو وزيره معين الدين سليمان پروانه وقف ذلك الخطر (٦) . وبعد أن احتل السلطان الملك الظاهر بيبرس مدينة قيسارية في ٢٣ أبريل من نفس العام ، أعلن نفسه وريثا لسلطين سلاجقة الروم في حكم الاناضول ، وجلس على عرش آل سلجوق ، وخطب له على منابرها . كما أعلن الوزير معين الدين سليمان پروانه خضوعه وولاه لسلطان المماليك ، فأبقاه فى منصبه ، واكتفى السلطان الملك الظاهر بيبرس بما فعله من دحر المغول وابعاد نفوذهم عن آسيا الصغرى ، وعاد الى بلاد الشام (٧) .

وما أن سمع أياقا خان بما وقع لجنوده فى الاناضول حتى انتقل الى مدينة قيسارية فى السنة ذاتها (١٢٧٧ م) ليثأر لجيشه المهزوم وليعيد نفوذ المغول وحكمهم فى الاناضول مرة ثانية . ولما دخل مدينة قيسارية صب على أهلها وابلا من العذاب وانتقم من مسلميها شر انتقام لقتلتهم سلطان مصر بالفرح ، ثم انتقل الى مكان المعركة فى أبلستين . وزاد من غضبه أنه شاهد جنود المغول صرعى ولم يشاهد أحدا من عساكر الروم مقتولا ، فامر بنهب بلاد الروم كلها وقتل كل من يصادفونه من المسلمين ، فقتل جنوده ما يزيد على مائتى ألف نفس (٨) ، كذلك قتل الوزير معين الدين

(٦) فضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٢٥٩ وما بعدها .
 (٧) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٦٣١ .
 (٨) الذهبى : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٠٥ .

مسليمان يروانه لما نسب اليه من تعاونه مع الممالك ومكاتبته اياهم (٩) .
ويروى المؤرخ الايراني رشيد الدين فضل الله مؤرخ المغول أن أباخان خان
بكى عندما شاهد تقتلى المغول مكسين ، وحزن على رجاله حزنا شديدا (١٠) .
وأكد واقعة قتل المسلمين المؤرخ المصرى المقرئى فذكر أن أباخان خان « قتل
من ببلاد الروم من المسلمين ، ويقال انه قتل من الفقهاء والقضاة والرعايا
ما يزيد على مائتى ألف نفس ، ولم يقتل أحد من النصارى » (١١) .

ووجد أباخان خان نفسه فى وضع لا يسمح له بقتال الممالك بمصر
والشام ، خاصة وأن قوة الممالك العسكرية وحماسهم الدينى كان تسويا
وعريبا . فما كان منه إلا أن أثار من جديد تشكيل حلف من المسيحيين والمغول
للقوف فى وجه المسلمين ، وبنى سياسته على اعتبار أن المسيحيين حلفاء
طليعيين له ولدولته . فكان أول من صادفه « ليو الثالث » ملك دولة أرمينية
الصغرى ، فعقد حلفا مشتركا ، واتفقا على القيام بحملة كبرى على بلاد
الشام لطرد الممالك واستخلاص بيت المقدس للمسيحيين . كما اتفقا على
ارسال الرسل الى المقر البابوى وملوك أوروبا لاطلاعهم على تحالفهما ، وطلب
منهم جميعا الانضمام الى الحلف وارسال حملة صليبية الى بلاد الشام ،
لتساعدهم فى القضاء على الممالك عدوهم المشترك (١٢) . لكن أباخان لم
يصله رد واف على اشتراك الأوروبيين فى حملته ، وفى الوقت نفسه انشغل
باضطرابات نشبت فى ايران مما صرف نظره مؤقتا عن فكرة مهاجمة
الممالك (١٣) .

ومع أن الجبهة المصرية المغولية كانت مادئة الى حد ما ، إلا أن انتصار

(٩) الذهبى : العبر ، ج ٥ ، ص ٣١٠ .

(١٠) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ - المجلد الثانى من الجزء
الثانى ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(١١) المقرئى : السلوك ج ١ ، ص ٦٣٣ ، أبو المحاسن : النجوم
ج ٧ ص ١٦٩ - ١٧٤ .

(١٢) Grousset ; L'Empire Mongol , III , P. 695 - 696 .

(١٣) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ - المجلد الثانى من الجزء
الثانى ، ص ٦٣ - ٧٠ .

الماليك كان يؤرق أباقا خان ، وكان كل ما يستطيع عمله هو أن يصب جام غضبه على المسلمين في إيران الذين كانوا لا حول لهم ولا قوة . وقد شجعت الأحداث التي حدثت بالدولة المملوكية اثر وفاة السلطان الملك الظاهر بيبرس سنة ١٢٧٧ م ايلخان المغول الحاقق على مصر والماليك ، ونشوب الخلافات بين الامراء الماليك على السلطة في القاهرة ، واعتصاب الامير سنقر الاشقر حكومة الشام ، واعلانه سلطانا على بلاد الشام في شهر أبريل سنة ١٢٨٠ م على التدخل في بلاد الشام للنيل من أعدائه الماليك في مصر ، فأخذت جيوش المغول تحتاج الحدود السورية ثانية مرتكبة نفس الفطائع التي ارتكبوها منذ عشرين عاما ، وقد شجعهم على ذلك اتصال سنقر الاشقر بالمغول واتفاقه مع أباقا خان بأنه سيعمل على مؤازرته والوقوف معه في قتال سلطان الماليك في مصر . ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزي من أن الامير « طرنتاي » لما أسر بعض أصحاب منكوتر ومن بينهم حامل محفظته عثر فيها على كتب من سنقر الاشقر وأتباعه من الامراء يحرضون فيها المغول على دخول الشام ويعدونهم المساعدة (١٤) . ولكن السلطان سيف الدين قلاوون الذي تمكن من تولي السلطة في مصر في شهر ديسمبر ١٢٧٩ م تمكن أيضا من ايقاع الهزيمة بالامير سنقر الاشقر في شهر يونيو سنة ١٢٨٠ م ، فلجأ الأخير الى المغول يستجدي مساعدتهم ، فانتهر أباقا خان وحليفه ليو الثالث الفرصة وأرسل قوة استطلاعية مغولية الى شمالي بلاد الشام استطاعت أن تحتل عينتاب ودير بساك ، ودخلت حلب ونهبته « وأحرقوا الجامع والمساجد والمدارس المعتبرة ودار السلطنة ودور الامراء » (١٥) وانتهر أباقا خان الفرصة وأخذ يجيش الجيوش ويعيد العدة لحملة جديدة ضد الماليك .

وما أن علم أمراء الماليك بما فعله ايلخان المغول من اجتياحه البلاد السورية حتى اتحدوا فيما بينهم وتعاهدوا على مواجهة المغول صفا واحدا ونهبوا الخلافات التي كانت بينهم بسبب السلطة والتفوا حول الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذي وجه همهته الى صد غارات المغول ، وأرسل

(١٤) المقريزي : السلوك - الجزء الأول - القسم الثالث ، ص ٦٩٧ .

(١٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٩ .

جزءاً من الجيش المملوكى عسكر بالقرب من حماة . ومن ناحية أخرى راسل أمراء المماليك سنقر الاشقر وقاتلوا له : « وهذا العدو قد دهمنا وماسببه إلا الخلف بيننا ، وما ينبغي هلاك الاسلام ، وكان لذلك القول أثره فى نفس سنقر الاشقر فمنع جنده من محاربة المصريين » (١٦) .

ويصف المقرئى ما حدث لبلاد الشام من جراء حملة أباخان بقله : « ولما وصلت الأنباء بزحف المغول الى أطراف حلب أخلاها أهلها ومن كان معسكراً فيها من الجنود ونزحوا الى حماة وحمص ، ولم يمهض على ذلك وقت طويل حتى هجمت طوائف المغول على أعمال حلب واستولوا على عينتاب ودريساك ، ودخلوا حلب نفسها فأحرقوا ما بها من الجوامع والمدارس ودور الأمراء ، كما ارتكبوا فى هذه الولاية من صنوف الوحشية والعسف ما اضطر الأهالى الى الفرار نحو الجنوب ، ثم رحلوا عنها عائدين الى بلادهم بما أخفوه من الاسلاب والغنائم ، أما أهالى دمشق فقد تملكهم الهلع والرعب ، وهاجر منهم خلق كثير الى مصر ليحتموا بها » (١٧) .

وقاد الحملة المغولية أباخان نفسه وقدم نحو الشام ومعه الجيش الرئيسى من اقليم الجزيرة فى شهر سبتمبر عام ١٢٨١ ، كما قاد أخوه « منكوتر » جيشاً آخر وقدم الى الشام من كبادوكيا عن طريق عينتاب ، وانضم اليه جيش مسيحي بقيادة ليو الثالث ملك ارمينيا (١٨) . وكان جيش منكوتر يقدر بخمسين ألف مقاتل وانضم اليه قرابة ثلاثين ألفاً آخرين من حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم (١٩) . ثم زحف الجيش المغولى بقضة وقضيضة عن طريق وادى نهر العاصى ، فوصل حمص استعداداً للملاقاة المماليك الذين كان جيشهم يرباط بالمدينة تحت قيادة السلطان قلاوون نفسه . وفى موقعة حمص التى دارت بين الفريقين فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٢٨١م حلت الهزيمة بالمغول ، فزلوا

- (١٦) المقرئى : السلوك - الجزء الاول - القسم الثالث ، ص ٦٧٩ .
 (١٧) المرجع السابق ، ص ٦٨٠ .
 (١٨) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ - الجزء الثانى - القسم الثانى ، ص ٨٣ .
 (١٩) أبو الفداء : المختصر ، حوادث سنة ٦٠٨ هجرية .

مدبرين عبر الفرات بعد أن قتل منهم عدد كبير . أما ليو الثالث ملك دولة أرمينية الصغرى ، فإنه انسحب عائداً الى بلاده يجر أذيال الفشل والخيبة والهزيمة . فتلحقه التركمان والأكراد في الطريق وقتلوه عن آخرهم . ولم يفلت من القتل أو الأسر الا دون العشرين » (٢٠) ، وذكر النويرى وقعة حمص تلك على النحو التالي : « ونازل أبايخان قلعة الرحبة . وتقدم منكوتر ابن هولاكو حتى وصل حماة ، وكان جيشه يضم عدة فرق من الأرمن والكرج وكذلك الفرنجة . وقد التقت هذه الطوائف بجيوش السلطان الملك المنصور قلاوون التي كانت تتكون من جنود مصر والشام ومريق كبير من الأكراد والتركمان ، ثم دار القتال بين الفريقين بالقرب من حمص ، حيث حمل جيش المماليك على المغول حملة صادقة انتهت بهزيمتهم وقتل كثير منهم » (٢١) كذلك أورد الخافض الذهبي واقعة حمص فقال : « أن وقعه حمص كانت في يوم الخميس رابع عشر من رجب سنة ٦٨٠ هجرية ، وكان قائد جيوش المغول منكوتر بن هولاكو ومعه مائة ألف ، والتقى به السلطان شمالي تربة خالد بن الوليد . وكانت معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون نتيجة الحماس الدينى ، وطايب الموت في سبيل الله ، وانكسر المغول ، وأصيب منكوتر بطعنة وفر من أرض المعركة فاستحكمت هزيمتهم وركب المسلمون أقفيتهم ولما علم أبايخان بانهزام أتباعه - وهو على الرحبة - رحل الى بغداد ، ولحق به من نجا من المغول وفيهم أخوه منكوتر الذى استاء منه أبايخان لعجزه عن الحاق الهزيمة بجند المماليك ، وقال له : « لم لا مت أنت والجيش ولا انهزمت » (٢٢) . أما عن القائد منكوتر المهزوم فيذكر الحافظ الذهبي أنه توفي سنة ٦٨١ هجرية وأنه كان نصرانيا يوم المصاف على حمص ، وحصل له ألم وغم بالكسرة ، واعتراه فيما قيل صرع مذارك كما اعترى أباه هولاكو . فهلك في أوائل المحرم بقربة تل الخنزير من جزيرة ابن عمر ، وله ثلاثون عاما ، وكان شجاعا جريئا مهيبا (٢٣)

- (٢٠) المقريزى : السلوك - الجزء الأول - القسم الثالث ، ص ٦٨٩ .
 (٢١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٨ - ٩ .
 (٢٢) العافظ الذهبي : المعبر ، ج ٥ ، ص ٣٢٦ .
 (٢٣) المرجع السابق ، ص ٣٣٧ .

وعكذا هزم المماليك المصريون أباقا خان في ثلاثة حروب هي : بيه -
 أبلستين - حمص « يضاف اليهم هزيمة « عين جالوت » التي وقعت في عهد
 هولاكو . وبذلك استقرت الحدود الفاصلة بين المغول والمماليك نهائيا بين
 سوريا وبلاد ما بين النهرين .

سياسة أباقا خان الداخلية :

وكانت سياسة أباقا خان الداخلية هادئة بصفة عامة ، إذ خفض
 الضرائب عن كاهل الايرانيين تخفيضا عظيما من أجل فقراء الريف . وتميز
 عصره بثائق شخصيتين ايرانيتين هما المؤرخ الايراني الكبير علاء الدين
 محمد الجويني وأخوه شمس الدين محمد بن محمد صاحب الديوان ، اللذان
 كانا السبب الرئيسى في ازدهار دولة أباقا خان ودفع الأذى المغولي عن
 الأهالى الايرانيين والأخذ بيدهم والوقوف مرة أخرى لمسايرة الحياة العامة
 التي توقفت تماما فترة الغزو المغولي الأول . وكان شمس الدين صاحب
 الديوان بجمع بين جباية الضرائب والدخل العام والشئون السياسية التي
 أدارها بحنق ومهارة ، أما أخوه علاء الدين غطا ملك الجويني فكان حاكما
 على العراق (ما بين النهرين) ويتمتع باستقلال تام في تصريف شئون
 العراق ، وقد بذل كل ما في وسعه لتعمير ما خربه المغول ، ونجح في ذلك نجاحا
 باهرا حتى قال عنه المؤرخون المعاصرون له «أن بغداد بلغت في عهده من الاتساع
 والعمران أكثر ما بلغت على يد الخلفاء » . كما شبه البعض أسرة الجويني
 في الدولة المغولية بأسرة البرامكة في الدولة العباسية حيث كانوا أصحاب
 فضل وأدب وأرباب جود وكرم ، وكانت مجالسهم مقرا للأدباء والكتاب
 والشعراء .

وفاة الإيلخان أباقا خان :

وكان أباقا خان - كمعظم أمراء المغول - مسرفا في الشراب ومات بسببه
 في أواخر سنة ٦٨٠ هجرية (أول أبريل سنة ١٢٨٢ م) بمرض هذيان
 السكرارى (نوع من الحمى نتيجة السكر الشديد) بنواحي همدان في الفترة
 ما بين العيدين وله من العمر نحو خمسين سنة بعد أن تربع على العرش
 الإيلخاني مدة سبع عشرة سنة قضاه في حروب مستمرة مع جيرانه في

الشرق من أبناء عمومته المغول والغرب من أعداء المغول التقليديين المماليك
حكام مضر والشام .

السلطان أحمد تكدور (٦٨١ - ٦٨٣ هـ) :

كان أمراء البيت المالك المغولي في إيران وقادة الجيش في أواخر عهد
أباقا خان في خلاف دائم على السلطة . وانقسموا الى ثلاث مجموعات ،
مجموعة ترغب في تنصيب الأمير أرغون بن أباقا خان العرش الايلخاني ،
ومجموعة أخرى كانت تتعاطف مع تكدور وتؤيد سلطنته على أساس أحقيته
بالمالك طبقا لأحكام الياسا الچنكيزية . أما المجموعة الثالثة والأخيرة فكانت
تتزعجها « أولجاي خاتون » زوجة أباقا خان . وكانت ترغب في تنصيب أخيه
« منكوتر بن هولكو » العرش الايلخاني ، وهو الذي قاد جيش المغول ببلاد
الشام وهزمه المماليك هزيمة منكرة في حمص سنة ١٢٨١م ، ولكن الأمير
منكوتر بن هولكو توفي قبل موت أخيه أباقا خان وهو في سن الثلاثين من
عمره حزنا وكدا على هزيمته ، فانحازت أولجاي خاتون الى جانب أرغون
ضد تكدور . وعمل كل فريق منهم في الخفاء وفي سرية كاملة للوصول الى
هدفه وأغراضه . وكان أباقا خان نفسه يريد أن يخلفه على العرش الايلخاني
ابنه أرغون لكنه لم يستطع تنصيبه مكانه أو الحصول على موافقة الأمراء
وقادة الجيش على ذلك لأن هذا الاجراء يعد مخالفة صريحة لأحكام الياسا
الچنكيزية التي تنص على أن يتولى العرش أكبر الأمراء الأحياء سنا . وعلى
هذا فقد أجمع الأمراء وقادة الجيش على تولية تكدور بن هولكو العرش
خلفا لأخيه أباقا خان في اجتماع القوريلتاي الذي عقد في « آلتاغ » في السادس
والعشرين من المحرم سنة ٦٨١ هجرية .

والايلخان الجديد هو الابن السابع لهولكو خان . وكان في الصين اثنا
حملة أبيه على إيران والشام . وقد رأى الخاقان « قوبيلاي قاآن » أن
يرسله الى إيران في عهد سلطنة أخيه أباقا خان لمساعدته والوقوف بجانبه اثر
الاضطرابات التي نشبت في الشرق والتي كان يذكها وينميها حكام الدولة
الچغتائية في التركستان ودولة القبيلة الذهبية (آتون أوردو) في حوض نهر
الفولجا ، وأيضا تفوق المماليك المصريين في الغرب وهزيمتهم للجيش المغولية
المرّة تلو الأخرى . وقد تنصر تكدور في طفولته وتعهد في صباه ، وتسمى

باسم « نيقولا » (٢٤) غير أن هواء كان مع المسلمين ولم يكذب يقول العرش حتى أعلن تحوله للإسلام على مذهب أهل السنة والجماعة ، واتخذ اسم أحمد وتلقب بالسلطان . وبذل قصارى جهده في حمل المغول على الدخول في الاسلام ، وأسلم على يديه كثير منهم بفضل ما منحهم إياه من العطايا والقباب الشرف (٢٥) .

وكان لاسلام تكودار رنة فرح بين المسلمين ، وبخاصة الإيرانيين منهم ، واستغل هذه باظهار اخلاصه وتمسكه بالدين الاسلامي والدفاع عنه ، وأرسل كتباً الى فقهاء بغداد والى السلطان قلاوون سلطان المماليك في مصر والشام ، أعلن فيها رغبته في حماية الاسلام والذود عنه والعمل على اعلاء شأنه ، كما أظهر في خطابه للسلطان قلاوون رغبته في أن يظل في سلام ومودة مع جيوش المسلمين . وقد اعتبره علماء بغداد في رددهم عليه بأنه حامى الاسلام والمسلمين ونعتوه بناصر دين الله المبين . أما بقية الشعب الاسلامي الواقع تحت نير المغول فقد تجدد الأمل عندهم خاصة الإيرانيين منهم بعد أن غلبوا على أموره وملأت الحسرة قلوبهم نتيجة ما افترفه المغول من فظائع ومصائب ، فتعاطفوا معه وتوطدت علاقة السلطان المغولي بعلماء الدين الاسلامي وعظماء المسلمين ، واتخذهم أصفياء له وأعوانا .

السلطان أحمد تكودار يواجه عداء كبار المغول نتيجة اسلامه :

كان لارتقاء تكودار العرش الايلخاني واشهاره الاسلام واتخاذها من عظماء المسلمين وعلمائهم أصفياء له دون غيرهم من رجال الديانات الأخرى أن فتح باب الصراع على السلطة والوجود المغولي على مصراعيه ، ووجد منافسوه الفرصة مناسبة فاعلنوا العداء السافر وجأهروا بمعاداته ومحاربتة . ورغم موجة العداء التي أظهرها أمراء المغول وقادتهم لتكودار نتيجة اسلامه ، إلا أنه عمل على استمالة كافة الأمراء ، فبسط يده بالبذل والعطاء لكافة رجال الدولة ، وهب الجزء الأعظم من خزائنه الى اخوته وأقربائه وقادة الجيش المغولي ، ولم يستثن من ذلك منافسه على العرش الايلخاني « أرغون » ابن

(٢٤) ستيفن رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ،
الترجمة العربية ، ص ٦٧٢ .
D'Hosson; Histoire des Mongols, Vol. III, P. 553. (٢٥)

أبائنا ، بل عامله معاملة طيبة للغاية على أساس أنه ابن أخيه وأقرب الأمراء إليه . لكن أرغون كان يحقد على عمه ويطمع في تولي السلطة ، فاتفق مع أحد أعمامه وكان يسمى « قونغرقاي » على الوقوف في وجه تكودار والعمل على انتزاع العرش منه . كذلك تمكن أرغون من استمالة الوزير « مجد الملك اليزدى » وكان صاحب نفوذ كبير في الدولة الايلخانية والمنافس الخطير للأخوين شمس الدين محمد بن محمد الجويني صاحب الديوان وعلاء الدين عطا ملك بن محمد الجويني ، ولو حاشا له بالوزارة ان انضم اليهما ووافاهما بأسرار البلاط وتحركات الايلخان . وقد انكشفت المؤامرة ، فأمر السلطان أحمد تكودار بالقبض على الوزير مجد الملك اليزدى ومصادرة أمواله ، وبعد ثبوت التهمة عليه قتل في ٨ جمادى الأولى سنة ٦٨١ هجرية وأرسلت رأسه وأطرافه الأربعة الى أقاليم خمسة من أقاليم الدولة للنشهر به لعدم وفائه وخيانتة وليكون عبرة لغيره . وقد أثارت تلك الفتنة الكثير من المغول لجرأة الوزير على الايلخان . وطبقا لعادات المغول القبلية وقانونهم الياسا أعدوا جسده للشواء وأكلوه في وليمة رسمية ، وانتهى بذلك مجد الملك اليزدى كما انتهت معه المؤامرة التي دبرها أرغون وعمه . ثم أقدم المغول على الفتك بجميع أفراد عائلته فقتلهم جميعا . فكان حادث مجد الملك اليزدى درسا لغيره وسيفا مسلطا على كل من يعمل مع المغول ويخونهم . أما عطا ملك الجويني والذي ناصبه مجد الملك اليزدى العدا ، فإنه استمر في منصبه وبرى من التهم التي تقول بهما مجد الملك والتي شملت أكاذيب وافتراءات لا حصر لها ، ونال احترام الايلخان الى أن توفي في الرابع من ذي الحجة عام ٦٨٢ هجرية . وأكراما له وتعظيما لقدره واعترافا بأخلاصه وخدماته للدولة المغولية فقد أمر السلطان أحمد تكودار بتنصيب ابن أخيه هارون بن شمس الدين محمد صاحب الديوان مكانه .

وانشغل السلطان أحمد تكودار بنشر الاسلام وإعادة الطمأنينة للمسلمين وإصلاح ما خربه المغول ، فكان اسلامه عاملا هاما في استقرار الأمور ، وبخاصة للأيرانيين الذين أحاطوه بكل تقدير وإكبار ، ثم ان اسلامه كان عاملا هاما في تهذيب طباعه وتقويم خلقه ، فلم يعد ذلك المغولى الذى كان كل همه سفك الدماء وتخريب البلاد وصب البلاء . ومع ذلك فإن تصرفاته مع

المسيحيين واليهود كانت متشددة وقاسية ، حيث أقدم على هدم كثير من الكنائس والمعابد ، وأبقى على بعضها وحولها الى مساجد . وقد أجمع المؤرخون على ذلك ، الا أن ابن العبري شذ عنهم ، وذكر أن نكودار كان متسامحا مع جميع الأديان وخاصة مع المسيحية ، حيث ذكر : « أنه لما جلس على كرسي المملكة يوم الحادى والعشرين من حزيران لتلك السنة ، سنة احدى وثمانين وستمئة وعنده الكفائية والدراية والكرم أخرج من الخزائن والأموال شيئا كثيرا ، وقسم على الأولاد والأمراء والعساكر وأظهر الاحسان والشفقة الى جميع المغول والى الأمم الباقية وخصوصا الى أكابر المسيحيين » (٢٦) .

علاقة السلطان أحمد نكودار بالماليك حكام مصر :

أظهر السلطان أحمد نكودار نتيجة اسلامه رغبته في أن يظل في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ونبذ الخصام والشقاق بين الاخوة المسلمين ، فاقدم على خطوة جريئة نحو تخفيف حدة التوتر مع مصر ، وبعث بنبا اسلامه الى الملك المنصور قلاوون سلطان المالك في مصر في كتاب مؤرخ في شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ هجرية (أغسطس سنة ١٢٨٢ م) مع رسولين هما قطب الدين الشيرازي والأتابك بهلوان (٢٧) ، وذكر في رسالته « أنه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف ، وأمر بتجهيز الحجاج وسأل اجتماع الكلمة ولخماد الفتنة والحرب » (٢٨) . فرد عليه السلطان الملك المنصور قلاوون ردا جميلا وهنأه باسلامه ، وطلب أن يكون التحالف بين المالك والمغول ضد العدو المشترك ، وهم الصليبيين (٢٩) . فكان هذا الأمر سببا في شكوى قادة المغول من نكودار للخاقان « قوبلاي قاآن » ، واعتبروا مراسلته لسلطان المالك وجهوده في وقف العداء بين الدولتين المغولية

(٢٦) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٩ .

(٢٧) الفلّشندى : صبح الاعشى ، ج ٨ ، ص ٥٥ - ٦٨ .

المؤلف : والاتابك بهلوان هو آتابك السلطان مسعود ، سلطان سلاجقة الروم .

(٢٨) القزويني : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٧٧

وما بعدها ، وأيضا :

D'Hosson; Histoire des Mongols, Vol. III, P. 653 - 580

(٢٩) القزويني : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٧ .

والمصرية خروجا على أحكام الياسا ، وقلبا للسياسة المغولية رأسا على عقب ، بوضعه حدا للحروب بين مغول فارس والماليك ، وهم الذين سفكوا دماء المغول أنهارا في حروب الشام وآسيا الصغرى .

الصراع على السلطة ونهاية السلطان أحمد تكودار :

وبسبب سياسة السلطان أحمد تكودار الداخلية والخارجية الممثلة في تعاظمه مع المسلمين وإحلال القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم محل أحكام الياسا والعرف القبلي المغولي ، ومهادنته أعداء المغول الممثلين في ماليك مصر ، فقد قوبل تكودار بعداء شديد وسافر من كثير من أمراء البيت الجنكيزي أمثال : طغاجار - كيخاتو - قونغرقاي وبابيدو ، وكانوا رؤوس البيت المالك فأنحازوا علنا إلى جانب الأمير أرغون الذي وجد الفرصة سانحة أمامه لقتال عمه تكودار وانتزاع السلطة منه .

وبدأ أرغون يهيئ نفسه للقتال ويستعد لمواجهة تكودار ، فطلب من السلطان حكومة العراق وفارس بجسابد حكومة خراسان ، لكن السلطان تكودار رد عليه بأنه لا يمكنه التصرف في مثل تلك الأمور ، وإن هذا الإجراء من حق القوريلتاي وحده ، وهو الذي يبيت في مثل تلك الحالة . ولما كان أرغون يعلم مسبقا أن القوريلتاي سيكون في غير صالحه فإنه أعلن الثورة ضد عمه السلطان تكودار وهو في خراسان التي اتخذها مقرا لقيادته ومعسكرا لتعبئة جنوده واستقبال أنصاره ومناوئى عمه السلطان ، وأيده في إجراءاته ذلك الخاقان « قوبيلاي قا آن » . وما أن استكمل عدته وعقده تقدم للقتال عمه ونشبت بين الفريقين معركة طاحنة في ٣ صفر سنة ٦٨٣ هجرية (سنة ١٢٨٤ م) وقد تمكنت الجيوش الكرجية التي كانت في خدمة السلطان أحمد تكودار بقيادة « أوليناق » من إيقاع الهزيمة بجيوش أرغون عند قزوين ، ففر الأخير بعد تشتت جيشه إلى نواحي بسطام وتحصن في قلعة « كلات » ، لكن أوليناق أرغمه على التسليم وخمّله إلى معسكر عمه السلطان أحمد تكودار .

ونظر أمراء البيت الجنكيزي وقادة المغول إلى الاضطرابات والأحداث التي نشبت بين تكودار وابن أخيه أرغون ، ففكروا احتواء الفتنة الناشئة وخلع تكودار وتخليص أرغون من الحبس ، وتنصيب « هولاجو » وهو ابن

هولاكو خان وأخ تكودار وابن أخيه أرغون إيلخانا ، وتمت الخطة ، وتمكن الأمير « بوقسا » من إطلاق سراح الأمير أرغون من أسره في ١٨ ربيع الثاني سنة ٦٨٣ هجرية ، بعد نشوب معركة سريعة بين قوات تكودار والمتآمرين عليه قتل فيها كثير من الأمراء الموالين لتكودار ، ومن بينهم قائده « أوليناقي » ، وفر السلطان أحمد تكودار من خراسان إلى آذربيجان لعله يتمكن من جمع قوات يواجه بها أعداءه .

وبخلاف ما قرره المتآمرون ، أعلن تنصيب « أرغون » إيلخانا ، فتابع سيره لقتال عمه لكن قبل أن يصل إلى آذربيجان قام جماعة من أتباع تكودار بعد أن رأوا رجحان كفة أرغون بالقبض على السلطان أحمد تكودار وأحضروه إلى الإيلخان الجديد الذي أمر بقتله ، وأعدم في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٦٨٣ هجرية (١٠ أغسطس ١٢٨٤ م) ، فكان بذلك أول إيلخان مغولي يعدم ودفع حياته ثمنا لاعتناقه الاسلام حيث اعتبر المغول أن اسلامه شازا بالنسبة لآثار جنكيز خان وخلافا للتقاليد المغولية وأحكام الياسا . وبموته فقد المسلمون عونا لهم وتبددت آمالهم وحلت للمرة الثانية أحكام الياسا الكنكية والآداب المغولية بدلا من القرآن الكريم والآداب الاسلامية .

أرغون خان (٦٨٣ - ٦٩٠ هـ = ١٢٨٤ - ١٢٩١ م) :

هو رابع ملوك إيران الإيلخانيين ، استولى على العرش بعد قتل عمه الذي حكم ثلاث سنوات انتهت بفاجعة أسره وقتله على يد ابن أخيه أرغون هذا ، فما كان منه إلا أن اعتلى العرش الإيلخاني في اليوم التالي (٣٠) . وكان ذلك في ١٨ ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هجرية . وحتى يكون توليه العرش شرعيا اجتمع أمراء المغول وقادتهم ونصبوه إيلخانا عليهم في ٧ جمادى الآخرة سنة ٦٨٣ هجرية ، وذلك في القوريلتاي الذي عقد قرب « آب شور » من نواحي « عشتروء » بآذربيجان ، ثم ثبته الخاقان قوبيلاي قاآن في ربيع عام ١٢٨٦ م .

ولد أرغون ما بين عامي ١٢٥٠ و ١٢٥٥ ميلادية . وأسند اليه والده أياقا خان ولاية خراسان . وكان والده أياقا خان يعده ليخلفه على العرش ،

لكن القدر عجل بوفاته ، فدعى لميلاط أبيه في ربيع عام ١٢٨٢م أثناء اشتداد المرض عليه ، لكنه أبلغ بوفاته قبل أن يصل إلى العاصمة تبريز ، فاضطر إلى تقديم فروض الطاعة لعمه تكودار وهو في آذربيجان ، ثم قفل راجعا إلى خراسان في ربيع العام التالي . ومنذ ذلك التاريخ أخذ أرغون يعمل على الاطاحة بعمه مستغلا الوضع الجديد الذي نشأ نتيجة اسلامه ومهادنته المماليك المصريين أعداء المغول التقليديين . ونشب القتال بين تكودار الايلخان الشرعى وابن أخيه أرغون الذى تزعم المناوئين لتكودار حيث هزم الأخير وحمل إلى معسكر عمه . بيد أن الأمير بوقا أطلق سراحه . وكونا حلفا ضد تكودار وعمل على الاطاحة به . والظاهر أن الخاقان قوبيلاي قا آن المترجم على العرش المغولى في بيكين (خانبالغ) كان يؤيدهما ، وشاع بين المغول ما أذيع من تأييد قوبيلاي قا آن ، فانضمت معظم جنود تكودار إلى صف أرغون وبوقا . واضطر السلطان أحمد تكودار إلى تسليم نفسه لابن أخيه فقتلته في ٢٦ جمادى الأولى عام ٦٨٣ هجرية (١٠ أغسطس سنة ١٢٨٤م) (٣١) .

وسرعان ما اتبع أرغون سياسة تختلف عن سياسة سلفه تكودار التى كانت تعتمد أساسا على تأييد الاسلام ونشره والتقرب من المسلمين والرفع من شأنهم . فكانت سياسة أرغون تقيض حماسا وقوة لخدمة المسيحية والمسيحيين ، رغم أنه كان بوذيا ومتيما على بوذيته في قوة والدفاع ، وأسند المناصب العليا في الدولة إلى أعوانه وأتباعه الذين وقفوا بجانبه ضد عمه السلطان أحمد تكودار ، ومن بينهم الأمير بوقا الذى أسند إليه أرغون إدارة شئون المملكة ، وأطلق يده في تصريف شئون الدولة . وقد أنعم عليه الايلخان الجديد أرغون لقب « أمير الأمراء » تعظيما لشأنه واعترافا بفضلته وجعله في منزلة أقرب ما تكون إلى الشريك منها إلى التابع . ومن هذا المنطلق بدأ الأمير بوقا يدير دفة شئون الدولة ، وكان يساعده في إدارة شئون المملكة « خواجه فخر الدين محمد المستوفى للقزوينى » كذلك نصب ابنه غازان واليا على خراسان ، وعين الأمير نوروز الذى كان حاكما على إيران قبل مجىء هولاءكو نائباً له .

(٣١) رشيد الدين فضل الله الهمداني : جامع التواريخ ، ص ١٢٠ - ١٢١

وبمجرد تولي أرغون العرش الإيلخاني اختفى « خواجه شمس الدين محمد بن محمد الجويني صاحب الديوان » وزير السلطان أحمد تكودار بعد الهزيمة التي منى بها سيده ، وتؤكد أنه هالك لا محالة ، وأن الإيلخان الجديد سوف يقتص منه لسابق موقفه في عهد تكودار ، وفكر وهو في مخبئه في الهروب إلى الهند لعله يجد فيها الأمن والأمان واللجوء إلى أصدقائه ومعارفه في شبه القارة الهندية ، لكنه أقطع عن هذه الفكرة في النهاية خشية على حياة أفراد عائلته وأصدقائه ومن كان يشملهم برعايته . وتقدم شمس الدين محمد صاحب الديوان إلى أرغون بنفسه وحاول أن يستعطفه فلم يفلح . ولعل الإيلخان تأثر بموقف كل من الأمير أرغون وخواجه فخر الدين محمد المستوفي القزويني تجاه شمس الدين محمد صاحب الديوان والذي كان موقفا عدائيا . وحرص كلاهما أرغون خان على قتله . . وتم ذلك في الرابع من شعبان سنة ٦٨٣ هـ عجربة قرب « أهر » بأذربيجان ، كما قتل جميع أبنائه وأخوته وأحفاده ، وكل من كان متصلا به . وبهذه الطريقة المفجعة قضى على أسرة الجويني التي حمت المسلمين من طغيان المغول واستبدادهم (٣٢) .

وبعد قتل خواجه شمس الدين محمد بن محمد الجويني صاحب الديوان ، خلى الجو للأمير بوقا وانفرد بالسلطة ووصل نفوذه إلى درجة كبيرة ، وفال ثقة أرغون خان فأطلق يده في شئون الدولة ، حتى أنه أصدر قرارا يقضى بأنه لو ارتكب الأمير بوقا أكبر الجرائم ، فليس لأحد الحق في محاكمته سوى الإيلخان نفسه . ولا شك أن تلك السلطة المطلقة والنفوذ الكبير قد جعلت الأمير بوقا يطغى إلى حد كبير ، وأصبح المهيمن على جميع شئون الدولة حتى أنه لم يبق للإيلخان سوى الاسم فقط ، وسلك طريق الاستبداد والبطش بالمسلمين وغيرهم حتى المغول أنفسهم ، فكان ذلك سببا في عدم رضا أمراء المغول وقادتهم ، خاصة أنه لم تكن لديه دراية كاملة بشئون الدولة المالية والإدارية مما سبب ارتباكا شديدا لأجهزة الحكومة المغولية في إيران واضطرابا وقلقا لكافة الطبقات الحكومة . ووصل الأمر إلى أن الدولة لم تتمكن من جمع الضرائب المقررة على الأهالي نتيجة ما وصلوا

(٣٢) خواندмир (غياث الدين بن همسام الدين) : دستور الوزراء ، - تحقيق سعيد نفيسي ، ص ٢٨٨ - ٢٩٠ .

اليه من فقر وجوع ، ومع ذلك وقع على كاهل المسلمين الايرانيين العيب ، الأكبر من الاضطرابات الدموية والفوضى الناشئة من عبث الأمير بوقا وأعدائه المفسدين . فقام الأمراء يناوئونه لأنهم لم يتعودوا الخضوع لمشيئة فسررد واحد ، وانتقدوا تصرفاته ، وكان على رأس تلك الجماعة الشاكية الأمير طوغان الذي كان يشغل وظيفة « شجنجى » (٣٣) ، وانضم اليه طبيب يهودى من أهل أبهر يعمل فى بلاط أرغون قدر له أن يشغل منصب الوزارة فيما بعد . هو « سعد الدولة » الذى طامع فى الوزارة ، واستغل الخلافات الناشئة بين الأمراء ، كما استفاد من الظروف التى تمر بها إيران فى عهد بوقا وأرغون ، وأخيرا كراهية الايلخان نفسه للإسلام والمسلمين . وكان أرغون خان قد شرع فى اضطهاد المسلمين والتوهمين من شأنهم ، وصرفهم عن كافة المناصب الكبرى وحرّم عليهم الاظهر فى بلاطه .

ورسم سعد الدولة اليهودى خطته مبتدئا باحداث ثغرة فى العلاقات بين أرغون والأمير بوقا ، حيث أيقن أنه لا يمكنه الوصول الى هدفه فى وجود الأمير بوقا . وبدأ يطلق الاشاعات ويسعى للايقاع بأمير الأمراء فى مجالس أرغون خان ، وشهر بأخيه ، وكان يدعى « أروق » واتهمه باختلاس أموال الدولة المحببة من العراق . ولما كان أرغون خان مضطربا على مساوىء الأمير بوقا وتصله أخباره أولا بأول ، وفى نفس الوقت وجد أن الأمراء من أهل بيته وعصبيته المغول وكذلك قادة الجيش المغولى غير راضين عن مسلكه وطريقة ادارته لشئون المملكة ، خاصة وأن بوقا كان دائم الحديث عن مساندته لأرغون فى كفاحه ضد عمه تكودار ، وأنه - بفضل مساندته وتأييده - وصل الى العرش . ووصل به الأمر فى الحديث عن الايلخان أن كان يصرح بأنه شريك له فى الحكم .

وما أن شعر الأمير بوقا بتغير الايلخان نحوه ، وعدم رضا أمراء المغول عليه أقدم على خطوة أودت بحياته ، ذلك أنه حاول الاطاحة بأرغون والتخلص منه تماما وحل محل أمير آخر مكانه ، ووجد ضالته فى أمير من بيت هولاكو ومن خدنته يدعى « جوشكاب » غاغراه بالملك ومناه بالمساعدة لكن

(٣٣) الشحنة وظيفة تعادل رئيس الشرطة فى العصر الحالى .

جوشكاب لم يوافقه على خطته ، وأسرع بإبلاغ أرغون بما تم من وزيره الأول ، فأمر الإيلخان بالقبض على الأمير بوقا . وفي ٢٥ ذى الحجة سنة ٦٨٧ هجرية أمر أرغون خان أن يقوم الأمير جوشكاب بقتل الأمير بوقا بيده ويفصل رأسه عن جسده . ثم تلى ذلك القبض على أخيه « آروق » المتهم بسرقة أموال الدولة فقتل أيضا . أما الأمير جوشكاب ، فإن أرغون نظر إليه على أنه منافس له في الحكم وخشيته ، ولم يكافئه نظير أمانته والإبلاغ عن خيانة بوقا وأعوانه . وبعد عام من واقعة بوقا قُدض أرغون على الأمير جوشكاب بتهمة الخيانة أيضا وقتل .

وزارة بسعد الدولة اليهودي :

شغل الطبيب سعد الدولة اليهودي منصب الوزارة بعد مقتل الأمير بوقا ، وكان رجلا يمتاز بالذكاء والمكر ، ويعرف كيف يتحين الفرص ، وعرف عنه أنه كان صاحب شخصية غريبة ، فكان يكره الاختلاط بالناس ولا أحد يعرف أسراره ، وفي الوقت نفسه كان له معارف كثيرون ، وكان يجيد عدة لغات ، وعلى علم تام بأحوال الموظفين والصيارفة في بغداد التي عاش فيها . وكانت مهنة الطب في ذلك الوقت تكاد تكون قاصرة على اليهود دون سواهم من أبناء الديانات الأخرى ، وهؤلاء كانوا يسعون دائما للمحافظة على كياناتهم والوصول إلى الطبقات العالية عن طريق مهنتهم ، فلا غرو أننا نرى الأطباء اليهود في البلاط الإيلخاني يشيرون على أرغون بتعيين سعد الدولة طبيا في البلاط ، فوافق أرغون خان على ذلك ، وتصادف أن اعتلت صحته ذات مرة فعالجه سعد الدولة وشفى على يديه ، فعظم قدره عند الإيلخان . ولما اطمأن سعد الدولة إلى جانب أرغون ولمس حبه له ، اغتنم الفرصة وأخبر الإيلخان بكل ما يعلمه عن اسراف بوقا وأخيه « آروق » وعمله ، وأنهم يجمعون أموال الدولة لأنفسهم ، فكلفه الإيلخان بضبط حسابات بغداد سنة ٦٨٦ هجرية ، فقام سعد الدولة بالمهمة على أتم وجه في مدة وجيزة وجمع كل الأموال المتأخرة ، فكافأه الإيلخان على ذلك وولاه منصب الوزارة . واستمر سعد الدولة على وشايباته لتحقيق غاياته حتى قبض أرغون خان على الأمير بوقا وأخيه آروق بتهمة التآمر على الإيلخان وسرقة أموال الدولة ، وقتلهم سنة ٦٨٧ هجرية على النحو الذي ذكرناه .

وكان من الطبيعى أن يتألق نجم سعد الدولة بعد قتل الأمير بوقا

وتشتيت أنصاره وأعدائه ، وشرع يستجيب لرغبة أرغون خان في انقضاء المسلمين عن المناصب التي كانوا يشغلونها ، وأوعز إلى الإيلخان الاكتفاء بتولية اليهود والمسيحيين فقط في مناصب الدولة ، فاستجاب أرغون خان إلى ذلك بحماس زائد واندفاع عجيب . غما كان من سعد الدولة اليهودي إلا أن أعطى أقرباءه والمقربين إليه المناصب الهامة والمؤثرة في الدولة الإيلخانية . وحاول إرضاء الإيلخان بشتى الطرق والوسائل فوجد أن أرغون خان يحب جمع الثروات ، فعمل على جمع الأموال باسم الإيلخان بالقوة والتهديد من الأهالي ليقدمها له . وفي الوقت الذي كان سعد الدولة يؤدي المسلمين ويسلب أموالهم ، كان أرغون يعمل هو الآخر من جانبه لاضطهاد المسلمين وصرهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية وحرم عليهم الظهور في بلاطه . وكان أرغون خان يجد لذة ومتعة في ذلك ، وتزداد ثقته بوزيره سعد الدولة ، ولم يكن يعلم أن وزيره الأول كان يقوم بتقديم جزء مما يجمعه ويقتطع الباقي لنفسه .

وما أن استتب الأمر لسعد الدولة وتأكد أن المسلمين وصلوا إلى درجة كبيرة من الضعف والفقر والمهانة حتى تظاهر بأنه يعمل لصالحهم . وحاول أن يستميل قلوبهم إليه ، فمنع كل المضايقات التي كانوا يتعرضون لها في الماضي وأعشق على كبارهم العطايا والهبات وسمح لهم بالجلوس معه فصدقته المسلمون وهم لا يعرفون نيته . وكان لتصرفه وسلوكه مع المسلمين أثره الحسن في نفوسهم وأقبل شعراء العرب والعجم يمدحونه ، هؤلاء بالعربية وأولئك بالفارسية . لكنه بمجرد أن اطمأن إلى ثبات مركزه في الدولة وعلو مركزه عند أرغون خان حتى بدأ يكيد للإسلام كعقيدة والمسلمين كشعب في أبشع الصور وأشنعها ، وصار يبذل كل ما في وسعه لتقويض دعائم الإسلام مثل هدم الكعبة المشرفة وإحلال معبد بودي (بت خانة) محلها ، ويعمل على إيذاء المسلمين سواء في شعورهم أو أموالهم وغير ذلك من الموضوعات المسببة للمضايقات وكسر شوكة المسلمين ، ثم ينتقل إلى الإيلخان أرغون خان وينقل إليه كل ما يستطيع أن يتحدث فيه عن المسلمين وعدائهم له حتى أن أرغون خان اعتبر المسلمين حلفاء طبيعيين لأعدائه ، وأنهم ساعدوا تكودار في حربه معه . قال الوزير سعد الدولة اليهودي لأرغون خان ذات يوم : « ان النبوه وصلت إلى الإيلخان بالوراثة عن طريق چنكيز خان ، فأرغون نبي الله . ولما كان

كل دين يتوقف على جهاد المخالفين له واستئصال شأفتهم ، فانه يجب أن يصدر الايخان أمره بقتل كل شخص يتخلف عن قبول ديانته ، ولا يقبل أن يحشر في زمرة أتباع الملة الجديدة « (٣٤) » . ولما كان أرغون خان بطبيعته يكره المسلمين ولا يميل اليهم ، فقد صادف هذا الادعاء هوى في نفسه ، فكان ذلك عاملا جديدا من عوامل اضطهاده للمسلمين والفتك بهم . ولم يقف في وجه سعد الدولة اليهودى سوى أمراء المغول وقادتهم ، فحالفوا مسلكه وساءت لهم تصرفاته ، وعادوه . وفي اليوم الأخير من شهر صفر سنة ٦٩٠ هجرية ، وعندما كان أرغون خان يحتضر أقامه خصومه والحاقدون عليه ، ثم قبض أمراء المغول عليه وقتلوه في منزل عدوه اللدود « طغاجار » .

وكان لخبر مقتل سعد الدولة اليهودى رنة فرح بين المسلمين الذين تحملوا الكثير من الصعاب والتشرد والفتك على يديه ، فقاموا على اليهود في مدن ايران المختلفة يتبعونهم قتلا وايداء ، حتى أن عددا كبيرا من اليهود قتل في تلك المذابح التي شنها المسلمون عليهم . ولم يسلم من الغارة سوى يهود شيراز حيث كان على ادارتها شخص يهودى يدعى « شمس الدولة » نائبا عن سعد الدولة ، كان يسلك مع الأهالى طريق الرفق واللين ، ويدفع عنهم غديات المعتدين ، وحاز ثقة الأهالى ، فسلم يهود شيراز من القتل والإغارة على دورهم ومتاجرهم (٣٥) .

سياسة أرغون خان الخارجية :

كان حقد أرغون خان على الاسلام والمسلمين ، والهزائم المتكررة التى منى بها المغول في عصر والده أباقا خان على يد المماليك حكام مصر والشام مدعاة للتحالف مع القوى المعادية للمسلمين والتعامل مع أى جهة تتعاطف معه . فوجد ضالته في المسيحيين ، فعرض عليهم صداقته وتحالفه ، بل وتعاطفه وميله للمسيحية وتقريبه المسيحيين من رعاياه ، حتى يعد عصره بحق عصر

(٣٤) عباس اقبال : تاريخ مغول ، ص ٢٢١ - ٢٢٦ .

(٣٥) حبيب لوى : تاريخ يهود ايران ، المجلد الثالث ، ص ٨٦ - ٩٨ .

وأيضا خواندمير : دستور الوزراء ، تحقيق سعيد نفيسى ،

ص ٢٩٦ - ٣٠٥ .

(م ١٢ - تاريخ الدولة المغولية)

الصداقة والتحالف المغولي مع البابا في روما وملوك أوروبا • وحتى يظهر أمام الغرب المسيحي بعدائه للمالكيك حكام مصر والشام والمسلمين عامة كانت سياسته الخارجية تفيض حماسة واندفاعا لخدمة المسيحية والمسيحيين • وكان أول اتفاق وقعه ، ذلك الذي تم مع ملك دولة أرمينيا الصغرى ويتضمن استرداد الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين • وأرسل أربع سفارات الى المقر البابوي في السنوات ١٢٨٥ و ١٢٨٧ و ١٢٨٩ و ١٢٩٠ ميلادية يقترح فيها جميعا استعداده للقيام بحملة مشتركة مع المقر البابوي لحرب المالكيك ، على أن يقوم الغرب المسيحي بغزو مصر في الوقت الذي يقوم هو فيه بغزو الشام(٣٦) • كما كان يردد دائما «أنه لن يفعل ذلك إلا اذا بذل له الملوك المسيحيون في الغرب المساعدة والتعاون العسكرى(٣٧) •

سفارة ربان سومما الى البابا سنة ١٢٨٧ م :

وفي سنة ١٢٨٥ م كتب أرغون خان رسالة الى البابا « هورنيوس الرابع » اقترح فيها القيام بشن حملة مشتركة ضد المسلمين بمصر والشام وتدمير قوتهم العسكرية ، غير أنه لم يتلق ردا على ذلك(٣٨) ، ثم قرر بعد سنتين إعادة الكرة وايفاد سفارة الى الغرب ، فاختار سفيرا له هو القس « ربان سوما » ، وهو من أصل تركي وكان صديقا للجاثليق « ماربايهالا » الجالس على كرسي البابوية في العراق للمسيحيين النساطرة ، وهو تركي الأصل أيضا وكان قد قدم من الصين مع زميله القس ربان سوما واتجها نحو الغرب يراودهما الامل في تأدية فريضة الحج الى بيت المقدس • ثم تقرر انتخابه جاثليقا بالعراق سنة ١٢٨١ م ، وكان له دوره المؤثر في السياسة الايرانية في عصر أرغون خان • وقد بدأ السفير ربان سوما رحلته في أوائل سنة ١٢٨٧ م ، فأبحر من طرابيزون الى القسطنطينية ، ولقى استقبالا

(٣٦) Runicman; A History of the Crusades, Vol. III, Cambridge, 1959, P. 398 - 402.

(٣٧) Budge; The Monks of Kublai khan, introduction, P. 42 - 61 & 72 - 75.

(٣٨) Chabut; "Relations du roi : انظر رسالة أرغون خان في :

Argoun avec l'Occident", dans la Revue de l'Orient

Latin, Vol. II, P. 571.

واليا حائلا من الامبراطور البيزنطي « اندرونكوس » . وكان الامبراطور البيزنطي على علاقات طيبة مع المغول ، وكان مستعدا لأن يبذل لهم من المساعدة ما تسمح به موارده الضئيلة ، ثم توجه سوما عن القسطنطينية الى نابولي ، فبلغها في شهر يونيو من نفس العام ، ثم واصل سيره الى روما . وكان البابا « هورنبيوس الرابع » قد توفي قبل قدومه ، فاستقبله الكرادلة المقيمون بروما . ويذكر السفير ريان سوما في تقاريره الى الايخان زرغون خان أن معلومات الكرادلة والمقر البابوي بصفة عامة عن المغول ضعيفة ، إذ لم يكونوا يعلمون شيئا عن انتشار المسيحية بين المغول ، وفي نفس الوقت صدمهم ريان سوما حيث كان يخدم سيدا وثنيا . ثم ترك ريان سوما روما بعد أن فشل في مهمته ، بل ووصل الامر الى أنه لم يتمكن من التفاوض مع الكرادلة ، من ذلك أنه عندما كان يناقشهم في الامور السياسية كانوا يستجوبونه حول ايمانه وعقيدته . ثم انتقل السفير المغولي الى جنوة في احتفال كبير ، اذ كان التحالف مع حكاهما أمرا بالغ الاهمية عندهم .

وفي نهاية شهر أغسطس من نفس العام (١٢٨٧ م) عبر « ريان سوما » الى فرنسا ، فبلغ باريس في شهر سبتمبر ، ولقى استقبالا حافلا من الملك فيليب الرابع المعروف باسم فيليب الجميل Philippe Le Bel وأنهى مباحثاته بأن وعده ملك فرنسا بأنه سوف يتولى بنفسه قيادة جيش صليبي لتخليص بيت المقدس . ولما أزمع السفير المغولي مغادرة باريس ، عين الملك فيليب الجميل سفيرا من قبله اسمه « جويرت هيلفيل » ليصحب ريان سوما في عرجته الى بسلام الايخان ، وليعد معه تفاصيل التحالف مع المغول . ثم قابل السفير المغولي « أدوارد » ملك انجلترا في اقليم بورجو حيث أملاكه الفرنسية . وكان ملك انجلترا مؤمنا بمبدأ تحالف الغرب المسيحي والمغول الوثنيين ضد المسلمين والقضاء على دولة المماليك . وعرضوا اراد السفير المغولي وضع جدول زمني للحرب ضد المسلمين راوغه ملك انجلترا حيث لم يكن مستعدا للقيام بالحملة الصليبية .

وفي شهر فبراير سنة ١٢٨٨ م تم اختيار « نيقولا الرابع » بابا . وكان من أول أعماله أن استقبل السفير المغولي ، وقامت بينهما أحسن العلاقات الشخصية . وأخيرا غادر السفير ريان سوما مدينة روما وبصحبه

السفير الفرنسى « جويرت هيلفيل » فى ربيع سنة ١٢٨٨ م . يحمل من البابا الهدايا وكثيرا من المخطافات الدينية القيمة للإيلخان والجاثليق « ماريبا بهالا » ورسائل اليهما ، والى أميرتين مغوليتين مسيحيتين والى أسقف اليعاقبة فى تبريز ، غير أن ذلك الرسائل كانت تتسم بالغموض ، من ذلك أن البابا نيقولا الرابع لم يعد باتخاذ اجراء محدد فى زمن معين (٣٩) .

وعقب عيد القيامة فى سنة ١٢٨٩ م أرسل أرغون خان رسولا جنوى الأصل أقام فى الشرق زمنا طويلا يدعى « بوسكارد حيرولف » ، برسائل الى البابا وملكى فرنسا وانجلترا . ولازالت رسالة أرغون خان الى فيليب الجميل باقية حتى الآن ، وقد كتبت باللغة المغولية وبحروف أويغورية . وتبدأ الرسالة باسم الخان الكبير « قوبلاى قا آن » وفيها أنهى أرغون خان الى ملك فرنسا أنه سوف يتوجه الى سوريا فى الشهر الاخير من فصل الشتاء من سنة الفهد ، أى فى يناير سنة ١٢٩١ م ، وأنه سوف يصل الى دمشق حوالى منتصف أول شهور الربيع ، أى فبراير ومارس سنة ١٢٩١م ، فإذا أرسل الملك - فيليب - قوات اضافية واستولى المغول على بيت المقدس ، فسوف يجعلها له . أما اذا لم يتعاون ملك فرنسا فى تعزيز وتمويل الحملة ضد المسلمين فسوف تتبدد الحملة . وأضاف « بوسكارد » الى الرسالة حاشية كتبها باللغة الفرنسية ، تنطوى على تحيات لبقة موجهة الى الملك الفرنسى ، ويضيف « بوسكارد » أن الإيلخان أرغون خان سوف يصحب معه الكهنه المسيحيين ببلاد الكرج ونحو عشرين أو ثلاثين ألفا من الفرسان ، وسوف يتكفل بما يكفى رجال الغرب من مؤن طوال فترة الحرب .

وعلى الرغم من أن «بوسكارد» عاد أدراجه بإجابات لا تبشر بتعاون مثير وفعال ، فإن أرغون خان أرسله مرة أخرى مع اثنين من المغول المسيحيين وهما اندرياس زاكان وسهادين ، فتوجهوا ثلاثتهم أول الامر الى روما حيث استقبلهم البابا نيقولا الرابع ، ثم مضوا لزيارة ملك انجلترا ، غير أن

(٣٩) ستيفن رنسيماي : تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ، الترجمة العربية للدكتور السيد الباز العرينى ، بيروت سنة ١٩٦٩ م ، ص ٦٧٣ - ٦٧٦ ، وأيضا Budge; The Monks of Kublai, P. 164 - 197.

الملك أدوارد كان منعصما في مشاكل داخلية باسكتلندا . وعاد الرسل الثلاثة الى روما مرة ثانية في طريق عودتهم الى بلدهم وقد اشتد الضيق بهم ، فمكثوا بها فصل الصيف حتى بلغهم فيها نبأ وفاة سيدهم الإيلخان أرغون خان (٤٠) .

وهكذا لم يقع أى قتال في عهد أرغون مع المماليك ، ولم يتحقق أى تحالف مغولى مع الغرب . ربما كان ذلك راجعا الى اشتغال جنوده في ميادين أخرى ، وانصراف غرب أوروبا الى المخاصمات والعداوات ، فلم يجد أرغون خان استجابة من الغرب أو حماسا ، سواء من البابا أو من غيره من الملوك ، ولم يعتمد الاعتماد بخطاباته أكثر من قراءتها . ومن الواضح أن السفارة الأخيرة التي أرسلها أرغون خان الى غرب أوروبا جاءت في الوقت الذي سقطت فيه عكا - آخر البقايا الصليبية الكبرى بالشام - في أيدي المماليك (٤١) . أما النتائج التي نتجت عن اتصال أرغون خان بالغرب المسيحي فانها كانت بنفع المسيحية في ايران ونشرها بين المغول .

وتوفي أرغون خان في اليوم السادس من ربيع الاول سنة ٦٩٠ هجرية (١٠ مارس ١٢٩١ م) اثر تناوله بعض العقاقير التي كان يتعاطاها لاطالة عمره بعد أن حكم سبع سنوات . يقول الحافظ الذهبي في أحداث سنة ٦٩٠ هجرية ما يلي : « توفي أرغون صاحب العراق وخراسان وأذربيجان ، كان شهيدا مقداما كافر النفس شديد البأس ، سفاكا للدماء عظيم الجبروت ، ويقال انه سم فاتهمت المغول وزيره سعد الدولة اليهودى بقتله ، فمالوا على اليهود قتلا ونهباً وسدياً » (٤٢) . أما شرف خان البدييسى فانه ذكر في كتابه « شرف نامه » أن أرغون خان توفي في اليوم الخامس من شهر ربيع الاول سنة ٦٩٠ هجرية في قراباغ أران (٤٣) .

(٤٠) ستيفن رنسيديمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٦٧٧ - ٦٧٩ .

(٤١) Grousset; L'Empire Mongol, Vol. III, P. 727.

(٤٢) الحافظ الذهبي : العبر في خبر من غير ، ج ٥ ، ص ٣٦٦ .

(٤٣) شرف خان البدييسى : شرفنامه ، الترجمة العربية لحمد على عونى ، الجزء الثانى ، القاهرة سنة ١٩٦٢ ، ص ١١ .

٥ - كيخاتو خان (٦٩٠ - ٦٩٣ هـ) :

توفي أرغون خان بعد أن حكم سبع سنوات ، فأرسل جماعة من الأمراء الى أخيه « كيخاتو » الذي كان حاكماً على بلاد الروم ، يبلغونه نبأ وفاة أخيه الايلخان ويستدعونه للحضور الى آذربيجان على الفور لتنصيبه ايلخانا . وفي نفس الوقت راسل بعض الأمراء وقادة الجيش الامير بايدو بن طوغان حفيد هولاكو ، وكان قائماً على حكومة بغداد لشغل نفس المنصب . وبذلك انقسم أمراء المغول الى جماعتين ، أكثرية تؤيد تنصيب كيخاتو وأقلية تساند بايدو . وطبقاً لأحكام الياسا الچنكيزية والعرف المغولي فقد كانت كفة كيخاتو هي الراجحة . لانه كان أكبر الأمراء الاحياء سناً . فقدم من بلاد الروم وزافقه عدد كبير من أمراء المغول ، وهذا يعنى طبقاً للعرف القبلي المغولي ترشيحه لمنصب الايلخان ، واعتلى العرش في يوم الاحد ٢٣ رجب سنة ٦٩٠ هجرية .

وواجه كيخاتو خان في أوائل عهده عدة ثورات تميزت بالعنف والدمار . وظهرت عدم التماسك بين أمراء المغول الذين كان يضرب بهم المثل في الوحدة والطاعة والتماسك ، فقامت ثورة بخراسان ترأسها وقادها حاكم خراسان « أنبارجى بن منكوتر » ، وأرسل كيخاتو خان نائبه « سنكتوريان نوبيان » الى خراسان لمواجهة الفتنة فتمكن من اخمادها . كذلك اندلعت ثورة أخرى قام بها التركمان واليونانيون في بلاد الروم ، فتوجه اليهم كيخاتو بنفسه وعزمهم بعد قتال عنيف استمر عشرة أشهر . وكان الايلخان قد ترك حكم البلاد لنائبه سنكتوريان ، وكانت تعوزه الكفاءة والحزم والمقدرة على مواجهة المشاكل الادارية والمالية ، وزاد الطين بلة أن ابنتايت البلاد الايرانية بحقط عام نتيجة عدم سقوط الأمطار ، فاخذت أوضاع البلاد ، واضطربت أمورهما . لكن كيخاتو خان تمكن من ضبط الأمور بعد جهد كبير فعادت البلاد الى سابق عهدها من الاستقرار والانتعاش . وأجرى تغييراً في المناصب الكبرى بالدولة ، كان أهمها على الإطلاق عزل نائبه وأمير الأمراء « سنكتوريان » وتنصيب الامير آق بوقا ، وأسند الوزارة الى خواجه صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني الملقب بصدر جهان الذي كان في الأصل من سلالة قضاة زنجان . كما نصب كيخاتو أخاه الآخر خواجه قطب الدين أحمد الخالدي المعروف باسم قطب جهان منصب قاضي القضاة وولاه في نفس

الوقت ادارة أوقاف المسلمين في ايران كلها ، فعمل كلاهما بكفاءة وإخلاص وأدارا دفة الحكم بدقة وإحكام . يقول المؤرخ الايراني شرف خان البديسي في كتابه ما يلي « ٠٠٠ أسند كيخانو منصب أمير الامراء لآقبوتا بهادر ، وأسند الوزارة للخواجه صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني الذي كان في الأصل من سلالة قضاة زنجان ولقبه بصدر جهان . كما أنه نصب أخاه الآخر وهو الخواجه قطب الدين أحمد قاضيا للقضاة وولاه نظارة أوقاف الممالك المحروسة كلها » (٤٤) .

وكان، كيخانو خان رجلا مسرفا يقضى أوقاته في الشراب واللهو والمجون ، فأنفق الأموال التي كانت بخزائن الدولة ، تلك التي جمعها أرغون خان ، على ملذاته ، واحتقر التعامل بالذهب والفضة ، واعتبرهما لا يصلحان إلا لزينة النساء والرجال . ولم يمض قليل وقت حتى أصبحت خزائن الدولة خالية تماما . وارقتبت المالية عامة ، ولم يجد البلاط الايلخاني نقودا للصرف منها على الضروريات الأساسية من غذاء وخلافه . وقد زاد الأزمة تفاقمًا أن الوزير خواجه صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني كان مجوره ينفق أموال الدولة في استمالة قلوب الناس اليه خاصة طبقتي الزهاد والعباد . وزاد الطين بلة انتشار الأمراض والأوبئة وقطع عام استمر عدة سنوات حتى ضج الناس بالشكوى من الايلخان نفسه ومن وزارة صدر جهان وتحركت عندهم روح الثورة (٤٥) .

الچساو كعقلة هتداولة في عهد كيخانو خان :

وفي تلك الأثناء التي كانت فيها الدولة في وضع غير سليم نتيجة الاضطراب المالي وتذمر الشعب الايراني من الاوضاع السائدة في عهد الايلخان ، قدم شخص يدعى « عز الدين محمد بن مظفر بن عميد » من الصين ، وكانت لديه معرفة كاملة بأحوال الصين والسياسة المالية للخاقان

(٤٤) شرف خان البديسي : شرفنامه ، الترجمة العربية أحمد علي عوني ، الجزء الثاني ص ١١ .
(٤٥) خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٣٠٥ - ٣١٢ ، وأيضا كتاب نسائم الاسحار من لطائف الاخبار در تاريخ وزرا ، تأليف ناصر الدين منشي الكرماني ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

في الصين ومنغوليا . فعرض عز الدين محمد هذا على الوزير صصدر جهان استبدال العملة الذهبية والفضية المتداولة الى عملة ورقية حتى تتحسن الاوضاع المالية في البلاد . واقتنع الوزير صدر جهان بما قدمه الخبير المالي القادم من الصين ، وعرضا الفكرة على الايلخان ، وكان يؤيدهما ويشجعهما على ذلك كبار أمراء البلاط . ثم استشار كيخاتو خان سفير الخاقان في بلاطه وكان صينيا يدعى « يولاد جينك سانك » في أمر تغيير العملة ، فاستحسن رايه . وأصدر كيخاتو أمرا بتداول العملة الورقية وسحبت العملات الذهبية والفضية ، وأمر بأن تقام في كل مدينة إدارة للعملة تسمى « چاوخانه » تقوم بصك الجناو ، أى العملة الورقية .

وكان الجاو في البداية يسمى « چاو مبارك » ويتكون من قطعة ورقية مستطيلة الشكل مدون على أطرافها الاربعة بخط « خطائى » . وفي أسفل الورقة نقتش الشهاداتتان على طرفين من الورقة . وفي أسفل الشهادتين بمسافة قليلة وفي الوسط كلمة « ايرنجين دورجى » وهو اللقب المغولى لكىخاتو الذى لقبه به الخاقان الخطائى ، ومنقوش عليها في الوسط عدة سطور مضمونها انه بتاريخ ثلاث وتسعين وستمائة أجرى الايلخان تداول هذه العملة المباركة المسماة بالجاو في جميع البلاد ، فمن أقدم على تغييرها أو تبديلها يعرض نفسه وأهله من النساء والاولاد والاقرباء لعقوبة شديدة . وكانت قيمة الجاو مدونة داخل دائرة في وسط العملة وتختلف من نصف درهم الى عشرة دنانير .

وانتشرت الجاو لاول مرة في تبريز في ١٩ شوال سنة ٦٩٣ هجرية ، لكن الاهالى لم يكن عندهم استعداد بالمرة للتعامل بالعملة الورقية بدلا من التعامل بالذهب والفضة ، بل ولم يكن هذا النوع من التعامل مألوا لديهم ، وانصرفوا عن التعامل بالجاو وامتنعوا عن التعامل به ، لكنهم - وكانوا يخشون عمال المغول - أجبروا على التعامل به ، فكانت النتيجة أن اضطربت أحوالهم وكسد سوق التجارة والمال وقطع البيع والشراء . وعندما أجبر عمال كيخاتو الاهالى على التعامل بالعملة الورقية هاجر جماعة كبيرة الى بلاد أخرى لا تتعامل بالجاو ، كما استعد عدد آخر منهم للثورة ضد الحكومة . وقد حدث مثل ذلك في شيراز ، وعصى الاهالى تنفيذ تعليمات الايلخان ولأول

مرة يقف الأهالي المسلمون موقفاً من الحكومة. وذكر صاحب كتاب «الحوادث الجامعة» في هذا الشأن ما يلي: «... كان الرجل منهم يضع الدراهم تحت الجاو ويبعطى الخباز والقصاب وغيرهما ويأخذ حاجته خوفاً من أعوان السلطان» (٤٦). كذلك لدينا وصف دقيق لما حدث في مدينة تبريز ذكره شرف خان البدليسي عن تداول الجاو وصدى ذلك على شعب المدينة، يقول: «نفذت عملة الجاو في يوم من أيام ذى القعدة من السنة المذكورة (٦٩٣ هـ) بمدينة تبريز واضطر أهل السوق بضعة أيام للتعامل بها في البيع والشراء. ثم نفذ صمبر طائفة من أهالي تبريز على تحمل هذا الضرر اللاحق بهم، فأثرت الرحيل على الإقامة. وطائفة أخرى ولو أنها كانت تفتح دكاكينها خوفاً من سطوة الحكومة ورجالها، إلا أنها كانت تخفى السلع والامتنعة ولا تظهرها. فضج الناس من الحالة وقلقوا أشد القلق واجتمعوا يوم الجمعة وناحوا ببائويل والثبور وجهروا بالشكوى والتذمر صائحين بالسخط واللمن على عز الدين مظفر الذي تسبب في هذه المصيبة العامة، وقد أراد الدماء والأوباش البطش به. وفي رواية أنهم فتمكوا به فعلاً...» (٤٧).

وعندما شعر كل من كيخاتو خان والوزير صدر جهان أن الجاو زاد الحالة سوءاً واضطراباً، وأن الإيرانيين قد يثورون جميعاً ضد قانون العملة الجاوية مما يعجل بالاطاحة بالملك والوزارة فأوحى الوزير صدر جهان إلى الإيلخان الغاء الجاو والعودة إلى التعامل بالذهب والفضة فأصدر كيخاتو خان أمراً بذلك وتغير اسم العملة من «جاو مبارك» إلى «جاو نا مبارك» أي «العملة المشئومة». وأصبحت في ذمة التاريخ ولم يبق منها في المعجم الفارسي سوى كلمة «چاوبان» وهو اللقب الذي أطلقه الأهالي على الوزير صدر جهان. وعميل كيخاتو خان على استرجاع الأهالي الذين جلوا عن أوطانهم، فعاد الناس إلى تبريز، وأخذوا يباشرون أعمالهم كما كانوا وكان شيئاً لم يحدث. وعلى هذا النحو تمكن الإيلخان ووزيره من السيطرة على الأهالي الثائرين فعادت الحياة إلى الاقتصاد المنهار والسوق الراكدة.

(٤٦) الحوادث الجامعة، حوادث سنة ٦٩٣ هجرية.

(٤٧) شرف خان البدليسي: شرفنامه، مرجع سابق، ص ١٤.

الانشقاق في بيت هولاكى وقتل كيخاتو :

ونال كيخاتو خان في أواخر أيامه غضب أمراء المغول وقادتهم بسبب افراطه في الشراب وقضائه معظم أوقاته في اللهو والفسق والفجور . كما أنه كان مصابا بالشذوذ الجنسي واللواط حتى أنه كان يفسق بصبيان المغول ، فكرمه الأمراء لهذا السبب وعابوا عليه شذوذه ، وبدأوا يثورون في وجهه ويهملون . تلى اقصائه . وكان ينزعهم هؤلاء الأمير بايدو أحد خدة هولاكو الذى لم يرقه أن يكون على العرش المغولى شخص سىء الخلق عديم الشرف مثل كيخاتو . وقد حدث في إحدى المناسبات أن أهان كيخاتو خان الأمير بايدو ، واتهمه بأنه على رأس مخالفيه ، والمثير للفتن والدسائس وعدده كيخاتو خان بالقتل إن تمادى في طريقه ومسلكه . فعاد بايدو الى مقر حكومته غاضبا . وشعر كيخاتو بما قد يديره بايدو ضده ، فقبض على عدد من الأمراء النحازين له واكتفى بحبسهم حتى يتضح الموقف الذى سوف يتخذه زعيمهم .

أما بايدو فانه ما أن وصل الى مقر حكومته حتى عبا الجند لحرب كيخاتو . وكذلك فعل الأخير واستعد لقمع مناوئيه ، وجهز جيشا كبيرا وضع على قيادته كل من الأمير آق بوقا والأمير طغاجار ووقعت معركة بين الفريقين ، كان النصر حليف جيش كيخاتو في البداية ، ثم تغيرت لصالح بايدو عندما انشق الأمير طغاجار على كيخاتو وانضم الى بايدو ، فهزم آق بوقا وانكسر جيش كيخاتو ففر من تبريز الى مغان ، لكن بعض الأمراء الثائرين قبضوا عليه وسلموه لبايدو ، فاحتجزه حتى قضى على أعوانه ثم أعدمه خنقا في السادس من جمادى الاولى سنة ٦٩٤ هجرية (٢١ أبريل ١٢٩٥ م) (٤٨) .

٦ - بابايدوخان (١٦ جمادى الاولى ٦٩٤ - ٢٣ ذى الحجة ٦٩٤ هـ)
(١٢٩٥ / ١٢٩٦ م) :

هو الأمير بايدو بن طوغان بن هولاكو بن تولى بن چنكيز خان ، اعتلى العرش في ١٦ جمادى الاول سنة ٦٩٤ هجرية ، أى بعد عشرة أيام من اعدام

(٤٨) حبيب الله شاملوئى : تاريخ ايران ، ص ٥٠٦ - ٥٠٨ .
وأيسا : مير خواند : روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ص ٣٦٣ - ٣٧٤ .

خصمه كيخاتو خان وذلك بعد اجتماع القوريلتاي في مكان بالقرب من مدينة ممدان برئاسة الامير طغاچار ، وقرروا بالاجماع تنصيب بايدو العرش الايخانى . وقد برر الامراء قتل الايلخان كيخاتو في اجتماعهم بأنه عاش عيشة لا تليق بمقام الجالس على العرش ، وأنه كثيرا ما خالف احكام الياسا ، لذا فقد استحق الحرمان من الحقوق التي كان يستمتع بها .

وكان بايدو في ذلك الفترة صغير السن قليل الخبرة خامل الذكر ، لكن كيخاتو بتصرفاته الشاذة والغريبة جعل منه شخصية يلتفت حولها بعد ان انهائه ذات مرة امام من هم ادنى منه درجة ، وهذا ما لا تقره احكام الياسا الجنكيزية التي تنص صراحة على أن امراء البيت الجنكيزي لا تتدر كرامتهم امام غيرهم ، وان اجرم احدهم فيجتمع القوريلتاي الذي من حقه وحده تشكيل محكمة لبحث مشكلته ، هذه المحكمة التي يحق لها ادانته ومجازاته . وان من يفعل غير ذلك يعاقب عقابا صارما لذلك فقد دعى الامراء والمشاركين في القوريلتاي الامير بايدو الى تولي العرش . وعلى أثر توليته تخلص من اتباع سلفه كيخاتو ، وقرر اعادة الوظائف والحقوق الى اصحابها ، وأغى الاوقاف الاسلامية من الضرائب ، وعهد بأمور الجيش وامرة الامراء الى الامير طغاچار ، كما اختار جمال دستجرداني للوزارة خلفا لصدر جهان وزير كيخاتو ، فاختر لقب الوزير بدلا من لقب « صاحب الديوان » . وسلك الامير طغاچار مسلك اباخان خان اذ جعل ادارة كل ولاية من ولايات الدولة في يد امير من الامراء (٤٩) .

ولم يكذب بايدو خان يقولى العرش الايلخاني ويستتبع لم الأمر حتى نازعه فيه الامير غازان بن أرغون - وكان واليا على خراسان من قبل والده حتى ذلك الوقت - والذي عظم فيه ما حدث لعمه كيخاتو ، وأيده في ذلك الامير نوروز أحد امراء المغول الذين أسلموا وخلص اسلامهم ، وقاد جند غازان في حربه ضد بايدو . ورأى الامير نوروز الايلخان الجالس على العرش صاحب شخصية ضعيفة وآلة في يد الامراء وأنه أسند أمور البلاد الى طغاچار ، وبرر مخالفته بقتله كيخاتو خان طبقا لاحكام الياسا الجنكيزية التي تنص

صراحة على أن قاتل أمراء الاسرة الملكية مهما كانت شخصيته يلزم القصاص منه ، لذلك فيجب على غازان القصاص من بابيدو . لاعداره دم كيخاتو .

وتوجه غازان ومعه الامير نوروز من خراسان الى آذربيجان لقتال بابيدو ، وفي نفس الوقت أرسل رسله الى بابيدو يفكر عليه قتل عمه بيد جماعة ليسوا من طبقته الأمر الذي يخالف أحكام الياسا ، وطالبه باجراء تحقيق عاجل ليلقى القتلة جزاءهم . واستعد كل فريق للآخر وانقسم المغول فريقيين ، والتقى الجيشان المتصارعان في اليوم الخامس من رجب سنة ٦٩٤ هجرية في مكان يعرف باسم « قرجان شيره » بالقرب من قرية « شير كيران » من ولاية مراغة ، فهزم بابيدو وانسحب من ميدان القتال ، وحاول إبرام صلح مع غازان ، وأرسل له رسلا من قبله ، لكن غازان لم يقبل الصلح . وكان هذا الأمر على هوى الامير نوروز قائد جيش غازان الذي شرف بدخول الاسلام بينما كان بابيدو قد اعتنق المسيحية ، وصار كل منهما داعية لدينه ، فكما اختلفت ديانتهم اختلفت مشاريعهم وأهدافهم .

وقع بابيدو فريسة لخيانة قائده وأمير أمرائه طغاچار ، الذي وجد أن الأمر قد خرج من يده سيده ، وأن دولته زائلة لا محالة . فأوعز الى بابيدو إعادة الكرة مرة أخرى ، وما أن اقترب الجيشان حتى انحاز طغاچار بجيشه الى جانب غازان وترك الايلخان وحده ومعه حرسه الخاص الذي لا يكفى لدخول المعركة ، فهرب بابيدو بدوره الى مرند ومنها الى بلاد الكرج فتعقبه الامير نوروز وقبض عليه قرب مدينة نخجوان ، واقتاده الى غازان فاصدر أمرا بقتله ، وتم ذلك في ٢٣ ذى الحجة عام ٦٩٤ هجرية بعد أن جلس على العرش الايلخاني مدة سبعة أشهر فقط (٥٠) . وهكذا لقي نفس المصير الذي لاقاه كيخاتو وشرب من نفس الكأس الذي شرب منها سلفه ، على حد قول خواندمير صاحب كتاب « حبيب السير » .

ان السبب الأساسي في هزيمة بابيدو ، ضعف شخصيته وقلة خبرته وانقياده للامير طغاچار الذي خانته ، كما خان سلفه من قبل ، واطلاقه الحرية

للامراء فأساءوا استعمالها ، ولم يستطع أن يميز المخلصين منهم من الانتهازيين الذين يخدمون مآربهم الشخصية ، الى جانب خيانة بعض أمرائه مثل طغاجار * ولم يكن بايدو خان لاهيا ولا فاسقا كسلفه كبخاتو ، بل كان متزنا عاقلا متحمسا للمسيحية مقبلا عليها فعمل على احياء الدين المسيحى ، غير أنه فى الوقت نفسه لم يكن يضر عداا ظاهرا للاسلام ، حتى أنه كان له ولد مال الى الاسلام واعتنقه ، فكان بايدو يحثه على أداء الصلاة جماعة مع المسلمين ، غير أن حبه الشديد للمسيحيين ورحبتهم أسخط عليه المسلمين (٥١) .

الفصل الثامن

المغول في إيران من عهد غازان الى نهاية الدولة الايلخانية

(العصر الاسلامي)

غازان خان (٦٩٤ - ٧٠٣ هـ) :

تولى غازان خان بن أرغون العرش الايلخاني بعد قتل بايدو خان .
ولد غازان سنة ٦٧٠ هـ (٢٤ ديسمبر سنة ١٢٧١ م وتربى في قصر جده
أباقان خان ، وكان يصحبه منذ نعومة أظفاره في رحلات الصيد ، وعندما بلغ
العاشرة من عمره عينه أبوه أرغون حاكما على خراسان تحت وصاية الأمير
نوروز بيك بن أرغون أقا ، أحد كبار أمراء المغول وابن الحاكم المغولي الذي
حكم الاقاليم الايرانية منذ عهد چنكيز الى هولاكو مدة تسع وثلاثين سنة .
والى الأمير نوروز يرجع الفضل في اسلام غازان خان ، فأحدث بذلك تغييرا
كبيرا في شكل الدولة المغولية في إيران . ان اسلام غازان خان يعد ملحمة
كبيرة لانتصار الاسلام على الديانات الاخرى ، خاصة اذا علمنا ان غازان كان
في بداية أمره بوذيا ، وفي الوقت نفسه كان يميل الى المسيحية نتيجة تربيته
وتنشئته عند « دسپينا خاتون » زوجة جده أباقا خان .

وما أن انتصر غازان على خصمه بايدو ، حتى أسرع ودخل تبريز في
العاشر من شهر ذى الحجة عام ٦٩٤ هجرية ، ودخلها دخول الظافرين ،
خاصة وأنه كان قد أشهر اسلامه ولبس عمامة المسلمين ، فاستقبله خارج
المدينة كبار رجالها وساداتها وعلماؤها وقضاتها المسلمون ، يتقدمهم الوزير
« خواجه صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني » الذي ما لبث أن نال ثقبة
الايلخان ، وأطلق يده في حكم البلاد . ثم أعلن غازان الايلخاني في اليوم الأخير
من شهر ذى الحجة سنة ٦٩٤ هجرية وكان ذلك اليوم مصادفا ليوم النوروز .
اسلام غازان خان :

كان غازان خان بوذيا في بداية أمره ، وكانت للديانة البوذية سيطرتها

وسطوتها في ايران منذ قدمت مع المغول ، ونشط كهنتها في نشر دينهم معتمدين في ذلك على قوة معتنقيها من المغول والترك ومن قدم مقيم من شرق آسيا من أجناس بشرية مختلفة أهمها الصينيون . وانتشرت معابدهم في ايران على حساب مساجد المسلمين . وكان كهنة بوذا يرسمون خططهم في نشر ديانتهم بطريقة منظمة وتخطيط دقيق للغاية ، من ذلك أنهم كانوا يحكمون حصارهم حول الأمراء الإيلخانيين ليكونوا سنداً لهم وعونا على استمرار نشر تعاليمهم في سهولة ويسر .

كما عرف غازان شيئاً عن المسيحية بفضل إقامته في طفولته مع « دسبينا خاتون » المسيحية النسطورية زوجة جده أباقا خان . وكانت تلك السيدة تطمع في ادخال الامير المغولي الدين المسيحي منتبهة فرصة حبه لها ، وكادت تنجح في خطتها لولا أن أباه أرغون خان واه امره خراسان وهو في العاشرة من عمره ، فاضطر الى ترك « دسبينا خاتون » والنوجه مع وصيه ومربيه الامير نوروز بيك . وكان نوروز هذا مسلماً تربى في أحضان الاسلام والثقافة الاسلامية ، وعاش عمره في خراسان ودرس على علمائها وفقهائها الذين الحنيف . وكان يعد من أوائل من حفظ كتاب الله العظيم من المغول . وتعصب غازان للدين الاسلامي رغم العداء الشديد بين المسلمين والمغول . فحجب الامير نوروز بيك الى غازان الدين الاسلامي الحنيف فطلب منه الامير الصغير أن يعلمه أصول الديانة الاسلامية ، فمال غازان الى الاسلام وكتب اعلانه الى أن أسر اليه الامير نوروز بيك أنه اذا أراد الانتصار على بايدو الذي يقف خلفه المغول ، فإنه يمكنه الاستعاذة بالمسلمين اذا دخل في الاسلام وشاركهم العقيدة ، وأنه سيجدهم جميعاً يؤيدونه وينضمون اليه في صراعه مع بايدو . فوافقه غازان ووعده بالدخول في الدين الاسلامي اذا وعب الله له النصر على خصمه .

وما أن تم لغازان النصر على الإيلخان بايدو حتى بر بوعده ، فأسلم في الرابع من شهر شعبان سنة ٦٩٤ هـ (١٩ يوليو عام ١٢٩٤ م) . وكان اسلام غازان حدثاً كبيراً ، كما كان يوم نطقه بالشهادتين يوماً مشهوداً . وقد تم كل ذلك بناحية « لار » في دماوند ، حيث بدأ بدخول الحمام والاعتسال تطهيراً لنفسه وبعثه من رجس الشرك وفعل الشيطان ، ثم لبس

رداء اسلاميا جديدا ، ونطق بالشهادتين على يدي الشيخ صدر الدين ابراهيم ابن العارف الشهير الشيخ سعد الدين محمد بن حموية الجويني ، وذلك في مجلس كبير ، وشهد شهادة الحق في الملاء العام (١) . وتبعه في نطق الشهادة قرابة مائة ألف نفر من المغول ، فدخلوا في الدين الاسلامي الحنيف . وانتخب غازان اسما اسلاميا صاحبه بلقب اسلامي ايضا ، فتنسبى بمعز الدين محمود كما تلقب بالسلطان مع الاحتفاظ باللقب المغولي « خان » ، فعرف في التاريخ باسم « السلطان محمود غازان خان » .

وكان أول « يرليغ » (٢) أصدره السلطان محمود غازان خان هو الزام جميع المغول في المملكة الدخول في الدين الاسلامي ، وان يتبعوا في سلوكهم تعاليم الاسلام وآدابه . أما ثاني « يرليغ » فكان تحطيم جميع الكنائس المسيحية ومعابد اليهود واليونانيين وبيوت النار الزردشتية في كافة أنحاء المملكة ، وان يحل محلها المساجد لاقامة شعائر الدين الاسلامي . وصار السلطان محمود غازان خان ينفق بسخاء على الزهاد والعباد والسادات الذين وجدوا في بلاطه ترحيبا . كما أمر بتشديد دور العبادة وترميم مقابر الشيوخ والأئمة المتهدمة نتيجة الغزو المغولي الاول . وكان يقوم بنفسه بالدعوة للإسلام في المناسبات الدينية ، تلك التي احتفل بها لأول مرة منذ توقفها في عهد هولاكو . وكانت اجادته للغة الفارسية ، والتي كان يتكلمها بطلاقة مع خواصه ، وفهمه لأكثر ما يقال باللغة العربية سببا في أن يتمكن من نقل الديانة الإسلامية الى المغول بلغتهم ، حتى أنه كان يقف لهم موقف الواعظ والمرشد والمعلم يخاطبهم بالمغولية ويشرح لهم كتاب الله وسنة رسوله والآداب الإسلامية حتى هداهم الله على يديه . وتبع اسلام غازان وتحول دولته من الوثنية الى الاسلام أن قطع صلته بالخاقان المغولي الجالس على العرش الجنكيزي في خانباليق (بكين) بالصين ، بعد أن كان حكام ايران ابتداء من هولاكو حتى عصره يعدون أنفسهم نوابا للخاقان . أما السلطان محمود غازان خان فأنه قطع كل صلة له مع مغول منغوليا والصين ، حتى أنه

(١) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .

ج ٣ ، ص ٢١٢ .

(٢) يرليغ كلمة مغولية تعني الامر والفرمان .

منع ما كان يحمل اليهم من أموال ، وأفرد نفسه بالذكر والخطابة ، وضرب
السكة باسمه وطرد نائبيهم من بلاد الروم (٣) .

وتمشيا مع الروح الاسلامية التي سادت عصره ، فان السلطان محمود
غازان خان أصدر يرليغا يحتم على المسيحيين واليهود الذين ساعدوا المغول
في ابداء المسلمين ارتداء أزياء مميزة ليعرفوا بها خارج دورهم ، وطردهم من
الوظائف العامة وجعلها قاصرة على المسلمين . فلاقوا على يد المسلمين مثل
مالاقاه المسلمون على أيديهم من قبل .

ان هناك حادثة ذكرها ابن حجر العسقلاني في كتابه الدرر الكامنة
وتبعه فيها عدد من المؤرخين مثل الشوكاني في كتابه « البدر الطالع بمحاسن
من بعد القرن السابع » وغيره ، تحيرنا في اسلام غازان خان ، ولو في بداية
أمره بالاسلام ، ذلك أنه عندما أسلم قيل له أن الدين الاسلامي يحرم نكاح
نساء الآباء . وكان غازان خان قد أضاف الى نسائه نساء أبيه طبقا لعادات
المغول وتقاليدهم التي تحتم انتقال نساء الأب الى الابن ما عدا أمه . وكان
أحبهن الى قلبه « بلغان خاتون » أكبر نساء أبيه ، فهم ان يرتد عن الاسلام .
فقال له بعض خواصه من المسلمين بأن أباك كان كافرا ولم تكن « بلغان
خاتون » معه في عقد صحيح ، انما كان مسافحا لها ، فاعقد أنت عليها فانها
تحل لك ، ففعل ، ولولا ذلك لارتد عن الاسلام ، واستحسن ذلك من الذي
افتاه به لهذه المصلحة (٤) .

ونظر كثير من أمراء المغول وأشرافهم ، بل وعامتهم ، الى تحول غازان
عن عقائد أجداده الى الاسلام نظرة سخط وكراهية ، خاصة وأنهم وجدوا
الدولة قد تغيرت لغير صالحهم ، فادى ذلك الى قيام الثورات والاضطرابات
وتفشيت الدسائس والفتن فيما بينهم ، وما ذلك الا أن عديم اسلامهم حال
دون تدبؤهم المناصب العليا في الدولة ، وحتى في حالة اسلامهم فقد نافسهم

(٣) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(م ١٣ - تاريخ الدولة المغولية)

المسلمون في تلك المناصب ، ووصلوا الى البلاط وقربهم السلطان اليه ، واعتبرهم خاصته والمدافعين عنه . وأيضا لم يقلل اعتناق غازان خان للإسلام كمغولي من كراهيته للمصريين ، ودخل معهم في صراع رهيب وحروب طاحنة أدت بحياته في نهاية الأمر .

سياسة غازان خان الداخلية :

ما أن تولى غازان خان الحكم المغولي في ايران وجلسه على العرش الايلخاني حتى نصب قائد جيوشه الأمير نوروز بيك امرة الأمراء ، وأسند اليه ادارة شئون البلاد أو بمعنى أصح فوض اليه نيابة حكم المملكة ، كما عين أخاه خدابنده واليا على خراسان ، وعين خواجه صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني وزيرا . ثم شرع يتعقب مناوئيه من أمراء بايدو ومخالفيه في اعتناقه الدين الاسلامي الحنيف . وتمكن من القضاء عليهم دون رحمة وشفقة ، فقتل الأمير طغاچار ، وكان أقوى الأمراء سطوة ويخشى منه القيام بثورة تطيح بالسلطان لتمرسه في مثل هذه الأعمال ، فتحايل عليه غازان خان حتى قبض عليه وأعدمه . ثم تخلص من أعوانه ومؤيديه من الأمراء والقادة ، فقتل جماعة منهم حتى قيل أنه قتل في شهر واحد ما لا يقل عن خمسة من أمراء المغول وسبعة وثلاثين من حكامهم المنتشرين في الأقاليم الايرانية المختلفة . كما تمكن السلطان غازان خان من احباط ثورتين قام بهما كل من الأمير « أفرنك » الابن الأكبر لكياختو خان ، والأمير « توكان » الابن الأكبر لبایدو خان ، وكانا قد حاولا الاستيلاء على العرش بالقوة والإطاحة بغازان خان والعودة بالدولة الى سابق عهدهما مغولية چنكيزية تحكمها الياسا والعرف المغولي .

وفي تلك الأثناء انتهب مغول ما وراء النهر فرصة عدم وجود قوات ايلخانية كافية في خراسان حتى أغاروا عليها بقيادة « أوجاي بن براق خان » ودمروا المنطقة تماما ، فأعادوا للأمان حملة چنكيز خان وما تركته من دمار وتشرد وسفك للدماء ، في البلاد بحيث قيل أن ما تركه جحافل المغول الأول آتت عليه حملة « أوجاي » . ووصلت تلك القسوات المتوحشة حتى اقليم مازندران ، واقتربوا من العاصمة تبريز . وتصدى لهم الأمير نوروز وتمكن من محاصرتهم وقطع المدد عنهم وحاصره في منطقة اختارها لتكون ميدان

معركته . وتمكن من انزال هزيمة ساحقة بالمغول (٥) ، وأجبرهم على الفرار إلى بلاد ما وراء النهر لا يلوون على شيء .

واستغل الأمير نوروز هذا الانتصار لصالحه ، وبدأ يستبد بالأمور ويصدر القرارات دون الرجوع إلى السلطان محمود غازان خان ، وأتى بنصرات لم يوافق عليها الوزير خواجه صدر جهان ، فما كان من نوروز إلا أن أعفاه من منصبه وأسنده إلى أحد أعوانه وهو « خواجه جمال الدين دستجرداني » وتلى ذلك تنحية الكثير من أعوان الوزير خواجه صدر جهان وإعادة توزيع وظائف الدولة العليا ، واختصها لأقربائه والمقربين إليه . وعلى هذا النحو قبض الأمير نوروز على الشئون العسكرية والأمور الإدارية وأصبحت الدولة كلها في يده ولم يترك للسلطان شيئاً .

ولم يرق جماعة من الأمراء استبداد الأمير نوروز وانفراده بالحكم ، فاتخذ جماعة منهم ووقفوا في وجهه ، وتزعهم « سوكاي » وهو ابن يشموت ابن هولكو ، و « بولا » و « أرسلان أوغول » من حفدة جوجي بن چنكيز خان ، ورفعوا راية الثورة وتعضبوا للمذهب البوذي ، وحاولوا جمع المغول الذين لم يسلموا بعد ليقفوا في صفهم ، كما اتصلوا بمن أسلم من المغول بثنونه عن دينه الجديد . وطبقاً لما كانت لدى الأمير نوروز من سلطات مطلقة وحرية في العمل تصرف بمفرده مع الثائرين ، وأعدم جماعة من الأمراء بتهمة المؤامرة على ملك الاسلام « السلطان محمود غازان خان » . وأشرك معهم الوزير السابق صدر جهان في المؤامرة ، وأراد اعدامه ، لكن أحد الأمراء المقربين من غازان خان يدعى « هرقداق » تمكن من تبرئته من التهمة الموجهة إليه ، وثبت أن الوزير خواجه جمال الدين دستجرداني كان وراء التهمة ، فأمر السلطان محمود غازان خان بقتله بعد ثبوت تهمة استغلاله السلطة والاستيلاء على أموال الدولة ، فتم اعدامه في ٦ ذى الحجة سنة ٦٩٢ هجرية ، وأعاد صدر جهان إلى الوزير مرة أخرى .

(٥) يطلق على مغول التركستان الذين يرأسهم خانات من أسرة چغتاي بن چنكيز خان بالمغول التورانيين .

نهاية الأمير نوروز :

أراد السلطان محمود غازان خان أن يعيد الأمور إلى نصابها بعد الفوضى والتسيب الناتجين عن استبداد الأمير نوروز ، فأقدم على تعيين صدرجهان وزيرا حتى يشعر نوروز أن عصر نفوذه قد ولى ، وذلك لما بين الوزير والأمير نوروز من عداوة ونشاحن . وواقع الأمر أن الوزير صدرجهان كان يسعى بكل الوسائل للإيقاع بالأمير نوروز والقضاء عليه . وحتى يوقعه في التهلكة اصطنع رسائل كتبها بمساعدة أخيه « قطبجهان » على لسان الأمير نوروز ، منها رسالة موجهة إلى الملك المنصور محمد سلطان المماليك في مصر والشام . وكان الاتصال بالمماليك يعد أكبر الجرائم عند المغول للعداوة بينهما . وقال فيها : « ان غازان خان قد أسلم فعلا ، لكن أمراءه لا يزالون على دين أجدادهم وعلى ذلك فان حكومة إيران على رأسها كفرة » (٦) . وطلب في آخر الرسالة أن يهاجم إيران وذكر له أنه يقبض في يديه زمام الأمور ومنه بتسهيل مأموريته وفتح أبواب إيران لسلطان المماليك واعتلاء العرش الأيلخاني .

وبهذه الطريقة مهد الأخوان صدرجهان وقطبجهان المؤامرة ضد الأمير نوروز ، وأصمقا له تهمة التآمر سرا مع سلطان المماليك في مصر ، وأطلعا غازان خان على المؤامرة التي تحاك ضده . وكان غازان خان نفسه غير مرتاح لتصرف الأمير نوروز ، فاستمع إلى وشايتهما وأنصت إليها . فأمر بالقبض على الأمير نوروز دون تحري الدقة ، وأمر بإعدامه هو وأخوته وأبنائه وجميع أفراد عائلته ، وضم إليهم عددا كبيرا من المقربين إليه . أما الأمير نوروز فانه ما أن بلغه قرار السلطان حتى فر إلى هراة ، واحتتمى بحاكمها الملك فخر الدين كرت . فأصدر غازان خان أوامره إلى قائده « قتلغشاه » بالتوجه إلى هراة والقبض على نوروز . فجهز الأخير حملة عسكرية بلغ تعدادها ٧٠ ألف جندي مغولي ، وتوجه إلى هراة وحاصرها ، وطلب من ملكها تسليم الأمير نوروز ، فوجد الملك فخر الدين كرت أن الأمور قد تازمت ، وأن حياته مهددة أكثر من ضيفه نوروز - وكان متزوجا من

(٦) رشيد الدين فضل الله الهمداني : تاريخ مبارك غازاني - داستان غازان خان ، تحقيق كارل يان ، انجلترا في ١٩٤٠م ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

ابنة أخيه - وخشى عاقبة الأمور ، فقبض على الأمير نوروز وسلمه الى أعدائه ، فقتله قتلغشاه في ٢٢ ذى القعدة سنة ٦٩٦ هجرية . وبهذه الطريقة المفجعة قضى غازان خان على الأمير نوروز الذى كان له الفضل فى ارتقائه العرش الإيلخانى وتشرفه بدخول الاسلام وحشره فى زمرة المسلمين .

ونهاية خواجـة صدرجهان أيضا :

ثم جاء دور الوزير خواجة صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى الذى كان سديبا فى قتل الأمير نوروز بيك ، فلقى ما لاقاه عدوه بالأمس ، ذلك أنه اتهم باستغلال نفوذه واستيلائه على أموال الدولة . وتوزيعه وظائف الدولة العليا على غير مستحقينها . وكانت قد وصلت الى مسامع غازان خان الكثير من تصرفاته ، فأصدر أمرا بأن يقوم قتلغشاه بشطره نصفين . وتم اعدامه على هذا النحو فى ٢٢ رجب سنة ٦٩٧ هجرية ، ثم تبعه أخوه قطب الدين أحمد « قطبجهان » وكذلك أفراد عائلته وأقاربه والمحيطين به فقتلوا جميعا فى تبريز فى مذبحه رهيبة . وعلى هذا النحو افقرضت أسرة صدرجهان الوزير الأديب العالم السياسى الماهر والإدارى الحازم . وإن كان ما يؤخذ عليه سعائته للفنن والوفيفة بالآخرين وحبه للأمال . وخلفه فى منصب الوزارة خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى الطبيب والمؤرخ المعروف صاحب كتاب « جامع التواريخ » وكتب أخرى .

وبتلك المذابح القتالية التى شملت كبار رجال الدولة المغولية فى عهد السلطان محمود غازان خان قضى على معظم أمرائه ووزرائه وكبار الموظفين . وعلى حد قول السيد هنرى هوارث فى كتابه تاريخ المغول أنه من النادر أن تترى صفحة من كتاب رشيد الدين فضل الله من ملاحظة خاصة بأعدام موظف (٧) .

علاقات غازان خان بالماليك حكام مصر والشام :

أمضى غازان خان شطرا كبيرا من حياته ، وهو متربّع على العرش الايلخاني ، في محاربة المماليك حكام مصر والشام . وقد وصلت أنباء ، الى السلطان محمود غازان خان تفيد أنه سادت مصر حالة من الضعف والتفكك بسبب التناحور على العرش والسلطة بين أمراء المماليك ، وبخاصة في الفترة التي اغتصب فيها كل من كتبغا ولاجين العرش من الملك الناصر محمد بن قلاوون ، مما شجع السلطان محمود غازان خان على التفكير في فتح بلاد الشام وضمها الى مملكته على أن تكون خطوة للوثوب على مصر وضمها الى أملاكه .

ان هناك عوامل ساعدت السلطان محمود غازان خان على مهاجمة سورية ، منها أن الملك الناصر محمد كان يحرض أمراء المسلمين على طرد المغول من إيران والعراق ، وأيضا مهاجمة جيش مصري بلاد الأرمن . وهي دولة حليفة طبيعية للدولة المغولية في إيران ، بل كانت تعد تابعة للمغول الأمر الذي عده السلطان محمود غازان خان اعتداء على ممتلكاته . كذلك استقبال السلطان المملوكي كتبغا عصاة المغول الذين فروا من وجه غازان خان بعد انتصاره على باببدو واعتناقه الاسلام فقد هاجر عدد كبير من جنود باببدو خان بعد تشتتهم وطلبوا الإقامة في مصر . ويعرف هؤلاء باسم « المغول العويرانية » . ويذكر أبو الفدا « أن عدد الفارين من وجه غازان زاد على عشرة آلاف بيت ، ولوا وجههم شطر مصر بزعامة « طارغيه » صهر « منكوتيمور بن هولاكو » الذي ناصر باببدو خان على كيخاتو خان . وأنه لما دارت الأيام دورتها واستطاع غازان أن يبعث على العرش الايلخاني في إيران أراد أن يأخذ بثأر عمه من منكوتيمور ففر هو وجماعته يريدون مصر وأظهروا رغبتهم في اعتناق الاسلام لكي يسمح لهم بالدخول » (٨) . ولما وصل هؤلاء الى نهر الفرات كاتب نواب الشام كتبغا يخبرونه بأمر العويرانيين ، ويطلبون منه الاذن بدخولهم مصر . فجمع السلطان أمراء الدولة واستشارهم في هذا الامر ، فاتفق الرأي على انزال عامتهم بساحل بلاد الشام وحضور

(٨) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٣٤ .

رؤسائهم الى مصر . ويعلق على تلك الواقعة المؤرخ المصرى المقرئى بقوله : « كان كتبغا مغولى الجنس ، فلا عجب اذا مال اليهم واحتضنهم واعتم بهم أمرهم اعتمادا اثار في قلوب أمراء الدولة الاحن والأحقاد عليه ، وخصوصا عندما ظهر أنهم قد عدلوا عن الدخول فى الاسلام وتمسكوا بعقائدهم الوثنية (٩) . لكن كتبغا رفض أن يتعرض لهم بسوء ، اذ كان يرمى الى اتخاذهم عوناً له على البقاء فى كرسي السلطنة . »

كانت كل هذه العوامل مشجعة على ازدياد قوة الخلاف بين المغول الايلخانيين والماليك وظهر العداء سافرا ، وتوعد السلطان محمود غازان خان الماليك وصمم على ابادتهم والتمثيل بهم واستعد كل فريق لملاقاة الآخر . وما أن سرب سيف الدين قتيبي نائب السلطان فى دمشق مع جمعاة من الأمراء فى خمسمائة من الجنود الى ايران ولجأوا الى السلطان محمود غازان خان - وقد أبلغ سيف الدين قتيبي السلطان محمود غازان خان ما آلت اليه حالة سورية فى نهاية حكم لاجين - حتى تشجع السلطان المغولى وبدأ يفكر فى امتلاك بلاد الشام وتحقيق أطماع المغول فيها ثم مواصلة السير الى مصر (١٠) .

ويمكننا أن نتصور أهمية تلك الحادثة وما كان لها من أثر فى علاقات الملك الناصر محمد بن قلاوون بالسلطان محمود غازان خان ، والذى كان يتهيب الماليك بعد ما رآه من شجاعتهم وحسن خططهم وانتصارهم على ملك أرمينية . فأدرك غازان خان أن أوضاع أعدائه سيئة للغاية ، وأن الخلافات بينهم وصلت الى طريق مسدود بحيث لا يمكنهم لم شملهم والدخول فى حرب ينتصرون فيها . وكانت رغبة غازان خان متجهة الى الاعتداء على دولة الماليك ، وظن أن أحوال مصر ونزاع أمرائها ستساعده على تحقيق مآربه . وانتهاز ذرصة ارسال الأمير « بلبان الطباخى » نائب حلب جيشا الى ماردين عاث فيها فسادا ، فاتخذ غازان ذلك جحة فى غزو الشام (١١) .

(٩) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(١٠) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(١١) مفصل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٦٢٢ - ٦٢٣ .

وحتى تأخذ حروب غازان خان مع سلاطين مصر والشام الصبغة الشرعية ، استفتى رجال الدين والعلماء ، المذنبين أجمعوا على الجهاد ، فأخذت حملته الصبغة الشرعية وأظهر ذلك ما كان للمغول تجاه المماليك من أحقاد دفينة . وشجعه على اقتحام سورية قتل الملك المنصور واعتلا ، الملك الناصر محمد العرش المملوكى للمرة الثانية ، وما تبع ذلك من خلل فى الأوضاع فى كل من مصر وسورية ، فقام فى خريف عام ٦٩٧ هجرية بتجهيز حملة قوامها ثلاث تومانات (التومان ببساوى عشرة آلاف) من جنود مغول وإيرانيين ، وعهد الى قائده قتلغ شاه قيادة الجيش ، وأمره بالتوجه الى بلاد سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وأن يسير بحذاء نهر الفرات ، وأخبره بأنه سوف يسير على رأس جيش آخر نحو ديار بكر . وقد انضمت اليه قوات مغولية وفدت من مختلف النواحي حتى وصل تعداد الحملة المغولية ضد المماليك تسع تومانات (أى ٩٠ ألف مقاتل) .

ولما وصل الى مسامح السلطان الناصر محمد بن قلاوون خبر الحملة المغولية وعبر غازان خان على رأس الجيش جهز جيشا لصد المغول . وفى بادىء الأمر لازم المصريين سوء الحظ ، ذلك أن العويراتية طلبوا من الملك الناصر إشراكهم فى القتال ، فوافق السلطان المملوكى على ذلك . لكنهم ما كادوا يصلون الى غزة حتى دبروا مؤامرة لاغتيال الملك الناصر محمد وقواده ، وكانوا يرمون الى إعادة كتبغا المغولى الأصل الى العرش المملوكى ، والأخذ بثأر اخوانهم الذين قتلوا فى عهد لاجين . فكان من أثر ذلك أن تأخر زحف الجيش المصرى ، وعمت الفوضى والاضطراب صفوف المماليك وفقد أثناء ذلك كثير من آلات الحرب . على أن قواد الجيش المملوكى أظهرُوا نشاطا وحكمة فى احباط تلك المؤامرة ، وإعادة النظام الى وحدات الجيش ، ولقى المتآمرون جزاء ما فعلوا ويقول المقرئى : « شنق منهم نحو الخمسين ونودى عليهم : هذا جزء من يقصد اقامة الفتنة بين المسلمين ويتجاسر على الملوك » (١٢) .

موقعة الخازندار :

قاد السلطان الناصر محمد الجيش المملوكى واتجه به من القاهرة الى بلاد الشام ، فدخل عسقلان في ٨ ربيع الاول سنة ٦٩٨ هجرية (١٢٩٨ م) . وما أن وصلت اليه الاخبار بكثرة عدد جنود العدو ووفرة عدته حتى وقع الرعب في قلوب الجند المماليك ، وخاصة عندما رأوا أنواعا من الجراد محلفة في الجو ، فاعتبروها نذيرا بالهزيمة ، فخارت قساوهم ووعنت عزائمهم وضعت قلوبهم . والتقى الفريقان في قرية تعرف باسم « مجمع المروج » في وادى الخازندار بين حماة وحلب ، وذلك في ٢٧ ربيع الاول سنة ٦٩٩ هجرية يقول المقريزى : « كان عدد المماليك عشرين ألفا ، وبلغ المغول خمسة أضعافهم » (١٣) . وكان جيش المماليك يجمع أكفا الامراء والقواد ويضم بعض رجال الدين لبث روح الحماس والجهاد وحب النصر في الجنود . أما السلطان محمود غازان خان فقد رتب جيشه بحيث تكون الخيل في المقدمة ، وأمام من ورائها الفرسان راجلين بقصد حماية رجال جيشه من هجمات العدو . ولم يمتط فرسان المغول خيولهم الا بعد أن حمى وطيس ألقنتال .

وتدأرخ صاحب كتاب المنهل الصافي المعركة التي دارت بين المغول والمصريين في موقعة الخازندار ، يقول : « وعدى غازان والتتار (وبقصد المغول) ، وخرج السلطان (ويقصد الناصر) لتلقى العدو ، وساق الى حمص ، وركب بكرة الاربعاء سابع عشرين الشهر وساق الى وادى الخازندار ، فكاذبت الوقعة ، والتحم القتال واشتد الحرب ، وثبت عسكر الاسلام الى العصر ولاج لهم الانصر . ثم تكاثر عساكر التتار قريبا من مائة ألف ، فشرع المسلمون في الهزيمة ، وأخذ الامراء السلطان وتخبروا به وجمعوا ظهورهم ، وساروا على درب بعلبك والبقاع ، وبعض العسكر عبر دمشق ، واستشهد في المصاف جملة من الامراء » (١٤) .

وكان النصر حليف المغول في معركة الخازندار . أما المماليك فانهم انهزموا هزيمة فاحشة رغم انتصارهم في بداية المعارك وتفوقهم على المغول .

(١٣) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة الدول والملوك ، ج ١ ، ص

٩٢٨ - ٩٢٩ .

(١٤) أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

ويعطينا مفصل بن أبي الفضائل وصفا دقيقا عن كيفية انتهاء المعركة بقوله : « صارت الاخبار مضطربة ، وأخبر قوم أن التتار عزموا على الهروب ، وثنوا أعنتهم للرجوع ، فأشير على السلطان (الناصر) بسرعة المسير اليهم فركبت العساكر بعد أن قاموا على ظهور خيولهم ثلاثة أيام بعدددهم وأسلحتهم . ولما التقى الجمعان حملت الميسرة المنصورة على ميمنة العدو ، فكسرتهم وسأقت العساكر خلفتهم الى خلف أثقالهم ، وحملت ميسرة العدو على ميمنة العساكر المنصورة فكسرتها . والتقوا على السلطان والقلب وفوقوا نحوهم سهاما كدفعة المطر أو كجرية النهر المنهمر . ثم حصل تخاذل أوقعه الله تعالى بمشيئته (في جيش الناصر) فهربت الميمنة ، وهرب من كان وراء السناجق السلطانية ، وانفل الجيش ، وانفصل الامر بعد العصر . وساق السلطان بطائفة يسيرة نحو بعلبك وبقيت الغنائم والاموال والعدد والاثقال ملقاة ملو الارض ، ورمى الجند سائر عددهم ليخفوا عن خيولهم لينجوا بأنفسهم » (١٥) .

فتسح دمشق :

زحف غازان خان بجيشه المغولي الفارسي بعد انتصاره على الجيش المملوكي في موقعة الخازندار الى حمص ، فنهب جند المغول ما كان فيها من خزائن السلطان والمؤن والذخائر ، ثم رحلوا الى دمشق ، فوقع الزعب في قلوب سكانها ، وخرجت النساء سافرات ، وترك الناس حوانيتهم وأموالهم وازدحموا على أبواب المدينة يريدون الخروج منها ، ودفعوا الاجور الغالية لأصحاب الخيل والحمير لحمل من عجز منهم عن السير ، واعتمد بعضهم بالقرى ورؤوس الجبال ، وسار البعض الآخر الى مصر . وقد اتفق جماعة على اختيار وفد من كبرائهم وعلماهم لمقابلة السلطان محمود غازان خان والتماس الامان منه . ومن هؤلاء ابن جماعة وابن تيمية وغيرهما من القراء والفقهاء والاعيان . ولما مثلوا بين يديه قبلوا الارض وسألوه الامان ، وقدموا له طعاما على سبيل الهدية فاعتذر عن قبوله ، وأخبرهم انه أرسل الأمان لأهل دمشق مع أربعة من المغول (١٦) . فعادوا الى مدينتهم واجتمعوا

(١٥) مفصل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ٦٣٤ - ٦٣٥ .

(١٦) مفصل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ٦٣٦ - ٦٤٠ .

وأيضا : الذهبي للعبر ، ج ٥ ، ص ٣٩١ - ٣٩٢ .

بالمسجد الأموى ، وتلا عليهم رجل من المغول صورة الأمان فى ٥ ربيع الثانى سنة ٦٩٩ هجرية (١٢٩٩ م) ، وتضمن الكتاب تأمين الاهالى جميعهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، والعمل على ايجاد حكومة رشيدة تقرر العدل والنظام اذا ضمت مصر الى حوزة المغول . وقد ورد فى هذا المنشور بعض عبارات تشهير الى ان سلاطين مصر وحكامها قد حادوا عن جادة العدل والانصاف حتى اضطربت احوال البلاد فى عهدهم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل المغول الى الشام ومصر لتخليصهم مما هم فيه . ونورد بعض ما جاء بذلك المنشور : « بقوة الله تعالى واقبال دولة السلطان محمود غازان ، ليعلم أمراء الطومان والالوف والمائة وعموم عساكرنا المنصورة ممن هو داخل تحت ربة طاعتنا . ان الله لما نور قلوبنا بنور الاسلام وعدانا الى ملة النبى عليه افضل الصلوة والسلام ، افمن شرح الله صدره للاسلام ، فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك فى ضلال مبين . وما أن سمعنا ان حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الاسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالايمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لامورهم النثم ولا انتظام ، وكان أحدهم اذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وشاع عن شعارهم الحيف على الرعية ، والتخطى عن جادة العدل والانصاف حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الاسلامية ، على أن توجهنا الى تلك البلاد لازالة هذا العدوان ، واماطة هذا الطغيان مستصحبين الجرم الغدير من العساكر . وفخرنا عن أنفسنا ان وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد ازلانا العدوان والفساد ، وبسطنا العدل والاحسان فى كافة العباد ، ممثلا للأمر الإلهي » ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (١٧) .

وعلى هذا النحو من القرعيب والترهيب دخل المغول دمشق ، واستولوا على بلاد سورية وفلسطين ودخلوا بيت المقدس وغزة . وكانت العهود التى تضمنها المنشور الذى أصدره السلطان محمود غازان يؤمن فيه الاهالى لم يكن الا سرايا وخدعة ، فما أن نزل السلطان بظاهر دمشق حتى عاثت

جندة فسادا في كافة البلاد ، واشتغلوا في أعمال النهب والتخريب وبخاصة في بيت المقدس والكرك . كما تعرضوا لأففس الآثار فخرّبوا بعضها وأحرقوا بعضها الآخر ، ولم ينج من أيديهم الا قلعة دمشق أنديعة التي اعتصم بها واليها ، وحال دون استيلاء المغيرين عليها .

ولما وقف حاكم القلعة المملوكي « أرجواش المنصوري » في وجه المغول وتأكّدوا أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء عليها ، فوض السلطان محمود غازان خان الأمير تتيق وبعض الأمراء المماليك الذين التجّأوا بغازان للتفاوض في استسلام القلعة ، فأبى حاكمها ، وحدث حوار عنيف بين الوفد المملوكي الممثل لغازان وأرجواش المنصوري . قالوا له : « دم المسلمين في عنقك ان لم تسلمها فنجلبهم على ذلك بقوله : « دم المسلمين في أعناقكم انتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم الى غازان وحسنتم اليه المجيء الى دمشق وغيرنا . ثم وبخهم وامتنع عن تسليمهم القلعة ، وظل متحصنا بها » (١٨) .

ومع ما افترقه المغول من عيب ونهب فقد كان يقل بكثير عما فعله أجدادهم عندما أغاروا على بلاد الشام ، بل لم نسمع أنهم آذوا الأهالي المسلمين ، ولم يقوموا بدك المدن وذبح الأهالي كعهد الناس بهم . وهذا في حد ذاته يدل على أن الاسلام قد هذب نفوسهم ، وأن اقامتهم في البلاد الايرانية قد صقلت حياتهم وحولتهم من البربرية المتوحشة الى أناس مستأنسين ، وأن ما فعلوه في بيت المقدس يدل على تعصبهم للاسلام ليس أكثر (١٩) .

عودة خازان خان الى ايران :

واضطّر السلطان محمود غازان خان الى العودة الى ايران فترك دمشق في ٩ جمادى الاولى سنة ٧٠٠ هجرية (١٣٠٠ م) بعد أن علم أن مغول التركستان الجغتائيين هجموا على حدود بلاده الشرقية من ناحية خراسان ، وعاثوا في شرقي المملكة الايلخانية الفساد والدمار منتهزين فرصة تواجد

(١٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٢٥ .
(١٩) ميرخواند : روضة الصفاء ، ج ٥ ، ص ٤٠٣ - ٤١١ .

السلطان غازان خان ومعظم جيشه في سورية وخلو البلاد من جنود يدافعون عنها ، فقام بمحاربتهم وتمكن من السيطرة على الموقف وطرده المعتدين من بلاده ، ففروا لا يلوون على شيء ، ولم يكتف بذلك بل تعقبهم في ديارهم وبيدد جمعهم .

هزيمة المغول وطردهم من سورية :

وقعت سورية برمتها في قبضة المغول ، الذين استبدلوا الادارة المملوكية بإدارة مغولية تتبع الايلخان الجالس على العرش المغولي في تبريز ، وخلص السلطان محمود غازان خان نائبه « قتلغ شاه » لادارتها ومعه سفن ألفا من جند المغول . وقبل أن يغادر غازان خان دمشق في طريق عودته الى تبريز ، كتب الى سيف الدين قيقق عهدا بنياية الشام ، وقال فيه : « ٠٠٠ فلما اتصل بنا ما بمصر من المظالم ، ومن غيها من غاصب وظالم هاجرنا لنصرة الله تعالى ونصرة الدين وبادرنا لانقاذ من فيها من المسلمين ، وراسلناهم وأذرناهم وكاتبناهم وزجرناهم ووعظناهم ، فلم ننفخ فيهم العظة ، وايقظناهم فلم يكن عندهم يتظية ، فلقيناهم بقوة الله تعالى فكسرناهم وتلعنا آثارهم وملكنا الله تعالى أرضهم وديارهم وتبعانهم الى الرمل ، وحطماناهم كما حطم سايمان وجنوده وادى الذمل ، ولم ينج منهم الا ألفريد ولا سلم الا البريد ، فلما استقر نملكننا للبلاد وجب علينا حسن النظر في العباد ، فأحضرنا الفكر فيمن نقلده الأمور ، وأمعنا النظر فيمن نفوض اليه مصالح الجمهور ، فأخبرنا لها من يحفظ نظامها المستقيم ويقيم ما اناد من قوامها القديم ٠٠٠ فرأينا أن الجناح العالي الأوحدي المؤيدي الكفيلي المشري المجاهدي الأمير الهمامي النظامي السيفي ملك الأمراء في المعالين ظهر الملوك والاسلاطين فنفيق هو المخصوص بهذه الصفات الجلية ٠٠٠٠ فلذلك رسمنا أن نفوض اليه نياية السلطنة الشريفة ٠٠٠٠٠ » (٢٠) .

انفرد قيقق بحكومة دمشق ، وكان قتلغ شاه قد لحق بغازان خان بعد عشرة أيام من رحيل الايلخان ، فعدر قيقق بالمغول وقتلهم وتتبعهم حتى

طهر البلاد منهم ، وأبلغ قبيچق السلطان الناصر نبأ خروج غازان خان وقتلغ شاه من دمشق وعودة سورية الى حوزة المماليك (٢١) .

أن أحداث سورية واحتلال المغول لها وطردهم منها ترينا ما كانت عليه أحوال كل من مصر وإيران من اضطراب ، ففي مصر كان الخلاف بين الأمراء ، وهم الذين شجعوا غازان خان على مهاجمتهم بعد أن أطلعهم المنشقون منهم على نواحي الضعف وثغرات الوهن والخلل في الدولة المملوكية . كذلك كان على غازان خان أن يتوجه الى خراسان لدفع غارات المغول التورانيين (الجغتائيين) الذين هاجموا البلاد الإيرانية من الناحية الشرقية ، وعاثوا في مدنها وقراها وحضرها ومدرها الفساد والدمار . كذلك كان انشقاق الأمير سيف الدين قبيچق نائب السلطان الناصر محمد بالشام وخيانتة أولا وعودته ثانيا لخيانة سيده الجديد غازان خان من أسباب اضطراب الأمور .

ومع ذلك فقد رحب السلطان المملوكي الناصر محمد برجوع الأمير المنشق سيف الدين قبيچق الى حظيرة المماليك مرة أخرى بعد أن خانهم وانضم الى عدوهم ، ليكون سندا له ضد المغول ألد أعدائه في ذلك الوقت . أما الأمير سيف الدين قبيچق وتصرفاته الشاذة التي أودت بانسلاخ الشام عن مصر وهزيمة الجيش المملوكي وتدميره ، فإنه من المرجح أنه قد أفاق لنفسه ، وأيقن أنه الخاسر لا محالة ، خاصة بعد أن وصلته أخبار عن الاستعدادات الحربية الهائلة التي كان يقوم بها السلطان الناصر محمد ، وتوقعه انتصار المماليك على المغول . فكان ذلك أحد العوامل الرئيسية التي أدت بالأمير سيف الدين قبيچق الى ترك المغول وانقلابه عليهم وعودته الى حظيرة المماليك مرة أخرى .

ووجد السلطان محمود غازان خان نفسه في موقف حرج للغاية ، وكان عليه استعادة سورية من أيديهم حتى يعيد للدولة الأيخانية هيبتها واختارها . فجهز جيشا سار به عبر الفرات واتجه الى انطاكية ، وكان ذلك في شتاء عام ٧٠٠ هجرية (١٣٠٠ م) غير أن قسوة البرودة حملته

على عدم مواصلة الزحف نحو الشام ، فرجع أدراجه بعد أن عاجم أنطاكية وجبل السماق وقام جنوده بنهب الاموال والفنك بالاغالي . كما قام بأسر عدد وغير من الرجال حتى بيع الواحد منهم بعشرة دراهم ، ولكن حالت البرودة الشديدة والامطار الغزيرة والثلوج الكثيفة دون دخول المغول دمشق . وكان غازان خان يأمل أن تساعد الدول الأوروبية في انتزاع سورية من قبضة المماليك ، فأرسل الى ملكي إنجلترا وفرنسا عدة سفارات يطلب المعون ضد المماليك فلم يلقى طلبه قبولا (٢٢) .

ولما بدئس السلطان محمود غازان خان من مناصرة ملوك أوروبا له ، عول على مهادنة المماليك فأرسل في شهر رمضان سنة ٧٠٠ هجرية (مايو سنة ١٣٠١ م) سفارة الى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . كان على رأسها كل من « خواجه ناصر الدين علي وجمال الدين موسى بن يوسف القاضى يرحمان رسالة يعييه فيها لهجومه على أطراف بلادهم دون سبب ، وعرض مهادنته ثم توعد بالانتقام اذا لم يكف عن عدوانه أو اذا وصل الى مسامعه أن المماليك قد عولوا على الأخذ بثأرهم . وختمها مناشدته باسم الدين ان يعمل على تلافى ما قد يقع ببلاده من الخراب والدمار ، وما يحصل بالبلاد من البلاء . كما أخبره في نفس الرسالة أن المغول قد عولوا على جموع الجيوش وشحذ الهمم وصنع المجانيق وآلات الحصار والمسير الى بلاده ان لم يمثل الى المهادنة والسلام ، وطلب من الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يعد له الهدايا والتحف ، وختمها غازان خان بقوله : « قد عذر من أنذر وأنصف من أنذر » .

ومع أن رسالة السلطان محمود غازان خان تحمل معنى المهادنة، إلا أنها كانت تتضمن في طياتها في الوقت نفسه التهديد والوعيد . وكان أسلوب الرسالة حاسما ، وكأنها صادرة من حاكم الى من هو دونه قوة وقسوة ، كما أنها شملت بعض الآيات القرآنية والوعظ والحكم الإسلامية ، بجانب عبارات التهديد والوعيد . قال غازان خان في رسالته : « ... وعانحن الآن

مهتمون بجمع العساكر المنصورة ، ومشحزون غرار عزائمتنا المشهورة ،
ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار ، وعازمون بعد الانذار وما كنا
معذبين حتى نبعث رسولا « . وقد سيرنا حاملي هذا الكتاب ٠٠٠٠٠ . وقد
حملناهما كلاما شافهناهما به ، فلتنقوا بما تقدمنا به اليهما ، فانهما من
الأعيان المعتمد عليهما في الديوان ، كما قال الله تعالى « فله الحجة البالغة
ولو شاء لهداكم أجمعين » . فلتعدوا لنا الهدايا والتحف فما بعد الانذار من
عاذر ٠٠٠٠٠ » (٢٣) .

ورد الملك الناصر محمد على تلك الرسالة برسالة أطول منها ، يفند فيها
أقوال غازان خان ، ويبرهن بالدلة على أن المغول هم الذين بدأوا بالشر
وبادروا إلى العدوان . ورفض السلطان المملوكي ما طلبه غازان خان من
الهدايا والتحف حتى يبدأ هو بارسالها إليه ، ووعده بأنه سوف يردها
مضاعفة كي لا يقوم ذلك دليلا على خذلانه . كما عاب على غازان خان آباءه
وأجداده الوثنيين ، وذكره بما فعلوه بالمسلمين . ثم أكد الناصر محمد بن
قلاوون لغازان خان أنه على أتم الاستعداد لقبول مصادقته إذا خفف من
غلاوته وصرف الكفار الذين اتخذهم بطانة له . وأعاد الناصر محمد الرسولين
يحملان رغبته في الصلح وميله إلى المصافاة ، والعمل على ما يعود على البلدين
بالخير ، وأبلغهما أنه إذا تم ذلك فانه سوف يجنح إلى السلم ، ويصبح
الفريقان على حد قوله سبحانه وتعالى « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم
أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

وكانت رسالة الناصر محمد بن قلاوون أكثر قوة وأشد إيلاما حتى أنها
أوغرت صدر غازان خان الذي لم يجد بدا من مواصلة الصراع الدموي مع
المماليك ، فأخذ يعد عدته ، وفي الوقت الذي عمل المماليك على جمع صفوفهم
وتقوية مركزهم لصد أي اعتداء جديد من جانب المغول .

موقعة مرج الصفر :

لم تؤت المراسلات المتبادلة بين الإيلخان المغولي والسلطان المملوكي
ثمرتها المرجوة ، واستعد الفريقان للقتال ، واستؤنفت الحرب من جديد

بعد عام واحد من مغادرة الوفد المغولي القاهرة ، وتحرك المغول بجيوشهم الجرارة حتى نزلوا على ضفاف نهر الفرات ، ثم تقابلوا مع جيوش أمراء الشام بمكان يقال له « الكوم » بالقرب من عرض سنة ٧٠٢ هجرية ، حيث اشتبك الفريقان ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين . وقاد جيوش المغول « قتلغ شاه » في مائة ألف من المغول وأعانهم من الكرج والارمن . وبينما عبر السلطان محمود غازان بنفسه نهر الفرات وزار كربلاء التي كان يقدسها بسبب ميوله الشيعية ووزع الهدايا والعطايا وهو في ضريح الامام الحسين . ثم تقدم الى عانه . وبعد أن اطمأن الى جيشه عاد أدراجه الى أردبيل وأقام هناك ينتظر النتيجة التي جاءتته مخيبة لآماله .

وفي الجهة المقابلة خرج الملك الناصر محمد من مصر سنة ٧٠٢ هجرية (١٣٠٢ م) على رأس جيش كبير لملاقاة المغول في بلاد الشام . وقد سبق رحيله الى أرض المعركة ببلاط الشام ، اجتماعه بالامراء وقادة الجند وتشاوروا في الخروج لصد المغول وتعاهدوا على القتال ، وقد بلغ الحماس من الجند أشده ، كما صحب الخليفة العباسي في القاهرة جيش المماليك ، ورافقه من الامراء الكبار كل من الامير سالار والامير بيبرس الجوشن كير ، وكان الاخير قائد الجيش المملوكي ومن أعظم أمراء مصر في ذلك الوقت . وفي دمشق استعد الجند للقتال واضطار الاهالي الى الجلاء عن المدينة . ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى التقى نواب الشام بالسلطان في ضواحي دمشق ، ومن ثم اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية بهرج الصفر وأخذ السلطان والخليفة المستكني بالله العباسي يحثان الجنود على القتال ، ودارت بينهم وبين جيش المغول بقيادة قتلغ شاه عدة معارك انتهت الامر فيها بأن أوقع المماليك الهزيمة بالمغول ، وفر قتلغ شاه مع فلول جيشه ، فغرق بعضهم ومات البعض الآخر في الصحراء من شدة الجوع والعطش . ويصف الفريزي قتال الناصر محمد للمغول في الشام بقوله : « مشى السلطان والخليفة بجانبه ومعهما القراء يتلون القرآن ، ويحذون على الجهاد ، ويشوقون الى الجنة ، وصار السلطان يقف ويقول الخليفة : يا مجاهدون ! لا تنظرون لسلطانكم ، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم صلى الله عليه وسلم (م ١٤ - تاريخ الدولة المغولية)

والناس في بكاء شديد ومنهم من سقط عن فرسه الى الارض ، وتواصى
بببرس وسالار على الثبات في الجهاد ، وعاد السلطان الى موقفه ، ووقف
الغلمان والجمال وراء العسكر صفوا واحدا ، وقيل لهم : من خرج عن المصاف
غافقلوه ولكم سلاحه وفرسه» (٢٤) •

وفي الثانى من شهر رمضان سنة ٧٠٢ هجرية (مارس ١٣٠٢ م)
تقابل المغول والمماليك عند مرج الصفر على مقربة من حمص ، وانفض
المصريون على المغول ، وكان تعدادهم قرابة سبعين ألف مقاتل ، وهزمهم
هزيمة نكراء ، وهلك معظم جيش المغول ، ومن لم يمت بالسيف مات من شدة
الظما • وغر قائد المغول قتلغ شاه شرقا الى الفرات وتبعته فلول جيشه
الذين نجوا من الهلاك المحقق ، فغرق بعضهم في نهر الفرات ومات آخرون
في الصحراء ، واسر المماليك عشرة آلاف من المغول ، كما غنموا اسلحة ومؤن
لا حصر لها ، ومن ضمن ما غنموه عشرون ألف رأس من الماشية (٢٥) •

أما فيما يتعلق بالمغول ، فانه لما وصل خبر هزيمتهم اضطربوا
اضطرابا شديدا ، كما حقق غازان خان على ما حل بجنده من النكبات ، وزاد
غضبه حين وصل اليه كتاب من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون
يحقّر فيه من شأنه ، ويطلب منه الجلاء عن العراق ، ويتوعده بأنه سيأتي
اليه بجيوشه ليقصيه عن تلك البلاد •

وكانت نتائج المعركة حاسمة حيث ظهر التفوق العسكرى للمماليك
المصريين ، كما عرف المغول انهم لن يستطيعوا منازل المصريين • أما غازان
خان فانه لم تقم له بعد تلك الموقعة قاتمة ، فقد أصيب بحالة من الاضطراب
والوجوم عندما بلغه خبر الهزيمة ، واستدعى على الفور مجلس الامراء - وكان
أشبه ما يكون بالقوريقتاي في العهد الوثنى - لمحاكمة قادة الجيش المنهزمين ،
فحكم المجلس على قاتدين منهم بالاعدام ، أما قتلغ شاه والامير جويان فانهما
ضربا ضربا مبرحا ، وعدهم غازان خان مسئولين عن النكبة • كما قام غازان

(٢٤) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٣٣ • وأيضا أبو الفداء
في المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٤٨ •
(٢٥) أبو الفداء : كتاب المختصر ، ج ٤ ، ص ٩٣٣ •

خان باتخاذ اجراء غريب ليس له مثيل في التاريخ ، ذلك أنه ضرب خيمة كبيرة وأحضر كل قادة الجيش الذين اشتركوا في القتال ، وأعادهم هدايا قيمة تشمل ذهباً وفضة وجواهر ، حتى قيل أنه خلال خمسة عشر يوماً وزع ثلاثمائة تومان ذهباً (ما يعادل ثلاثة ملايين من الجنيهات الاسترلينية الذهبية) وعشرين ألف خلعاً موشاة وخمسين حزاماً مرصعاً وثلاثمائة حزام ذهبي وأسلحة نفيسة وأشياء أخرى تفوق الوصف (٢٦) .

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنه عاد الى القاهرة في موكب حافل ، وكان أهلها قد استعدوا لاستقباله . وعندما دخل القاهرة مر السلطان بين جموع غفيرة استقبلته بالبشر والسرور يحوطه حراسه وكبار رجال دولته . يتبعهم ألف وستمائة من أسرى المغول مكبلين بالسلاسل والاغلال ، ويبتدلي من رقبة كل منهم رأس مغولى آخر ، وحمل ألف رأس من رؤوس قتلاهم على أسنة الرماح تعلوها طبول الحروب المغولية الكبيرة بجلودها الممزقة (٢٧) .

وفاة غازان خان :

لقد كانت الهزيمة التي منى بها المغول في موقعة « مرج الصفر » قاسية على السلطان محمود غازان خان . ويتضح من تصرفاته بعد المعركة أن صحته قد ضعفت واعتلت بسبب تلك الكارثة التي حلت بجيوشه وأودت بسمعته ، واشتد الضيق به حين علم بمؤامرة ترمى الى خلعه وتولية الأمير « أفرنگ ابن كيخاتو » عرش المغول في إيران ، فلم يعمر كثيراً ومات كمداً وهو في عنفوان شبابه ولم يكمل الثانية والثلاثين ، وذلك في ١١ شوال سنة ٧٠٣ هجرية (١٧ مايو سنة ١٣٠٤ م) قرب قزوین ، وأوصى بأن ينقل جسده الى المدفن الذي أعده في « شنب غازان » في تبريز بعد أن ظل في الحكم الايلخاني تسع سنوات .

أخلاق غازان خان وسلوكة :

يعد غازان خان أحد سلاطين المغول المشهورين ، فلا غرو أن حزن

(٢٦) حبيب الله شاملوئی : تاريخ ايران ، ص ٥١٣ .

(٢٧) المقریزی : کتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٩٣٧ - ٩٣٨ .

المسلمون من الايرانيين لوت غازان خان حزنا عميقا ، انه اعاد للاسلام قوته ومكانته التي كان يتبوهاها في بلادهم قبل غزوات چنكيز خان . وكذلك حزن عليه المسلمون من المغول والذين خلص اسلامهم لانه كبح جماح الوثنية وقضى على الفوضى التي كانت منشرة في امبراطوريتهم . وعلى الرغم من شدته وقسوته ، فقد كان رحيمًا اذا ما قورن بأسلافه ايلخانات المغول ، كما اشتهر بكرامته لسفك الدماء الا اذا اعتبر ذلك أمرا ضروريا لاقرار الامن والسكينة في ربوع دولته الواسعة . كما عرف نفسه انه كان اداريا ممتازا ومصلحا اجتماعيا عظيما ، ذلك انه ادخل الكثير من ضروب الإصلاح في الادارة المالية وشجع النمو الاقتصادي في امبراطوريته . وكان الخراج يفرض حتى عهده وفقا لأهواء الحكام من المغول وعمالهم من الايرانيين ، فلما آل الحكم اليه ، أمر بأن تسمع الأراضي كلها من جديد ، وأن تتخذ نتائج ذلك أساسا في فرض الضريبة . وأصدر قرارا أمر فيه أن يحاط الراعي علما بكل ما يتصل بالضرائب عن طريق تطبيق البيانات الوافية عند مداخل القرى أو في المساجد وكنائس المسيحيين ومعابد اليهود وبيوت نار الزردشتيين . وكذلك وصلت قراراته البدو الرحل في غلاتهم ومراعيهم بواسطة النقش على الخشب أو الحجارة أو المعدن أو الاسواح المكتوبة . وشجع غازان خان أيضا السكنى في المناطق البعيدة والمتطرفة والتي هجرها سكانها بسبب الاعصار المغولى والتي ظلت منذ ذلك الحين خربة خاوية على عروشها ، وأمر باسقاط الضرائب عن كامل المستعمرين الجدد تشجيعا لهم على الاستمرار في الإقامة وتعمير المناطق الخالية .

وكان غازان خان أول من خرج من ايلخانات فارس عن طاعة الخاقان في بكين (خانباليق) بعد أن تحول الى الاسلام ، حيث كان ايلخانات فارس الى عهد غازان مجرد عمال اقطاعيين تابعين للخابقان . وأفرد غازان خان نفسه بالذكر والخطبة (٢٨) ، ويستفاد من النقود المضروبة في عهد غازان خان انه اتخذ لنفسه صفة الحاكم المستقل . كما ادخل روحا جديدة من الثقة في الميدان التجارى والاقتصادى بأن ألغى الاوراق المالية ذات القيمة التحكيمية

الرجراجة . والتي سبق لسلفه أن استحدثها على الطريقة الصينية ، وأحل محلها نقداً معدنياً صحيح الوزن والقيمة . وكان لهذه التدابير أثرها الواضح في زيادة موارد الدولة الرسمية ، فارتفعت من ١٧٠٠ تومان إلى ٢١٠٠ تومان ، أى حوالى اثنى عشر مليون دولار (٢٩) .

ومن أعمال غازان خان القيمة والتي تستحق التسجيل أنه أعاد تنظيم القضاء في إيران بعد أن عبث به العرف المغولى . وكان هذا العرف ساذجاً غير محدود دائماً ويصعب تطبيقه على شعب متحضر مثل الشعب الأيراني . ومع أن غازان خان يعد أول زعيم مغولى بعد جنكيز خان يحسن استخدام اللباس ، فإنه حاول في بداية حياته نشر الكثير من رسومها وآدابها على أنها تراث آبائه وأشداده ، إلا أنه وجدها غير مستحسنة وتعارض مع أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فأعاد للشرع الإسلامى سلطانه وقوته ، وأنشأ محكمة عليا إسلامية . وذكر هيوارث أن غازان خان كان يحرص كل الحرص على نشر العدل وبسط الأمن بين رعاياه ، وأنه تشدد في تنفيذ الشرع واختيار القضاة لتوفير أسباب السعادة والطمأنينة بسين المتقاضين (٣٠) .

ومن أعماله الخالدة كذلك والتي تدل على حبه للفنون والتعمير قيامه بتجميل عاصمة مملكته تبريز بأبنية فخمة ، وإيقافه الأموال الضخمة على المساجد ودور العلم ، وتشبيده مرصداً فلكياً ومدرسة للعلوم الدنيوية لما لب من الفائدة العملية . وكان غازان خان بطبيعته انساناً مثقفاً ثقافة عالية ، فقد كان على معرفة كاملة باللغتين الفارسية والمغولية ، وعلى اطلاع وافر باللغتين العربية والصينية ، وعلى معرفة واسعة بتاريخ المغول وأصولهم وفروعهم ، وفي الوقت نفسه كان يهتم بالكيمياء وله معمل في قصره كان يقضى فيه أوقانا طويلة بين أبحاثه العملية . وفي عهد غازان خان انتهت اللغة الفارسية الى أن تكون الى جانب اللغة التركية لغة الدبوان الرسمية وأيضا اللغة الدولية . ولم يختصر غازان خان للغته المغولية لأنها كانت

(٢٩) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (الترجمة العربية)،

ص ٣٩٢ .

Howarth; History of the Mongols, Part III, P. 491.

(٣٠)

تعوزها المرونة والطواعية . ولم يكن شمة مجال لنشوء حياة فكرية مستقلة بين المغول ، فأقبلوا على الفارسية وتراثها والاسلام وحضارته حتى أصبحوا قوة جديدة للاسلام والمسلمين .

وكانت علاقة السلطان محمود غازان خان بدول أوروبا المسيحية تدل على حنكة سياسية وبراعة دبلوماسية ، فحاول اتباع سياسة أسلافه في ايجاد تحالف عسكرى مع الدول الأوروبية ضد المماليك ، فأجرى اتصالات مع الامبراطور البيزنطى « اندرينيكوس الثانى » ، وملك فرنسا « فيليب الرابع » ، وملك انجلترا « أدوارد الأول » وملك أراجون (جزء من دولة أسبانيا الحالية) « جيمس الثانى » ، وكانت بينه وبينهم مراسلات وبعثات ، الا أن جهوده في هذا المضمار لم تأت بنتائج ايجابية لعاملين أساسيين . وهما اسلام مغول ايران وانشغال الدول الأوروبية بمشاكلها الخاصة وانصرافهم الى المخاصمات والعداوات وفتور الناحية الصليبية عندهم آخر الأمر .

محمد خدابنده أولجايتو (٧٠٣ - ٧١٦ هـ) :

خلف أولجايتو أخاه غازان خان على العرش بعد وفاته تاركاً الدولة الايلخانية وهى فى أوج عزها ومجدها . وكان اخوه السلطان محمود غازان خان قد اختاره ولياً لعهد اثناء حياته ، وأقطعته حكومة خراسان نغاشى فيها يدير شئونها . ولم يكن أولجايتو فى العاصمة تبريز عندما توفى غازان خان ، بل كان يدير احدى المعارك على تخوم الهند . وعلى عادة مغول ايران فان الأمراء الايلخانيين انقسموا الى فريقين ، كل فريق اختار أميراً لتنصيبه ايلخانا ، فكانت جماعة على رأسها الأمير « مولاي » تحبذ اعتلاء أولجايتو العرش ، والأخرى يتزعمها الأمير « هرقداق » تسعى لتنصيب الأمير « الأفرنك بن كيخاتو خان » . وتمكن أولجايتو من الوصول الى السلطة دون اراقة دماء ، ذلك أنه أرسل فى الخفاء جماعة استطاعت ان تغتال كل من الأفرنك وهرقداق وأنجزت عملها فى هدوء وسرية كاملة (٣١) . واعتسلى أولجايتو العرش الايلخانى فى مدينة « أوجان » فى احتفال رسمى فى ١٥ ذى الحجة سنة ٧٠٣ هجرية (٢١ يولية سنة ١٣٠٤ م) ، ولم يكن عمره قد تجاوز الرابعة والعشرين .

ويعد أولجايتو ثامن الحكام الإيلخانيين في إيران والعراق ، وهو ثالث أبناء أرغون خان وأول حاكم مغولي يعتنق المذهب الشيعي ، وتسمى بمحمد ، واستبدل لقبه المغولي بلقب إسلامي فأصبح « خدابنده » (أى عبد الله) ، كما تُلَقَّب ببغيات الدنيا والدين ، فعرف باسم « السلطان محمد خدابنده أولجايتو » . ونظراً لاعتناق أولجايتو المذهب الشيعي ومحاولته نشره في مملكته ، فإن العامة من الشعب الذين كانت غالبيتهم من أهل السنة ، أطلقوا عليه لقب « خربنده » (وكلمة خر بمعنى الحمار في الفارسية) استهزاءً منه واحترقاراً لشأنه وتصرفاته وقد أورد شرف الدين خان البديلي رواية أخرى تقول ان سبب تسمية هذا السلطان بلقب خربنده هو أنه بعد وفاة أبيه كان قد هرب خوفاً من غازان خان إلى نواحي شيراز وكرمان ، واختلط هناك بالخرابندكية والمكارين (أى الحمارين والبالغين) ، وأمضى وقتاً غير قليل منهم في التردد على هرمز وما حولها ، فأطلق الناس عليه لقب « خربنده » (الحمار) (٣٢) . وعندما بدأ أولجايتو يزول نشاطه في الحكم ، كان أول قرار أصدره هو التزام كافة المغول باعتناق الدين الإسلامي الحنيف ، وأنه ديسن الدولة الرسمي . كما كان قراره الثاني هو الإبقاء على « خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني » في منصب الوزارة ، ويعاونه في عمله خواجه سعد الدين محمد الساجي .

السلطان أولجايتو وانتصاره للمذهب الشيعي :

يجدر بنا الإشارة إلى الأسلوب الذي أدى إلى اعتناق أولجايتو بن أرغون الدين الإسلامي الحنيف وانتصاره لمذهب آل البيت . ولد أولجايتو ، شأنه شأن كافة المغول لا دين له ، وعادة ما يتلقفه رجال الدين من كافة الأديان والعقائد يحسنون له معتمدتهم ويحبون له الأديان الأخرى . أما أولجايتو فإنه قد وقع تحت تأثير ديانة أمه « أروك خاتون » وكانت مسيحية نسطورية من أميرات قبيلة الكراييت ، فعمدته وأسمته « نيقولا » . ونظراً لتعلقه الشديد بأمه فإنه استمر على ديانته المسيحية حتى وفاتها . ثم أسلم بعد ذلك وهو لا يزال شاباً في مقتبل العمر نتيجة تأثير إحدى زوجاته المسلمات

(٣٢) شرف الدين خان البديلي : شرفنامه ، الجزء الثاني ، الترجمة العربية ، ص ٢٠ .

التي رغبته في اعتناق الدين الاسلامي . ولما كان المذهب الحنفي هو السائد في خراسان في ذلك الوقت ، فاعتنق أولجايتو الدين الاسلامي على مذهب الامام أبي حنيفة ، وقرب اليه رجال الدين الحنفية وفقهاءهم ، وتعلم منهم أصول الدين وجزئياته ، وهو فخور بدينه الجديد مقتنع تمام الاقتناع بالرسالة المحمدية . ثم قدم تبريز عالم شافعي المذهب كان يعتبر أعلم أهل السنة في زمانه هو الفقيه نظام الدين عبد الملك الشافعي . وما أن سمع السلطان بمقدمه حتى طلبه للاستفادة من علمه وفقهه ، ورتب له مناظرات مع علماء المذهب الحنفي ، فكان يناظرهم في حضرة السلطان فيلجهم . ولما تحققت له الغلبة جذب هذا السلطان الى المذهب الشافعي وعسدل عن المذهب الحنفي . ويذكر مؤلف كتاب « تاريخ الشيعة » أنه عدل برهة عن الدين الاسلامي ، وأن الذي أعاده بعد رده أحد أمراء البلاط المقربين اليه ويدعى « طرمطاز » وكان شيعيا ، فأخذ يطلعه على محاسن مذهب آل البيت ويرغبه فيه ، فمال معه . وفي هذه الآونة ورد على السلطان السيد تاج الدين محمد الآوي الامامي مع جماعة من الشيعة ، فوقعت بينه وبين نظام الدين الشافعي مناظرات أدارها السلطان بنفسه . تلى ذلك توجه السلطان الى العراق وزيارته مرقد أمير المؤمنين علي عليه السلام ، فرأى ما تقوى به مذهب الامامية ، وعرض ما شاهده على أمرائه ، حرضه على اعتناق مذهب أهل البيت من كان منهم شيعيا . فأظهر السلطان التشيع ، وأمر به الجند وأهل المملكة ، وأجرى في جميع بلاده مراسم المذهب الامامي، وجعل السيد تاج الدين محمد الآوي نقيب الممالك (٣٣) .

وفي الخامس من صفر سنة ٧٠٩ (سنة ١٣٠١ م) أمر السلطان أولجايتو بحذف أسماء الخلفاء الثلاثة « أبي بكر وعمر وعثمان » من الخطبة ، وتعصب للشيعة ومذهب آل البيت ، وأصدر الأوامر والفرامانات الى البلاد بذكر ونقش أسماء الأئمة الاثني عشر في الخطبة والسكة ، فكان اعتناقه للمذهب الشيعي وتعصبه الأعمى له نكبة كبيرة على مملكته ، ذلك أنه اتخذ آنئذ اجراءات شديدة مع أتباع المذهب السني ، وكانوا لا يزالون أصحاب الأغلبية في البلاد ، وأخذ شيع الحرب الأهلية يخيم على الدولة ، وتعقدت

الأمر بين الحكام والمحكومين . وعندما أدرك السلطان أولجايتو في آخر أيامه ما حل بدولته من تفتت وسلبية نتيجة ذلك أعاد ذكر الخلفاء الأربعة الراشدين في الخطبة ، ودون أسماءهم على السكة .

سياسة أولجايتو الداخلية والخارجية :

اعتلى أولجايتو العرش المغولي والمملكة في عزها ورخائها ، وسار على نهج أخيه غازان خان في حسن معاملته لرعاياه والنهوض بهم والوفاء بجانب الفقراء والمظلومين ومنع تعدى المغول على الأهالي . وكان من أهم الأحداث الداخلية أن أصدر أمرا في ١٠ شوال سنة ٧١١ هجرية بقتل الوزير « خواجه سعد الدين محمد الساجي » بعد اصطدامه بالوزير الأول خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني ، واتهام الأخير له بالاستيلاء على مبالغ طائلة من أموال الدولة رغم ما كان يكنه السلطان لوزيره خواجه سعد الدين الساجي من احترام وتقدير ، كما قتل جماعة من أتباعه الذين شاركوه في تهمة الاستيلاء على أموال الدولة ، وكذلك المقربين إليه . وأسند منصبه إلى غريمه « تاج الدين على شاه جيلان التبريزي » الذي كان وراء اتهام الوزير خواجه سعد الدين محمد الساجي . وبمقتله انفرد خواجه رشيد الدين فضل الله بالصدارة وإدارة كافة أمور المملكة .

أما علاقته بالدول الأجنبية ، فإنه حافظ على الصلات الودية مع دول أوروبا المسيحية ، فأرسل السفراء إلى « البابا كلمنت الخامس » و « أدوارد الثاني » ملك إنجلترا وفيليب الجميل ملك فرنسا لعقد حلف مغولي مسيحي للاستيلاء على بلاد الشام ومصر وإنزال العقاب بالمماليك والقضاء عليهم . وقد بقي من تلك الكتب التي تشير إلى هذا الموضوع كتابان أحدهما من أدوارد الثاني بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٣٠٨ م (٣٤) . كما لا تزال بسجلات باريس رسالة السلطان محمد أولجايتو إلى الملك فيليب الجميل التي يرجع تاريخها إلى شهر مايو سنة ١٣٠٥ م .

كذلك جرد السلطان محمد خدابنده أولجايتو حملة عسكرية توجهت إلى آسيا الصغرى بناءً على طلب الإمبراطور البيزنطي « ميخائيل باليولوجوس

.. The Crusade in the Later Middle Ages, P. 233 - 259. (٣٤)

Michael Palaeologos لمساعدته في صراعه مع الدويلات التركية في الاناضول والتخفيف عن جيبهته . ومع أن الجيش المغولي قد تمكن من اجبار الترك على تقسيم جيوشهم في آسيا الصغرى والتخفيف من حدة الضغوط على الدولة الجيزنطية . فلم تؤثر الحملة المغولية في سير الصراع التركي البيزنطى او بمعنى اصح الصراع الاسلامى المسيحى في آسيا الصغرى .

أما العلاقات المصرية المغولية في عهد السلطان محمد خدابنده أولجايتو ، فانها تأثرت تأثرا كبيرا باعتناق الايلخان للمذهب الشيعى . وقد حاول السلطان محمد خدابنده أولجايتو تخفيف حدة العداء الذى استحكم بين المماليك والمغول في بداية عهده ، فأوفد السفراء الى بلاط السلطان الملك الناصر محمد تؤكد حرصه على توثيق عرى الصداقة وتأكيد حسن نياته نحوه . وخطب سلطان المماليك في إحدى رسائله بالأخ وسأل اخماد الفتن وطالب الصلح حتى أنه قال في آخر خطاب له : « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه » ، كما بعث اليه هدية فلبى السلطان طلبه وجهز هدية مع بعض الرسل (٣٥) ، وبأدلة ودا بود . على أن أولجايتو لم يكن مخلصا في تودده للناصر محمد بن قلاوون خاصة بعد اعتناقه المذهب الشيعى ومحاولته فرضه على المسلمين وسبه للخلفاء الراشدين الثلاثة الأول ، فاصطدم بالمماليك السنيين وطمح في الاستيلاء على سورية ومصر (٣٦) .

وقد استأنف المغول في عهد أولجايتو هجومهم على سورية فقاموا بحملة على بلاد الشام في ١٨ صفر سنة ٧١٢ هجرية ، ويرجع السبب في ذلك الى وقوف السلطان محمد خدابنده أولجايتو على حالة البلاد السورية من كل من قراسنقر والأغرم وهما من قادة الناصر محمد وكانا قد لجأ الى السلطان أولجايتو ورحب بهما ورتب لهما الرواتب السنية . وكان السلطان الملك الناصر محمد قد اتهم قراسنقر باشتراكه مع لاجين في قتل أخيه الأشرف خليل بن قلاوون وعول على الأخذ بثأره . فما كان من قراسنقر الذى كان يملكه الشعور بجريمته الا أن فر هو وأعدائه واتجهوا شرقا حتى وصلوا الى البلاد الايرانية ومثلوا بين يدي أولجايتو الذى استقبل كلا من قراسنقر

(٣٥) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، القسم الأول ، ص ٦ .

(٣٦) دكتور على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، ص ١٦١ .

والأفرم على انفراد ، فحسن له قراسنقر السر إلى بلاد الشام واحتلالها وهون عليه أمر فتحها ، أما الأفرم وإن كان قد حسن له أيضا الاستيلاء على بلاد الشام فقد حذره من قوة السلطان وكثرة عساكره . وعندما اقتنع السلطان محمد خدابنده أولجايتو بذلك جرد حملته على الشام ، وسارت من تبريز لكنها توقفت عند اصطدامها بقلعة الرحبة الواقعة على نهر الفرات ولم يتمكن من الاستيلاء عليها . وكانت قلعة الرحبة تعد أولى القلاع المملوكية على الحدود الشامية . وما أن فشل السلطان أولجايتو في إخضاع قلعة الرحبة حتى عاد أدراجه في السادس والعشرين من شهر رمضان من نفس العام يجبر أنذبال الفشل وخيبة الأمل . وقد كافأ أولجايتو الأميرين قراسنقر والأفرم على المعلومات التي أدليا بها عن حالة دولة المماليك بوظائف في دولته ، فمنح قراسنقر ولاية مراغة وأقطع همدان للأفرم (٣٧) .

وفاة السلطان محمد خدابنده أولجايتو :

وتوفي السلطان محمد خدابنده أولجايتو في ٢٨ رمضان سنة ٧١٦ هجرية (١٦ ديسمبر سنة ١٣١٦ م) ولم يزد عمره على أربعين عاما ، نتيجة افراطه في شرب الخمر وتفريطه في صحته على ملذاته وشهواته ، فمرض مرضا شديدا أودى بحياته . وقد اتهم الوزير خواجة رشيد الدين فضل الله الهمداني بقتله بعد ذلك .

وكان أولجايتو رجلا اداريا ممتازا وسياسيا قديرا وقائدا عظيما ، ومع ذلك كان من البساطة بحيث يمكن خداعه وتفريطه في أعمال تجر عليه غضب الشعب في داخل مملكته كاجبار الناس على اعتناق المذهب النشيجي ، واضطهاد مخالفيه في المذهب اضطهادا شديدا وصل إلى درجة الاعدام . أما في الخارج فانه جرد حملة على بلاد الشام لا شيء سوى قول بعض مخالفى سلطان مصر بسهولة الاستيلاء على سورية ، واغرائه بأن قسوة المماليك قد ضعفت بسبب الاختلاف بين الأمراء المماليك فوافقه على ذلك وأراد احراز نصر لم يتمكن منه آباءه وأجداده من قبيل . وعلى كل فان السلطان محمد خدابنده أولجايتو يعتبر من الملوك الإبلخانيين المقتزين الذين نهضوا بايران نهضة كبيرة ، فأحيا قوانين غازان خان التي نتج عنها

أن زاد رخاء البلاد . كما زاد في نهضة إيران وازدهارها حسن إدارة الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني . وكان أولجايتو حاكما حر الفكر يهتزم بالعلم والأدب . وعنى بمرصد المراغة الذي كان يشرف عليه منجم السلطان أصيل الدين بن نصير الدين الطوسي ، وناصر الحركة الأدبية والتاريخية التي قام بها كل من الوزير خواجه رشيد الدين غفصل الله الهمداني وعبد الله بن فضل الله الشيرازي المعروف بوصاف الحضرة . وكان يسعى لنشر العمران ، وهو الذي أتم مدينة سلطانية ، وجعلها حاضرة ملاكه ، وذلك عندما رزقه الله بولده وخلفه أبي سعيد . كما شيد مدينتين أخرتين ، أحدهما تسمى « سلطان آباد جم جال » وكانت تقع أسفل جبل بيسستون ، والأخرى مدينة « سلطان آباد أولجايتو » وكانت تقع على حافة نهر أرس (٣٨) .

أبو سعيد بهادرخان (٧١٦ - ٧٣٦ هـ) :

تولى السلطان أبو سعيد بن محمد خدابنده أولجايتو العرش الإيلخاني خلفا لوالده ، وكان قد أوصى قبيل وفاته أن يخلفه على العرش ابنه أبو سعيد الذي كان لا يتجاوز الثانية عشر من عمره في ذلك الحين . وكان اختيار السلطان أولجايتو لابنه أبي سعيد يعد مخالفة صريحة لأحكام الياسا الجنكيزية التي كان المغول يطبقونها بدقة متناهية ، مما يدل على تركهم للتقاليد المغولية وانصرافهم عن عاداتهم ورسومهم القديمة التي توارثوها عن أجدادهم ، واتباعهم أسلوب الحياة الإيرانية والإسلامية عامة .

ولد أبو سعيد في اليوم الخامس من ذي القعدة سنة ٧٠٤ هجرية ، وخصص والده الأمير « سونج » أحد كبار أمراء البلاط الإيلخاني لتربيته وتنشئته نشأة إسلامية خالصة . ثم عينه والده حاكما على خراسان وهو في سن السابعة سنة ٧١٣ هجرية (١٣١٣ م) ، وقد توفي السلطان محمد خدابنده أولجايتو وابنه مقيم في خراسان ، فصبه كل من الأمير سونج والأمير جويان إلى العاصمة السلطانية ليشترك في تشييع جثمان والده ، فنصبوه إيلخانا . ولم يحتفل بجلوسه على العرش إلا عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره وذلك في شهر صفر سنة ٧١٧ هجرية (أبريل عام ١٣١٧ م) .

(٣٨) ميرخواند : روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ص ٤٧٦-٤٧٨ .

واشترك كل من الأمير سونج والأمير جويان في ادارة شئون المملكة الايلخانية باسم السلطان الشاب ، فاختص سونج بشئون البلاط وتربية السلطان ، أما الأمير جويان فانه اختص بامرة الأمراء وقيادة الجيوش الايلخانية ، فاكسبه هذا المنصب نفوذا كبيرا لجمعه بين الادارة وشئون الجيش ، وعين ابنائه حكاما على الولايات الهامة في المملكة الايلخانية حتى صارت بأيديهم شئون الدولة يديرونها بمعرفتهم ، وكان أهمهم على الاطلاق تيمور تاش بن جويان الذي اختص بحكومة بلاد الروم ، فتغلغل النفوذ المغولي في آسيا الصغرى حتى زاحم نفوذ اليونان والترك ، وأدار حكومتها بجهد وصدق حتى أمن الناس على حياتهم وزاد في رفاهيتهم .

الامير جويان واستغلاله منصبه في توطيد نفوذه :

عين السلطان أبو سعيد الأمير جويان أميرا للأمراء سنة ٧١٧ هجرية (١٣١٧ م) ، واطلق يده في شئون الحكم واصدار القوانين وتعيين الحكام ، وزوجه من أخته « دولندي » كما اتخذ جويان من الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني مساعدا له في تصريف شئون البلاد ، وتعاونوا معا على النهوض بالشعب وتأمينه ضد الفقر والجوع ، ونشر الأمن والأمان حتى عادت البلاد الى سابق عهدها من الازدهار والتقدم ، وسيطرا على الحكم حتى لم يبق للسلطان أبي سعيد سوى الاسم فقط . وكانت تلك الصداقة التي نشأت بين الأمير جويان والوزير خواجه رشيد الدين فضل الله سببا في حقد الوزير تاج الدين على شاه جيلان التبريزي ، الذي شغل منصب الوزير خواجه سعد الدين محمد الساوجي بعد قتله . وبرغم أن معظم المؤرخين اتفقوا على أن الوزير على شاه كان رجلا جاهلا محدود الذكاء ، واتهموه بالوصولية وسوء الادارة الا أنه دبر خطة تمكن بهما من خلع خواجه رشيد الدين فضل الله الوزير الأول في أواخر شهر رجب سنة ٧١٧ هجرية ، واتهمه بأنه قتل السلطان محمد خدابنده أولجايتو ، فقبض عليه وعذب تعذبا شديدا وادّزعوا منه اعترافا بأنه أعطى السلطان أولجايتو دواء أودى بحياته . فأمر أبو سعيد بقتل رشيد الدين ، ونفذ الحكم في ١٧ جمادى الأول سنة ٧١٨ هجرية . ومن المؤسف حقا أن قتلة رشيد الدين قاموا بذبح ابنه الشاب « عز الدين ابراهيم » أمام أبيه ، وكان في سن السادسة عشرة من عمره . ثم أقدموا على قتل الأب بشطره نصفين ، وكان عمره في ذلك الحين

قد تجاوز الثالثة والسبعين . وعلى هذا النحو انتهت حياة أحد كبار الحكماء والأطباء والمؤرخين الإيرانيين وأحد الشخصيات الإسلامية الفذة (٣٩) .

وبعد قتل خواجه رشيد الدين فضل الله على هذا النحو المفجع ، نهبت أمواله ، وقبض على أبنائه الاثنى عشر الذين كانوا في خدمة الحكومة الايلخانية ، فقتل بعضهم وسجن البعض الآخر . كما أغار العامة بايعاز من الوزير تاج الدين على شاه على « ربع رشيدى » ، أحد أحياء تبريز الذى شيدته خواجه رشيد الدين وأقام به وبني به مؤسسات اجتماعية وتعليمية وخيرية كثيرة شملت مستشفى وصيدلية ومكتبة ومدرسة ومسجدا ودورا للأيتام ومطابخ للفقراء والمحتاجين ، كذلك دفن فيه ، فأتوا على كل شئ ، وأصبح خرابا ولم تقم له قائمة بعد ذلك . كما قتل رجال الحكومة جماعة من المقربين اليه وفصلوا كل من ثبت عليه تهمة صلته برشيد الدين . أما الوزير تاج الدين على شاه الذى كان سببا في ذلك الفجعية ، فانه مكث في منصب الوزارة والصدارة بعد ذلك ست سنوات كاملة مؤيدا من كل من السلطان أبى سعيد وأمير الأمراء چوبان الى أن توفى في ٢٦ جمادى الثاني سنة ٧٢٤ هجرية ، فأسند السلطان أبو سعيد الى أولاده المناصب العالية .

ولم يبد الأمير چوبان ، الذى اشتهر بالشجاعة وحسن قيادة الجيوش ، أى براعة وحكمة في سياسة الحكم وإدارة دفة أمور الدولة حتى أفلست الحكومة الايلخانية تماما ، وفشل الحكام في سياسة للرعية ، وبدأت الفتن والاضطرابات تسود المملكة مما أدى الى الخراب وتوقف المؤسسات الحكومية عن العمل السليم الجاد . وقد ساعد على ذلك ما كان عليه الوزير تاج الدين على شاه من الجهل وسوء التصرف . حينئذ أدرك السلطان أبو سعيد قيمة ما كان عليه الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله ، فأصدر أوامره بإسناد الصدارة الى ابنه خواجه غياث الدين محمد . ومن الغريب حقا أن الوزير

(٣٩) وبعد مائة عام من قتل الوزير المؤرخ رشيد الدين فضل الله الهمداني ، اتهم باليهودية لأنه كان في شبابه على صلة بيهود همدان ، فأمر ميران شاه بن تيمور حاكم آذربيجان - وكان معروفا عنه بالشطط والجنون - بإخراج عظام رشيد الدين من قبره المدفون به في المسجد الذى أقامه في حي « ربع رشيدى » بتبريز ، ودفنها في مقابر اليهود .

تاج الدين على شاه يعتبر الوزير الوحيد الذى مات ميتة طبيعية في الدولة الايلخانية .

وكان اضطراب الأحوال الداخلية في الدولة الايلخانية في عهد السلطان أبى سعيد سببا في اغارة بعض أمراء المغول من حكام الدولة الجغتائية في التركستان والقبيلة الذهبية (آلتون أوردو) في جنوب روسيا على اطراف الدولة الايلخانية ، ومحاولاتهم المتكررة الاستيلاء على السلطة والعرش الايلخانى . ومن بين هؤلاء الأمراء « يسور الجغتائى » الذى استولى على خراسان وهزم أمراء السلطان أبى سعيد فيها ، وتقدم نحو مازندران في محاولة للاستيلاء عليها ، فوقف أهلها في وجهه وقتلوه . ونتج عن ذلك أن خربت مازندران وسفكت دماء أهلها . وقد تصدى له اثنان من قادة الجيوش الايلخانية هما الأمير حسين الكوركاني والأمير كيك ، وكان بينهما وبين « يسور الجغتائى » عداؤ قديم ، وتمكنا من محاصرته وهزيمة جيشه وقتله آخر الأمر . كذلك قام « أوزبك خان » ملك دولة صحراء القيقاق (دشت قيقاق) بالاغارة على أملاك الدولة الايلخانية ، ولكن الأمير چوبان تصدى له وتمكن من هزيمته والقضاء على ثقنته .

وعلى هذا النحو تمكن الأمير چوبان من القضاء على الطامعين في الاستيلاء على السلطة والمناوئين للحكم ، مستغلين بذلك صغر سن السلطان ، وانشغال رجال الحكم والبلاط بمشاكلهم الخاصة ، وكثرة تغيير الوزراء وما يلاقونه آخر الأمر من قتل ونشرذ للأهل والأصدقاء ، فأحكم الأميرچوبان سيطرته على أجهزة الدولة ، وأيده في ذلك السلطان أبوسعيد نفسه الذى أطلق يده في أمور المملكة كلها . الا أن بعض الأمراء من داخل البلاط الايلخانى حاولوا الكيد للأمير چوبان والايقاع به ، فطلبوا من السلطان العفو عن أوزبك خان ، لكن الأمير چوبان رفض طلبهم واتهمهم بالاشترك في المؤامرات التى تدبر ضد الدولة ، فعاداه هؤلاء وعملوا على التخلص منه مبتدئين بالتشهير به والنيل منه هو وأبنائه ، وحاولوا الايقاع بينه وبين السلطان أبىسعيد ، لكنه لم يوافقهم على ذلك وأيد چوبان وناصره في حربه ضدهم . وكان وراء تأييد السلطان أبىسعيد للأمير چوبان شخصيتان نسائيتان كان لهما دور فعال في سياسة الدولة هما « ساتى بك » أخت أبى سعيد ،

والتي تزوجها الأمير چوبان بعد وفاة أختها « دولندى » والأخرى زوجة أبى سعيد « قتلغ خاتون » ابنة الأمير « إيرنجين » أحد كبار الأمراء المغول ، وكانت تؤيد سياسة الأمير چوبان وتناصره ، فانضم أبوسعيد الى جانب چوبان فى صراعه مع مناوتيه ، واشتبكا معهم فى حرب فى ٤ جمادى الأولى سنة ٧٠٩ هجرية قرب بلدة «ميانه» وهزما المناوئين لهما ، الذين قادهم الأمير « إيرنجين » والد زوجة أبى سعيد هزيمة فاحشة رغم كثرتهم ، وقتل فى المعركة قادة الفتنة ومن بينهم الأمير إيرنجين . وفى تلك الحرب التى قادها أبوسعيد بنفسه أظهر السلطان براعة وحكمة فى قيادة الجيوش الايلخانية وتحريكها ووضع خطط المعركة ، وتمكن من الفتك بأعدائه الذين كادوا يهددون عرشه ، وأضيف الى اسمه بعد تلك المعركة لقب «بهادر خان » أى المقاتل الشجاع ، فعرف باسم « السلطان أبى سعيد بهادر خان » . كما أطلق المغول على الأمير چوبان لقب « الوالد والسيد » (آتا - آقا) تقديرا له على حسن خدماته التى اداها للدولة واعترافا بفضلها فى اخماد الثورات والفتن . وزاد السلطان أبو سعيد من قدره فأطلق يده هو وأبناءه فى ادارة أمور المملكة .

لقد دب الضعف فى الدولة الايلخانية نتيجة اختلاف الأمراء ونشوب الحروب الداخلية وسوء الادارة . وجرم أن وزراء الدولة كانوا من الشخصيات المشهود لهم بالحكمة والكفاءة الا أنهم لم يتمكنوا من عمل شئ ، يؤدى الى احكام السيطرة على ولاياتها والنهوض بالشعب الايرانى والأخذ بيده وانتشاله من الفوضى والاضطرابات السائدة . لقد تولى الوزارة فى عهد أبى سعيد شخصيات ثلاث ، هم على التوالى : خواجه غياث الدين محمد بن خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى ، ونصرت الدين عادل النسوى ودمشق خواجه بن الأمير چوبان . وعندما توفى السلطان أبو سعيد كانت الوزارة فى يد خواجه غياث الدين محمد الذى تولاها للمرة الثانية .

نهاية الچوبانيين :

لقد رأينا كيف كانت ثقة السلطان أبى سعيد فى أمير الأمراء چوبان غير محدودة ، حتى أن مصير أحدهما ارتبط بمصير الآخر ، فقد تزوج الأمير چوبان باخت السلطان أبى سعيد دولندى وعندما توفيت تزوج أختها الأخرى ساتى بك . وهذا فى حد ذاته قمة الصداقة والتعاون ، لكن الدولة الايلخانية

ابتليت في عهد أبي سعيد بالفتن والفلاقل ، فأتت على الأمراء الواحد بعد الآخر ، ولم ينج من ذلك الا من كان ضعيف الرأي قليل الحيلة مدامنا منافقا . فلفحت الموجة السائدة الأمير جوبان فكانت نهايته سيئة للغاية وقضت عليه تماما ، ذلك أن السلطان أبا سعيد وجد أن الأمور تسير من سيء الى أسوأ بسبب وجود الأمير جوبان أمير الأمراء واستبداده بالأمور هو وأبنائه ، وأن كثيرا من الفلاقل كانت نتيجة تصرفاته ، فاستقر عزمه على تحطيم سلطان الجوبانيين . ومما زاد الموضوع تعقيدا تدخل المسائل الشخصية في القضاء على تلك الأسرة ، ذلك أنه كانت للأمير جوبان ابنة جميلة تدعى « بغداد خاتون » وقع في غرامها أبو سعيد ، وكانت متزوجة من الأمير شيخ حسن بن الأمير حسين الكوركاني الجلايري (٤٠) ، ورغبها السلطان أبو سعيد لنفسه ، وهام بها حبا حتى جن بها وبغرامها ، الا أن الأمير جوبان منع أبا سعيد من الزواج بابنته التي كانت في عصمة رجل آخر ، وأن اجراء مثل ذلك يخالف الشرع الاسلامي . ورغم ذلك فإن السلطان أبا سعيد عشقها وتغنى بجمالها وسحرها ونظم فيها أشعاراً غاية في الرقة والعذوبة . ومن ناحية أخرى كان دمشق خواجه بن الأمير جوبان والوزير الأول على علاقة آثمة باحدى نساء أبي سعيد ، وعرف أمرهما السلطان فثار لشرفه وكرامته ، فكانت تلك الواقعة سببا في غروب النفوذ الجوباني ومقدمة لانقراض الأسرة بكاملها ، بدأها السلطان أبو سعيد بقتل دمشق خواجه بتهمة صلته بعدد من حريمه وتم اعدامه في ٥ شوال سنة ٧٢٧ هجرية (٢٤ أغسطس سنة ١٣٢٧ م) .

وعندما فكر السلطان أبو سعيد في القضاء على الأسرة الجوبانية ، كان قد اتخذ الحيلة والحذر ، واختار الأشخاص الذين يحلون محل الجوبانيين ، حيث كانت الدولة الايلخانية موزعة بينهم ، فكانت خراسان تحت حكم الأمير حسن بن جوبان ، وبلاد الروم في يد تيمور تاش وبلاد الكرج في يد محمود وكلهم أبناء جوبان . أما الأبورئيس العائلة فإنه اختص بحكومة فارس وكرمان . ولما بلغ الأمير حسن كوجك نبأ مقتل أخيه دمشق خواجه الوزير الأول رغب في

(٤٠) يعرف الأمير شيخ حسن في التاريخ باسم « شيخ حسن بزرگ »
 أي الكبير وأيضا « الأمير شيخ حسن الايكاني » وكذلك « الأمير حسن الجلايري » .
 (م ١٥ - تاريخ الدولة المغولية)

الانتقام من أبي سعيد وجهز جيشا قاده بنفسه للاطاحة بالسلطان والقبض على قتلة أخيه ، لكن والده لم يقره على ذلك ، وأراد تسوية المشكلة سلميا للعلاقات القوية التي تربطه بأبي سعيد ، وقرر التوجه الى العاصمة ، سلطانية » لكن أعداء الأسرة الجوبانية لم يرفههم ذلك ، وانتهزوا الفرصة للقضاء على نفوذ الأمير جوبان ، فابلغوا السلطان أبا سعيد بما يدبره له الأمير حسن كوكچ . فأصدر السلطان أمره بقتل الأمير جوبان ، فما كان منه الا أن هرب الى هراة ، والتجأ الى سلطانها الملك غياث الدين كرت . وتمكن أبو سعيد من القبض على معظم أفراد الأسرة الجوبانية المنتشرين في كافة أنحاء المملكة الإيلخانية ، وقتلهم جميعا .

وقف الأمير جوبان ينظر الى الأحداث بعين زائغة ، وقد تمكن منه أعداؤه وقتل السلطان أبناءه وأحفاده وأقاربه وكل من اتصل بهم بنسب أو مصاهرة أو عمل ومصلحة ، ومع ذلك حاول الأمير جوبان التفاوض مع السلطان أبي سعيد ، واعتمد في هذه المرة على قوته وكثرة جنده ، ف تقدم بجيشه حتى وصل مدينة الري ، ولكن خاب ظنه وهجره معظم جنده ، ولم تنفعه شجاعته وفر موليا وجهه نحو هراة . وبذل السلطان أبو سعيد جهده لإغراء الملك غياث الدين كرت بقتل الأمير جوبان ، وقدم له الهدايا . فما كان من الملك غياث الدين كرت الا أن أقدم على قتل الأمير جوبان وابنه الشاب « الأمير چلاو خان » (وهو ابن أخت السلطان أبي سعيد) . وهكذا تصرف السلطان ملك غياث الدين كرت مع الأمير جوبان تصرفا غير شريف ، فغدر به وقتله في سبيل وعود زائفة وهدايا زائلة . وعندما وصل خبر قتل الأمير جوبان الى مسامع السلطان أرسل قاضى القضاء الى الأمير شيخ حسن الكبير وأجبره على طلاق زوجته « بغداد خاتون » ، ففعل ذلك عن كره خشية أن يناله ما أصيب به جوبان وأسرته . وبعد أن قضت عدتها عقد عليها السلطان أبو سعيد .

أما تيمور تاش بن جوبان فانه هرب من بلاد الروم عندما بلغته أخبار مذابح الأسرة الجوبانية وفسر الى مصر ، والتجأ الى سلطانها الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى أحسن معاملته أول الأمر وأكرمه غاية الأكرام ، وأنزله منزلة تليق بمقامه ، على أن مؤامرات أعداء الأسرة الجوبانية - وكثير

منهم كان قد التجأ إلى مصر فرارا من سطوة الأمير جويان - والحاج السلطان أبي سعيد الذي طلب من السلطان المملوكي ابعاد تيمور تاش . ونظرا للعلاقات الحسنة التي ربطت البلاط الايلخاني بنظام الحكم المملوكي ، وجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن بقاء تيمور تاش في مصر مصدر ازعاج له ، فاستقر رأيه على القضاء عليه ، وغدر به وقتله في ١٣ شوال سنة ٧٢٨ هجرية (٢١ أغسطس سنة ١٣٢٨ م) .

أبو سعيد وانفراذه بالسلطة بعد مقتل الجوبانيين :

وبعد أن قضى السلطان أبو سعيد على الأسرة الجوبانية أشرف بنفسه على كافة شئون المملكة ، وعمل على القضاء على كل قوة أو مصدر قوة يمكنها أن تطل برأسها ، وحصر جهده في تتبع أبناء الأمير جويان والمقربين اليه ، وشغل نفسه بذلك . كما كان لزوجته « بغداد خاتون » دور كبير ونفوذ قوى في سير دفة الأمور وتصريف سياسة المملكة الداخلية . وترك لها أبو سعيد مطلق الحرية في ذلك من فرط عشقه لها ، وكانت قد ملكت فؤاده وأصبح أسير هواها ، ومنحها لقب « خدانكدكار » (أى سيدة العالم) ، وبسببها عزل السلطان ملك غياث الدين كرت ، لكن أبا سعيد لم يقتله ، وأعادته إلى منصبه عندما وجد أن ذلك في صالحه . ومع عشقه لزوجته بغداد خاتون ابنة الأمير جويان ، إلا أنه عمل على القضاء على نفوذ اخوتها مما كان له آخر الأمر أسوأ الأثر ، بل والقضاء على السلطان نفسه .

وحدثت في أواخر عهد السلطان أبي سعيد فتنة قام بها جماعة من كبار أمراء البلاط الايلخاني بغرض الاطاحة بالوزير خواجه غياث الدين محمد الذي أعاده السلطان بعد مقتل دمشق خواجه . وكان من زعماء تلك الفتنة « نارى طغاي » حاكم خراسان والأمير على بادشاه خال السلطان أبي سعيد وحاكم أردبيل ، والأمير طاش تيمور ، وواجه السلطان بنفسه جيوش أعدائه . وتمكن بعد جهد من القضاء على ثورتهم والقبض على زعمائها ، وأعدم كلا من نارى طغاي وطاش تيمور أما الأمير على بادشاه فانه أفلت من العقاب بفضل شفاعته أخته « حاجى خاتون » أم السلطان .

كذلك أغار أوزبك خان ملك دولة صحراء الشيقاق للمرة الثانية على النواحي الشرقية من المملكة الايلخانية ، وعاث فيها فسادا ، وقتل كثيرا من

أهلها ، فأسرع إليه السلطان بنفسه ورافقه الوزير خواجه غياث الدين محمد ، لكن السلطان مرض في مدينة « أران » بسبب شدة الحرارة ولم يمهله المرض كثيرا إذ توفي قرب شيروان في ١٣ ربيع الآخر سنة ٧٣٦ هجرية (٣٠ نوفمبر سنة ١٣٣٥ م) ، ونقلوا جثمانه الى العاصمة « سلطانية » حيث دفن بها . وقد أجمع المؤرخون أنه عندما كشف الأطباء على أبي سعيد أثناء مرضه وهو في النزاع الأخير اكتشفوا أنه قد دس له السم في الطعام ، وأن موته كان نتيجة لذلك . وعرف فيما بعد أن الفاعل لتلك الجريمة هي بغداد خاتون . وكان الوزع على ذلك أن السلطان أبا سعيد كان قد تزوج من دلشاد خاتون ابنة دمشق خواجه سنة ٧٣٤ هجرية (١٣٣٤ م) ، وأن قلبه مال إليها ، بعد أن كان أبو سعيد أسير عشقها ، فلم تسترح لذلك . فحققت على السلطان وقررت الانتقام منه . وتذكرت أنه قاتل أبيها وأخوتها ومحطم فؤادها ، فانتهزت فرصة مرضه ووضعت السم في غذائه وقضت عليه ولم يتجاوز عمره الثانية والثلاثين . وكان عقاب بغداد خاتون أن أمر بخنقها « أريباكاوان » الذي خلف أبا سعيد في السلطة وهي في الحمام .

ويعتبر السلطان أبو سعيد آخر ملوك الأسرة المغولية الايلخانية العظام الذين حكموا في إيران ، ذلك لأن أبا سعيد لم يعقب ولدا ، فلم يكن يمثل الأسرة والحالة هذه الا أمراء من بيت هولاكو ، ظلوا يتعاقبون على العرش الايلخاني حتى سنة ٧٥٦ هجرية (١٣٥٥ م) . وكان أبو سعيد رجلا كريما وفائدا شجاعا محبا للأدب والفنون ، نشأ في أحضان الاسلام والثقافة الفارسية ، فكان أقرب ما يكون بملك فارسي من بمغولي . وقد نالت العلوم والفنون والآداب في عهده حظا كبيرا من الاهتمام والانتشار ، فانتعش سوقها وراجت بضاعتها ، وساعد في احياء تلك النهضة الوزير خواجه غياث الدين محمد بن خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني . وكان أبو سعيد نفسه شاعرا وصاحب ذوق شعري ، نظم غزليات وقطعات في عشق بغداد خاتون وفراقها . وهذا بيت من إحدى غزلياته :

بيا بمصر دلم تا دمشق جان بينی

که آرزوی دلم در هوای « بغداد » است

وترجمة البيت :

يا قلبي ! تعال الى مصر لترى دمشق الروح
فان غاية قلبي في هوى بغداد

وكان أبو سعيد الى جانب شاعريته يحسن كتابة الخط الجميل ،
ويعشق الموسيقى ، وكان فنانا أصيلا . أما عن حياته الدينية فكان
أبو سعيد مسلما غير متعصب ، ولد مسلما وشب وترعرع في بيئة اسلامية
خالصة ، وتعلم الفقه الاسلامي وقرأ القرآن الكريم على يد علماء الدين .
ومن أفعاله في التقريب بين المسلمين الغائه المذهب الشيعي الذي كان قد
صيره والده مذهب الدولة الرسمي ، وعادت العملة تحمل من جديد أسماء
الخلفاء الراشدين الأربعة .

سياسة أبي سعيد الخارجية :

كانت سياسة السلطان أبي سعيد الخارجية تعتمد على حفظ علاقات
الصدقة والود والسلام مع الدول الأخرى ، اسلامية ومسيحية ، والبعد عن
الحرب وسفك الدماء . وقد نعل ذلك بأن با سعيد ترك أمور الدولة في بداية
أمره في يد غيره من الأمراء والوزراء ، الذين كانوا يعملون لتوطيد سلطانهم
وانشغلوا بالقضاء على منافسيهم ومناوئهم ، فعاش أبو سعيد في جو
كثرت فيه الفتن والثورات الداخلية . كما شاهد بنفسه ما عاناه الشعب
الايرائي من جراء هجوم الغزاة المغول حكام دولة القبيلة الذهبية (آلتسون
أوردو) بجنوب روسيا والچغتائيين في التركستان وأواسط آسيا . ولهذا
فانه لم يكن يستطيع مناهضة الممالك حكام مصر اذا دخل معهم في صراع
مسلح لعدم استقرار الأمور في بلاده .

أما علاقة أبي سعيد بالممالك فانها لم تتحسن الا بعد فترة من جلوسه
على العرش وانفراده بالحكم ، ذلك أن السلطان الملك الناصر محمد بن
قلاوون كان لا يزال يحمل العداء والبغضاء للمغول الى حد كبير ويستقبل
المنشقين من أمراء المغول ، ويذكر المقرئ أن الناصر محمد أرسل في سنة
٧٢٠ هجرية ثلاثين رجلا من طائفة الحشاشين في سورية الى فارس لاعتقال
قراسنقر حاكم مراغه من قبل المغول . وعلى الرغم من فشل المؤامرة فانها

أخافت المغول إلى حد كبير ، فقد ذاع بينهم أن هؤلاء الاسماعيليين حضروا لقتل السلطان أبي سعيد والأمير جوبان والوزير على بادشاه وقراسنقر وأمراء المغول ، واحتجب السلطان أبو سعيد بخيئته خوفا على نفسه ، كما أنكر جوبان على مجيد الدين اسماعيل السلاي الذي كان يقوم بالسفارة للسلطان الملك الناصر محمد هذه المؤامرة وهدده بالقتل (٤١) .

على أن الفريقين المتخاصمين المغولي والمملوكي سرعان ما جنحا للصلح ، فرأى السلطان أبو سعيد أنه من الحكمة وبعد النظر أن يخطب ود المماليك ، كما كانت هناك دواعي لتحسين العلاقات ، ذلك أنه نزل بآسيا الصغرى في عامي ١٣١٨ و ١٣١٩ م قحط شديد ومجاعة مخيفة ، ثم تلى ذلك في عام ١٣٢٠ م أعاصير مدمرة وزوابع مخربة . وقد راع هذا أبا سعيد فاستشار علماء الدين عن سبب تلك المحن ، فعزوها إلى انتشار الموبقات والاسراف في شرب الخمر ، حتى أن الحانات كانت في كثير من الأحيان ملاصقة للمساجد ودور العلم . ومن ثم أمر أبو سعيد بإغلاق هذه الدور ، واتلاف الخمر ، ولم يسمح إلا بإقامة حانة واحدة للرحالة في كل مركز . ولعل هذا الاجراء كان من العوامل التي ساعدت على توطيد العلاقات بين أبي سعيد وبين الناصر محمد ، فنجح الفريقان للسلام وطرحا ما كان بينهما من الاحن والاحتقاد القديمة (٤٢) . وكان سفراء البلاط المغولي يحملون الهدايا وأهمها الأقمشة الثمينة عندما يتوجهون للقاهرة (٤٣) . وفي عام ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) أرسل أبو سعيد إلى الناصر محمد يطلب الصلح والدخول في علاقات مودة وإخاء ونبذ الخصومة والعداوة . وكان يحمل هذا الخطاب القاضي نوروز ، فوافق هذا الطالب هوى في نفس السلطان الناصر محمد ، وبعث مملوكه سيف الدين أيتمش المحمدي يحمل كتابه إلى أبي سعيد (٤٤) .

وما أن أصبح الجو ممهدا لعقد الصلح وإحلال السلام حتى أرسل السلطان أبو سعيد سفيرا هو نصير الدين قاضي القضاة بتبريز على رأس وفد من أعيان الدولة الايلخانية ومعهم كتاب بشأن الصلح ، كان من شروطه:

- (٤١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، القسم الأول ، ص ٢٠٩ .
- (٤٢) أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ٣ ، ص ٢٥٠ .
- (٤٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٩٥ - ٩٦ .
- (٤٤) الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٩ .

- ١ - ألا تدخل الاسماعيلية بلاد المغول .
- ٢ - لا يرد أى فرد قدم من مصر الى بلاد المغول .
- ٣ - من يفد الى مصر من المغول ، لا يرد الى بلده الا برضاء .
- ٤ - الا يعهد سلطان مصر الى العرب أو التركمان بالاغارة على بلاد المغول .
- ٥ - أن يكون الطريق بين دولة المغول في فارس ودولة الممالك خاليا من الموانع التى تعوق سير التجارة بين الدولتين .
- ٦ - أن ييسر الحمل كل عام من العراق الى الحجاز رافعا علم سلطان مصر مع علم السلطان أبى سعيد .
- ٧ - الا ييسر سلطان مصر في القبض على الأمير قراسنقر حاكم مراغه .

وقد جمع السلطان الملك الناصر محمد الأمراء وشاورهم في هذا الصلح، فاتفق الرأى على امضائه ، وجهزت الهدايا لأبى سعيد ومن بينها خلعة أطلس وقياء تقرى (٤٥) .

وكان من أثر هذا الصلح أن حل الوثام بين المغول والممالك محل الخصام ، وقدم رسول السلطان أبى سعيد يطلب من الناصر محمد تجهيز « السنجق السلطاني » ليسيير مع الحمل الى بلاد الحجاز ، فأجيب الى طلبه وكتب لصاحب مكة باكرام حاج العراق ، كما منع السلطان الملك الناصر محمد على منع العرب من التعرض لهؤلاء الحجاج ، وصار يدعى لأبى سعيد بعد الدعاء لسلطان مصر على منابر مكة (٤٦) .

كذلك ارتبط السلطان أبو سعيد بعلاقات تجارية مع أوروبا ، تلك التى بدأها والده في أواخر عهده ، فمنح تجار البندقية امتيازات تجارية . واستمر السلطان أبو سعيد في إعطاء تلك الامتيازات لتجار البندقية ، فراجت التجارة بشكل ظاهر في عهده أكثر من ذى قبل .

(٤٥) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، القسم الأول ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .
(٤٦) المرجع السابق ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

الفصل التاسع

الإيلخانات خلفاء السلطان أبي سعيد

كان موت السلطان أبي سعيد بهادر خان المفاجيء ، وهو في طريقه لحرب أوزبك خان ملك دشت القيقاق ضربة كبيرة للدولة الإيلخانية، خاصة وأن أبا سعيد توفي دون انجباب وريث للعرش ، فوُضعت الامبراطورية الإيلخانية فريسة لأعنف الاضطرابات مما عجل بنهايتها ودخولها في دور الاحتضار . ومع ذلك فإن الوزير خواجه غياث الدين محمد تمكن بحكمته وحزمه من تنفيذ وصية السلطان أبي سعيد ، كما عرف كيف يسوس النفوس الجامحة الطامعة في الملك بحكمة هادئة جعلت الأمراء وكبار الموظفين الذين كانوا على وشك امتشاق الحسام ضد بعضهم البعض ، يطارحون أحقادهم جانبا ، ويتعاونون جميعا في المحافظة على سلامة الدولة ورعايتها .

وعندما اشتد المرض بأبي سعيد وشعر بدنو أجله ، ذكر لوزيره خواجه غياث الدين محمد وهو على فراش الموت أن يخلفه على العرش الإيلخاني الأمير « أرباكاون » لأنه أصلح الأمراء لتولي هذا المنصب ، فقام الوزير خواجه غياث الدين محمد بتنفيذ الوصية ، فاستدعى أرباكاون الذي كان يعمل مشرفا على الاصطبلات السلطانية ، وأبلغه بقرار تنصيبه في نفس الليلة التي توفي فيها السلطان أبي سعيد .

أربا خان (٧٣٦ - ٧٣٦ هـ) :

واجه أرباكاون صعوبات عديدة حتى تستتب له الأمور ، كان أهمها على الإطلاق أنه لبس من بيت هولاكو المؤسسين للدولة الإيلخانية في إيران والعراق ، وإنما هو من حفدة « أريق بوقا » الأخ الأصغر لهولاكو ، وهو ابن سوسه (سفيان) بن سنغقان بن ملك تيمور بن أريق بوقا بن تولي خان ابن چنكيز خان . وقام الوزير خواجه غياث الدين محمد بمجهودات مكثفة واتصالات عديدة مع أمراء المغول ونساء السلطان أبي سعيد ، وأميرات البيت

المالك وأزواجهن وكبار رجال الدولة وقادة الجيش للحصول على موافقتهم على ترشيح أرياباكون ، فوافقوا على ذلك ، وتم تنصيب أرياباكون إيلخانا في احتفال كبير حضره جميع الأمراء وأعيان المملكة حيث وضع التاج المرصع على رأسه وتسمى باسم « أريابا خان » ، و تلقب بمعز الدين والدنيا . ولم يخالف تنصيب أريابا خان سوى بغداد خاتون التي أعلنت معارضتها توليه العرش . ومع ذلك استمر الوزير خواجه غياث الدين محمد يكثف جهوده حتى تمت الاحتفالات دون معارضة تذكر . ثم قام السلطان الجديد ومعه الأمراء وكبار رجال الدولة بتشييع جثمان السلطان الراحل أبي سعيد إلى مشواه الأخير . ووقف يتقبل العزاء ، كما فرق الصلوات على روح السلطان المتوفى .

ولم يرض أريابا خان عن تصرفات بغداد خاتون ابنة چوبان ، وأكبر خواتين السلطان أبي سعيد فقد استخفت به وبشخصيته على أساس أنه لا يليق للسلطنة وغير جدير بها ، بل ولا تحق له لأنه ليس من أسرة هولاكو . وبدأت تحرض الأمراء الإيلخانيين على أريابا خان وتحقر من شأنه ، بل وصل بها الأمر أن كادت أوزبك خان رئيس القبيلة الذهبية . ولم يقف أريابا خان مكتوف الأيدي أمام هذا التيار المناوئ ، وتلك الحملة التي رفعت لواءها ببغداد خاتون . ولأنهز فرصة ثبوت تهمة قيامها بوضع السم لأبي سعيد والذي أثبتته الأطباء الذين لازموا أثناء مرضه ، وقرروا ذلك . ولما ضيق الخناق على بغداد خاتون اعترفت بجريمتها انتقاما منه لحبه « دلشاد ختون » ابنة « دمشق خواجه » حبا شديدا وهجرة إياها . وعرض أريابا خان موضوعها على الأمراء ، فقرروا التخلص منها . وقام أحد الأمراء ويدعى خواجه لؤلؤ في أواخر ربيع الآخر سنة ٧٣٦ هجرية بقتلها وهي في الحمام ، وظلت جثتها أياما لا يقترب منها أحد كرها لها وتشفيا منها (١) .

وكان أول عمل قام به أريابا خان ، أن أكمل خطة سلفه أبي سعيد ، ونهج سياسته في قتال أوزبك خان ، الذي وجد أمامه الفرصة سانحة بدعوة أبي سعيد وطمع في مملكته ، وأعلن الحرب على أريابا خان ، وتقدم بجيوشه نحو الأطراف الشمالية ، وكانت من الكثرة بحيث يمكنها تدمير إيران

(١) ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٥٣٥ .

تماما ، فاسرع أربا خان المفاقاته وحاربه وانتصر عليه . لكنه ما أن عاد الى سلطانيه عاصمة ملكه ، وقد تصور أن أمراء مغول إيران سوف يسعدون بانتصاره ، الا أنه وجد عكس ذلك تماما ، فقد وجد الأمراء الايلخانيين وقد انقلبوا عليه . ولم يقدموا التهنة له كاييلخان لانتصاره على أوزبك خان رئيس القبيلة الذهبية ، والعدو التقليدي للدولة الايلخانية . ومع ذلك لم يبادلهم العدا ، بل أقبل على استرضائهم ، ومن بين ذلك زواجه من ساتى بك ابنة السلطان محمد خدابنده أولجايتو وأخت السلطان أبى سعيد . والتي كانت في يوم ما زوجة الأمير جويان في محاولة منه لاسترضاء بيت هولاکو ، وليضمن ولاءه . لكن هذه الزيجة حركت الخلافات المستترة بين أفراد الأسرة الايلخانية ، فقامت عليه دلشاد خاتون أرملة السلطان أبى سعيد ابنة دمشق خواجه بن الأمير جويان ، وأيدتها « حاجى خاتون » أم السلاطان أبى سعيد ، وصرحتا بعدم اقتناعهما بسلطنة أربا خان . كذلك وجد بعض الأمراء من بيت هولاکو الفرصة سانحة للدخول في الخلافات التي نشبت بين أربا خان ونساء أبى سعيد ، فانضموا اليهما ، وقوى حزبهم ، وغادرت دلشاد خاتون المعسكر السلطاني وتوجهت الى بغداد ، ولجأت الى الأمير على پادشاه خال السلطان أبى سعيد ، والذي كان غير راض عن تنصيب أربا خان العرش الايلخاني . وانتهزت الجماعة المعادية للاييلخان الجديد فرصة حمل دلشاد خاتون أرملة أبى سعيد ، وأعلنت أنه في حالة انجابها ذكرا ، فانه سيعين سلطانا خلفا لأبيه ولاشعار أربا خان بأنهم غير راضين عن ساطنته .

تصاعد النزاع بين أربا خان والأمراء الايلخانيين :

تزعّم الأمير على پادشاه ، خال السلطان أبى سعيد وحاكم بغداد ، الحركة المناوئة لأرباخان واتصل بأمراء الأويرات وبعض أمراء العرب للانضمام الى حركته ، وسرعان ما انضم اليه عدد كبير من أمراء وأميرات بيت هولاکو . واستنقر رأيهم على تنصيب الأمير موسى بن على بن بيايدوخان ايلخانا ، وأجلسوه على العرش الايلخاني ، وتلقب بموسى خان . وتلا ذلك قيام على پادشاه بمراسلة أمراء الجيش وكبار جال الدولة للانضمام الى حركته وتأييد موسى خان . وفي الوقت نفسه كان يستعد لحرب أربا خان والإطاحة به .

وجد أربا خان نفسه مضطرا لمواجهة الموقف بعد أن يؤس من مصالحة

مناوئيه ، وجيش الجيوش لحرب موسى خان وعلى پادشاه . وما أن علم بتحرك جيش على پادشاه وبصحبه الایلخان الجديد موسى خان حتى أسرع ملاقاته ، وتقابل الفريقان قرب شاطئ نهر « جغاتو » عند مراغه وجعل أريا خان نفسه على قلب الجيش ، ووقف في صفوه كأي جندي عادي ، كما قاد الوزير خواجه غياث الدين محمد الميسرة . ورأى الأمير على پادشاه أن جيش أريا خان يفوق جيشه عددا وعدة فأعمل الحيلة والمكر للايقاع ببعده . فأرسل شخصين من رجاله الى الوزير خواجه غياث الدين محمد أخبراه بهزيمة الایلخان ، وفي الوقت نفسه أرسل رسولين الى أريا خان ، وأبلغاه هزيمة وزيره خواجه غياث الدين محمد ، وفعلت هذه الأخبار في نفس الایلخان ووزيره فعلا ، ودخل اليأس والخوف قلبيهما ، كذلك تفرقت الجنود بعد أن علموا بأخبار الهزيمة ، واضطربت صفوفهم . وما أن تأكد الأمير على پادشاه قائد جيوش موسى خان بنجاح خطته ، حتى حمل على من بقي من جند في أرض المعركة . وفي ١٧ رمضان سنة ٧٣٦ هجرية قبض على أريا خان بعد هزيمته ، أما الوزير خواجه غياث الدين محمد فانه هرب مع أخيه « پير سلطان » بعد أن علما بحقيقة الأمر ، وما وقع فيه من خطأ وتأكدوا من اللقاء القبض على الایلخان أريا خان فانسحبا الى مراغه ، فتبعهما بعض الجنود وقبضوا عليهما في موضع يقال له « سه گنبدان » بجهة مراغه وأحضروهما أمام الأمير على پادشاه الذي استقبلهما بكل ترحاب وتكريم .

وكان بين الأمير على پادشاه والوزير خواجه غياث الدين محمد عداوة دفينه ، لكنه كان يقدره كشخصية ممتازة سواء في خلقه أو علمه أو ادارته . وكان الأمير على پادشاه يميل الى الابقاء على حياته ، بل انه بذل كل ما في وسعه ليحفظ له حياته ، لكن تحت ضغط سائر الأمراء المغول الذين أصروا على اعساده ، تلقى خواجه غياث الدين محمد الموت في الحادي والعشرين من رمضان سنة ٧٣٦ هجرية . وبعد ثلاثة أيام قتل أخوه پير سلطان مع جماعة من الأمراء الذين كانوا في جانب أريا خان . ثم تلى ذلك مصادرة أموال الوزير خواجه غياث الدين محمد وأموال أسرته وأقربائه وأتباعه ، كما قام أهالي تبريز بالاغارة على منازل أسرة غياث الدين ، وكان عددها يزيد على الألف ، وأغاروا على ربع رشيدى ومنازل الوزراء ، واستولوا على ما بها من

جواهر ونفود وأقمشة وأمتعة وكتب نفيسة ، وباعوها بأثمان بخسة لم
تصل إلى عشر قيمتها .

أما أريا خان ، فان أمراء المغول تخلصوا منه حيث سلموه في اليوم
الثالث من شوال من نفس السنة إلى أسرة اينجو حكام شيراز ليقتضروا منه ،
حيث كان أريا خان قد قتل الأمير شرف الدين محمود شاه اينجو ، فقتلوه (٢) .
وحكم أريا خان قرابة ستة أشهر ليس أكثر (٣) .

موسى خان (٧٣٦ - ٧٣٦ هـ) :

تولى موسى خان العرش الايلخانى بعد أريا خان ، وقام أمراء المغول
الذين ساعدوه وأيدوه بالاحتفال بتنصيبه ايلخانا ، حيث عقدوا مؤتمرا في
مدينة « أوجان » أعلنوا فيه تنصيب موسى خان العرش الايلخانى . وكافا
موسى خان قائد جيوشه الأمير على پادشاه فعينه أميراً للأمراء ونائبا للملك ،
وأطلق يده في شؤون الحكم والادارة ، وعين معه جمال الدين بن تاج الدين
على شيروانى وزيرا .

ولم تستقر الأمور في الدولة المغولية بتولية موسى خان العرش
الايلخانى ، بل تصدعت أركان الدولة في عهده ، ذلك أن كبار أمراء المغول
كانوا يطمعون في الوصول إلى العرش ، وبدأ كل واحد منهم يهوى خطاياه
للوثوب إلى السلطة ، واتفقوا جميعا في ذلك واستهانوا بموسى خان ، ولم
يقبلوه في قرارة نفوسهم ، كما لم يقبلوا الأمير على پادشاه أميراً للأمراء ،
ولا جمال الدين الشيروانى وزيرا . وأخذوا يثيرون الفتن والاضطرابات في
كافة أنحاء المملكة حتى عمت الفوضى واختلت أمور الدولة . وانتهز أمراء
الأطراف الفرصة ، وزادوا النار لهيبا ، وعمل كل واحد منهم على إضعاف
الحكومة المركزية والدخول في المصالحات الدائرة بأى شكل من الأشكال ،
فاستقنوا بما تحت أيديهم من ولايات أو مدن . وقامت ثورات تطالب بتغيير
الأوضاع كان من أهمها ثورة الأمير الشيخ حسن بزرگ الايلخانى الذى كان
يحكم بلاد الروم بآسيا الصغرى ، وأيضا ثورة حاجى طغاي حاكم ديار بكر

(٢) حافظ آبرو : ذيل جامع التواريخ رشيدى ، ص ١٤٥ - ١٥١ .

(٣) ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٥٣٤ - ٥٣٧ .

وأرمينية منذ عام ٧٣٢ هجرية وكان بينه وبين الأمير على پادشاه عداوة وثار ، فأرسل إلى الأمير شيخ حسن بزرگ يطلب منه اعداد قواته لمواجهة الموقف . وما أن اتحدت الثورتان ، ثورة شيخ حسن بزرگ وثورة حاجي طغاي ضد موسى خان ونائبه الأمير على پادشاه ، حتى سار شيخ حسن بزرگ قاصدا تبريز على رأس جيش من التركمان والعرب والایرانیین لمحاربة على پادشاه (٤) .

واختار الثوار أحد الأمراء من سلالة منگو تیمور بن هولاکو لمنصب الایلخانية ، كما اختاروا خواجه محمد زکریا سبط الوزير خواجه رشیدالدین فضل الله الهمدانی وزيرا .

نهائية موسى خان:

أسرع موسى خان لقتال أعدائه ، واصطفت في أرض المعركة جيوش الطرفين استعدادا للزوال والقتال ، ولكن حدث ما غير الوضع كلية ، ذلك أن زعماء المتصارعين اتفقوا على ألا تتقابل جيوشهما ، ويكتفي بصراع الطالبين بالملك على أن يعين من ينتصر منهما إيلخانا . وفعلتا تتقابل موسى خان مع محمد خان وتصارعا بالسيف تارة وبالأيدي تارة أخرى تبادلًا خلالها اللكمات ، وأخيرا تمكن موسى خان من هزيمة خصمه محمد خان ، وطرحه أرضا بعد أن أشبعه لكما وضربا . وحدث أثناء الصراع بين الملكين المغولین أن قام الشيخ حسن بزرگ فجأة وقتل بسيفه الأمير على پادشاه قائد جيوش موسى خان ، فخشى الأخير على نفسه ، وفر من أرض المعركة . وكان هروبه السبب الذي من أجله قرر أمراء المغول هزيمته وتنتحيته عن الحكم ، ففر إلى بغداد . وانتهت بذلك دولته وعصره بعد أن حكم شهرين اثنين (٥) .

محمد خان (٧٣٦ - ٧٣٨ هـ) :

اتفق كل من الأمير شيخ حسن بزرگ ومحمد خان على دخول تبريز بعد مقتل الأمير على پادشاه وهروب موسى خان إلى بغداد . وفي الرابع

(٤) Howorth; History of the Mongols, Vol. III, P. 637-638.

(٥) شرف خان البديسی : شرف نامه ، المجلد الثاني ، الترجمة العربية ، ص ٣٥ .

والعشرين من ذى الحجة سنة ٧٣٦ هجرية جلس محمد خان على العرش
الإيلخاني .

وكان أول عمل أقدم عليه الإيلخان الجديد أن سمح للأمير شيخ حسن
بزرگ أن يتزوج من دلشاد خاتون أرملة السلطان أبي سعيد ، لاسترداد حقه
واستعادة كرامته بعد أن لحقه الضرر نتيجة اغتصاب أبي سعيد زوجته
بغداد خاتون . ثم عينه الإيلخان الجديد محمد خان أميراً للأمراء ونائباً
للملك ، فقبض الأمير شيخ حسن بزرگ على زمام الأمور بيد من حديد ،
حتى أن محمد خان لم يكن له من الملك شيء ، بل كان العوبة في يد نائبه
بحركه كيف يشاء .

وبدأ الأمير حسن بزرگ يقتصص من الأمراء الذين وقفوا ضده في عهد
أبي سعيد ، بل وأذى كل من كان على صلة ببغداد خاتون ، فعاداه نتيجة
لذلك أمراء البيت الإيلخاني قاطبة ، ونفر منه كبار رجال الدولة لبطشه
بهم . علاوة على أعدائه القدماء وكانوا كثيرين ، وعادوا أيضاً الإيلخان
الجديد محمد خان ، وتوجهوا إلى خراسان بعيداً عن آذربيجان والعاصمة
تبريز وسلطانية ليعلموا فيها الثورة ضد شيخ حسن بزرگ الإيلخاني نائب
الملك . واستدعى الثائرون أحد أمراء المغول من أعقاب چنكيز خان ، ويدعى
طغاتيمور ، وكان يقيم بمازندران بعد تولية محمد خان ، ونصبوه إيلخانا
بخراسان ، وصار يدعى له في الخطبة وينقش اسمه على السكة (٦) . وعلى
هذا النحو أصبح في إيران إيلخانان اثنان ، أحدهما في الشرق وهو
طغاتيمور والآخر في الغرب وهو محمد خان .

وطمع شيخ على قوشجي ، أحد زعماء الحركة المناوئة لحكم محمد خان
ونائبه الأمير شيخ حسن بزرگ في منصب امرة الأمراء ، وجمع جيشاً أرسله
برفقة طغاتيمور للاطاحة بمحمد خان وشيخ حسن بزرگ المقيمين في آذربيجان ،
وبقي في خراسان ككنايب الملك . وعند وصول طغاتيمور إلى حدود آذربيجان
انضم إليه موسى خان - الإيلخان السابق وكان يقيم في بغداد - وتعاهدا
على أنه في حالة انتصارهما فانهما يقسمان المملكة بينهما ، على أن تكون

خراسان والمناطق الشرقية من الدولة الايلخانية من نصيب طغاتيمور ، أما محمد خان فانه يختص بحكم المناطق الغربية . وبعد أن درس خطة المعركة وطريقة القتال تابعاً مسيرهما في آذربيجان نفسها حتى التقيا بجيش محمد خان وشيخ حسن بزرگ في الخامس عشر من ذى القعدة سنة ٧٣٧ هجرية (يونيو عام ١٣٣٧ م) قرب مدينة مراغة .

وعلى هذا النحو تقابل المطلبون الثلاثة بالعرش الايلخاني في أرض معركة واحدة ، حيث دارت رحى الحرب بين الفريقين . وانهزم طغاتيمور هزيمة منكرة وتبدد شمل جيشه وفر من ميدان القتال تاركا حليفة موسى خان لمصير محتوم ، وهزم موسى خان بدوره ولكنه لم يتمكن من الفرار ووقع أسيراً في يد أعدائه وهو يحاول الفرار ، فقتله شيخ حسن بزرگ بيده في العاشر من ذى الحجة من العام نفسه (شهر يوليو سنة ١٣٣٧ م) . وفى اليوم نفسه الذى هزم فيه طغاتيمور ، قام أحد الأمراء ويدعى « ارغون شاه ابن الأمير نوروز » وهو في خراسان بقتل شيخ على قوشجى . وبذلك قضى في يوم واحد على عدوين قوين ل محمد خان ، وإن كان طغاتيمور قد رحل الى خراسان وأنشأ حكومة هناك .

نهاية محمد خان :

لم يكد ينعم محمد خان وأمير أمراؤه شيخ حسن بزرگ بجنى ثمار انتصارهما ، حتى فوجئاً في الثاني عشر من جمادى الثاني عام ٧٣٨ هجرية، أى بعد بضعة أشهر من انتصارهما على كل من طغاتيمور خان وموسى خان بقيام الأمير شيخ حسن كوجك بن تيمور تاش بن چوبان بثورة ضدهما ، وقاد عدة معارك في بلاد الروم بإسيا الصغرى انتصر فيها على جيوش الايلخان واستعد لدخول آذربيجان والاستيلاء على الحكم . وفى ٢٠ ذى الحجة سنة ٧٣٨ هجرية تقابل شيخ حسن كوجك مع جيوش محمد خان والتي كان يقودها أمير أمراؤه شيخ حسن بزرگ في « آلا تاغ » من نواحي نخجوان ببلاد القوقاز . واستمر فترة لم ينته فيها الى نصر حقيقى لأحد الأطراف المتنازعة ، ولكن رجحت كفة شيخ حسن كوجك بسبب ضيافة أحد قادة جيش

(٧) Howorth : History of the Mongols, Vol. III, P. 649

وأيضاً : حبيب الله شاملوئى : تاريخ إيران ، ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

شيخ حسن بزرگ ، ويدعى الأمير پير حسين ، وهو ابن عم شيخ حسن كوجك ، فانهزم جيش الايلخان ، وفر شيخ حسن بزرگ من ميدان القتال . أما محمد خان فانه ظل يحارب بشجاعة حتى وقع أسيرا في يد شيخ حسن كوجك الذى قتله في الحال . وأسس شيخ حسن كوجك حكومة في تبريز واتخذها عاصمة له . ولم تمض مدة حتى أصبحت الأسرة الجوبانية تتحكم في العران وآذربيجان بعد أن فقد محمد خان عرشه وحياته في آن واحد .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون يطمع في ضم بلاد الدولة الايلخانية الى دولته :

وكافئت أذباء اضطراب الأحوال الداخلية التى أعقبت موت السلطان أبى سعيد ، سببا في طمع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في ضم ايران والعراق - أو بمعنى أدق ممتلكات الدولة الايلخانية - الى دولته . وعندما قدمت اليه بعثات من شيخ حسن بزرگ ومحمد خان في أوائل عام ٧٣٨ هجرية (١٣٣٧ م) تطلب مساعدته ، فأرسل السلطان المملوكى بعض قواته الى حدود الدولة المغولية (٨) . ووقفت هذه القوات تنتظر ما تتخض عنه المعارك الدائرة بين الأطراف المتنازعة . وقد أفلقت انتصارات شيخ حسن كوجك السلطان الملك الناصر محمد ، ذلك أن والده تيمورقش بن چوبان ، والذى كان حاكما على آسيا الصغرى في عهد أبى سعيد وفر لاجئا الى مصر وقتل بأمر الناصر محمد سنة ٧٢٨ هجرية ، خوفا من أن يطالب شيخ حسن كوجك بدم والده مما يسبب للسلطان المملوكى مشاكل عديدة . وكان الناصر محمد يخشى من ازدياد قوة شيخ حسن كوجك ومن اتصالاته بأمراء مصر . وكان من بين الادعاءات التى أطلقها شيخ حسن كوجك احضاره رجلا تركيا يدعى « قرلچار » ، وزعم أنه والده وادعى أنه هرب من سجون القاهرة ، وأنه ظل مشردا عدة سنين في دول بعيدة (٩) . ولما وصلت انباء ثورة شيخ حسن كوجك مسامع الناصر محمد ، وظهر والده تيمورقش ناش خشى أن يكون الرجال الذين عهد اليهم بقتله قد خدعوه ، وأنه اذا استعاد مركزه لا بد وأن يشكل خطرا كبيرا وعدوا لدودا له . واستمر

(٨) محمد جمال الدين سرور (دكتور) : دولة بنى قلاوون في مصر ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .
(٩) Howorth; History of the Mongols, Vol. III, P. 641.

السلطان المملوكي يتحرى الحقيقة حتى علم بكذب الادعاءات ، فانستراح لذلك وترك الساحة الايرانية بما فيها من متاعب ومشاكل ومن فيهنسا من شخصيات متهورة متنافرة .

شغاتييمور خان (٧٣٧ - ٧٥٤ هـ) :

لم يكن طغاتييمور خان من سلالة چنكيز خان ، بل هو من الرعييل السادس لسلالة أخ من أخوة چنكيز خان . كان جده « بابا بهادر » قد قدم الى خراسان عام ٧٠٥ هجرية على رأس تومانه ودخل في خدمة السلطان محمد خدابنده أولجايتو ، وأغار على خوارزم عام ٧١٥ هجرية (١٣١٥ م) فشكا أوزبك خان ، ملك دولة دشت القيقاق بابا بهادر الى السلطان محمد خدابنده أولجايتو فعاقبه على ذلك بأن قتله هو وابنه شمرى والد طغاتييمور . أما قبيلة بابا بهادر فانها ظلت في مازندران ، وكان هذا الاقليم يضم في ذلك الوقت جرجان والجزء الشرقي من طبرستان (١٠) .

وبعد أن استولى شيخ حسن بزرك على آذربيجان واستبد بالسلطة ، اتفق جماعة من أمراء السلطان أبى سعيد على إقامة حكومة بخراسان . وكان من بين رؤساء الحركة الأمير بير حسن حفيد چوبان ، وأرغون شاه بن نوروز ، وعبد الله بن أمير مولاى وعلى جعفر وساعدتهم الأمير شيخ على بن على قوشجى ، وقرروا تنصيب الأمير طغاتييمور بالعرش المغولى ، ونادوا به ايلخانا عام ٧٣٧ هجرية (١٣٣٧م) . وبذلك أصبح في ايران ايلخانان ، أحدهما في شرق البلاد والثانى في غربها .

وكما سبق أن ذكرنا سار طغاتييمور خان على رأس الجيش المناصر له صلبة أمرائه وانضم اليه موسى خان المطالب الآخر بالعرش ، يظاهره الأويرات لقتال محمد خان . واتفق كل من طغاتييمور وموسى على اقتسام ايران والعراق بينهما ، ولكن شيخ حسن بزرك أمير أمراء محمد خان أوقع بهما الهزيمة في الثالث من ذى الحجة عام ٧٣٧ هجرية عند نهر « گرم رود »

(١٠) حمد الله المستوفى القزوينى : نزهت القلوب ، ص ٢٥٩ .

(م ٢٦ - تاريخ الدولة الملووية)

الى الغرب من ميانه فانسحب طغاتييمور الى بسطام حيث حكم مازندران وخراسان بوصفه خاناً .

وفي عام ٧٣٩ هجرية دعا شيخ حسن بزرگ طغاتييمور الى العراق ، فذهب اليها صحبة الأمير أرغون شاه بن نوروز وحفيد أرغون آقا أول حاكم مغولي على ايران . وتوجه شيخ حسن بزرگ للقاء طغاتييمور قرب ساوه . كما شرع طغاتييمور في الاتصال بشيخ حسن كوجك الجوباني ومفاوضته للانضمام الى حركته . وصادت تتم مصالحة نهائية بين الأطراف المتنازعة لولا أن طغاتييمور خان برم ، من دسائس شيخ حسن بزرگ ، فترك المنطقة كلها وعاد الى خراسان دون نتيجة تذكر .

وفي عام ٧٤١ هجرية (١٣٤١م) أغار طغاتييمور خان للمرة الثالثة على العراق فتناصره الأميرة سائتي بك ابنة السلطان أولجايتو خان وأخت السلطان أبي سعيد بهادر ، وممها ابنها « شبرغان » من الأمير جوبان ، فلحققت الهزيمة بجيش طغاتييمور الذي كان على قيادته أخوه الأمير علي كاوان . وعلى هذا النحو انتصر شيخ حسن كوجك على منافسيه وأصبح سيد الموقف .

ظهور السربداريين على مسرح السياسة الإيرانية في خراسان :

لم تسلم خراسان من الفتن والثورات ، ولكن هذه المرة لم يقم بالثورة أحد أمراء المغول أو قادة جيوشهم ، بل كانت ثورة نبعت من الشعب نفسه ، ذلك أن خواجه علاء الدين محمد وزير خراسان زمن طغاتييمور نهج سياسة غاشمة ، وأخذ الناس بالشدة ، واستغل بطائفته نفوذهم في الكاسب ، فادى كل ذلك الى استيلاء السربداريين على مدينة سبزوار ، وإعلانهم الاستقلال عام ٧٣٧ هجرية . وسرعان ما بسط السربداريون سلطانهم على خراسان ، وطردوا منها أرغون شاه صاحب نيسابور وطوس ، وهزم قائدهم وجيه الدين مسعود السربداري جيوش طغاتييمور عند نهر أترك وقتل أخوه علي كاوان ، وتمكنوا من توطيد سلطانهم وتأسيس دولة لهم في خراسان .

إن العداء الذي نشأ بين طغاتييمور والسربداريين ما لبث أن زال بعد

تمكنهم من السلطة واقرار طغاتييمور خان بوجودهم ، وحدث بين الطرفين مصالحة نستشفها من قيام أمراء السربداريين بزيارات الى بلاد طغاتييمور خان مرة كل سنة لتقديم ولائهم . ويذكر المؤرخون أن طغاتييمور خان كان رجلا متواضعا لا يميل الى القتال وسفك الدماء ، واستمر يحكم مدة سبعة عشر عاما في هدوء وراحة بال الى أن قتله أحد السربداريين في إحدى زيارته للخان . وكانت وفاته في اليوم السادس عشر من ذي القعدة عام ٧٥٤ هجرية (ديسمبر ١٣٥٣م) قبل أن ينتهي الحكم الايلخاني نهائيا في ايران والعراق بسنتين بوفاة الايلخان أنوشيروان العادل الفجائية .

ويذكر دولتشاه السمرقندي أن طغاتييمور خان كان يشبه السربداريين في رعايته للفقراء وصلاته بعوام الناس ، وأنه كان يشجع الدماء ولا يثق في النبلاء . وكان من عاداته أنه يصيف في « رادكان » ويشتي على نهر جرجان ، وبنى في مشهد عمارة جميلة . وكان لقبه على السكة « سلطان العالم » . وجاء في مجمع الفحشاء أن الشاعر ابن يمين الفريومدي كان مداح طغاتييمور خان ، ويذهب بعض الكتاب الى أن الخان نفسه كانت له مشاركة في الشعر .

ساتي بك (٧٣٩ - ٧٤١ هـ) :

عندما دخل شيخ حسن كوكچ مدينة تبريز منتصرا ، لم يجد أحدا من أمراء الأسرة الايلخانية يلبق بأن تسلم اليه مقاليد البلاد ، لكنه وجد الأميرة ساتي ابنة السلطان محمد خدابنده أولجايتو وأخت السلطان ابي سعيد بهادر متزعمة البيت الايلخاني ، وانضم الى جانبها بعد أن رفضت الانحياز الى شيخ حسن بزرگ ، وتوجه اليها وصحبها معه الى تبريز . وقد وافق الأمراء الايلخانيون بتحريض من شيخ حسن كوكچ على تعيين ساتي بك ايلخانا . وبرر الأمراء ذلك بأن لهذه الأميرة الحق في العرش ما دام لم يبق هناك ذكر من سلالة هولاكو على قيد الحياة ، ومن ثم ارتقت ساتي بك العرش الايلخاني سنة ٧٣٩ هجرية وصار يذكر اسمها في الخطبة وينقش على السكة ، واختارت لادارة شؤون البلاد وزيرين هما ركن الدين شيخى من أسرة خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني وغيث الدين محمد من أبناء علي شاه . وما لبثت الايلخان الجديد ساتي بك أن سارت بصحبة شيخ حسن كوكچ على رأس الجيش الذي التقف خولها

الى مدينة سلطانية • ولما سمع بذلك شيخ حسن بزرگ تقدم لىواجه منافسيه ، ثم دارت المفاوضات بينهما وحل الوثام بين المتحاربين محل الخصام ، واعترف شيخ حسن بزرگ بأحقية ساتى بك فى عرش المغول (١١) •

وانحصرت مملكة الايلخان ساتى بك فى آذربيجان وأران ، وبدأ شيخ حسن كوجك يتدخل فى أمور الدولة • أما بقية الولايات فكانت تحت حكم أمراء منفصلين عن الدولة الايلخانية الأم مثل سلطانية والعراق العجمى اللتين كانتا تحت حكم شيخ حسن بزرگ، وديار بكر تحت حكم حاجى طغاي، وبغداد والعراق العربى يحكمها أمراء قوم « الأويرات » ، والولايات الرومية (آسيا الصغرى) يحكمها الأمير « أريتا » ومثلك أشرف وهو ابن تيمور ناش ابن الأمير نوروز ، وفارس تحت حكم أمراء آل اينجو ويسزد تحكما أسرة آل المظفر ، وقهستان يحكمها عبد الله بن أمير مولاى ، وهرات وجزء من خراسان يحكمها آل كرت ، وجرجان وجزء من خراسان يحكمها طغاتييمورخان وأيضاً السربدارين ، أما كرمان وأصفهان فكان بهما أمراء محليون يتولون حكمها •

وبعد أن استقرت ساتى بك على العرش الايلخانى ، ظهر شيخ الحرب بين الأميرين شيخ حسن كوجك وشيخ حسن بزرگ ، وتدخلت الملكة ساتى بك لفض نزاعهما وأصلحت فى كثير من الأحيان ما بينهما ، ولكن شيخ حسن بزرگ نقض العهد بعد ذلك ، وحرض طغاتييمور خان على محاربة حسن كوجك ، فما كان من الأمير الأخير إلا أن رتب جنوده واستعد لملاقاة طغاتييمور خان •

وهدد شيخ حسن كوجك طغاتييمور خان قبل بداية القتال ، وذكر له أوضاع البلاد السيئة وأن شيخ حسن بزرگ هو الذى يحرض على الفتنة ، وهو الذى يجب محاربته • كما أسر اليه أن ساتى بك سوف تتزوجه ويكون لهما العرش الايلخانى وحدهما • فما كان من طغاتييمور خان إلا أن بعث

(١١) ميرخواند : روضة الصفا ، المجلد الخامس ، ص ٥٤٦-٥٤٧ •

(١٢) شرف خان البديلىسى : شرف نامه : الجبىز الثانى ، ص ٣٨

برسالة الى الملكة ساتي بك يخطب ودما ويناشدها الوثام ونبذ الخصام .
فكانت تلك الرسالة سببا في نقض شيخ حسن بزرگ لعهدہ ، وجاء لخدمة
ساتي بك وقبل يدها ، وأحمد الفتنة التي كانت قد أثارها شيخ حسن
كوچك ، وفي الوقت نفسه تعبت ساتي بك من دسائسه ، ففرت اليها شيخ
حسن بزرگ حتى صار معززا مكرما عندهما .

نهاية ساتي بك :

وجد شيخ حسن كوچك الجوباني أن غريمه شيخ حسن بزرگ
الجلالري قد انتصر عليه ، وأصبح صاحب الكلمة العليا في المملكة ، وأنه
لا بد أن يعمل شيئا للقضاء على التحالف الموجه ضده فاعلن عداوه للملكة
ساتي بك ، وصرح بأن منصب الايلخان لا يليق الا للرجال ، وأحضر أحد
أحفاد يشموت بن هولوكو ويدعى « سليمان » ونصبه ايلخانا ولقبه باسم
« سليمان خان » ، وأجبر ساتي بك على الزواج منه . ولم يقبل شيخ حسن
بزرگ عن هذا الوضع ، فقام بتنصيب « عز الدين » ابن الأفرك بن كيخاتو
ايلخانا ولقبه باسم « شاه جهان تيمور خان » واختار لمنصب الوزارة
شمس الدين زكريا .

وبذلك أصبح يحكم ايران ايلخانان هما سليمان خان وشاه جهان
تيمور خان . وواقع الأمر أنهما لم كونا الا واجهة للخلاف بين شيخ حسن
كوچك وشيخ حسن بزرگ . وأخيرا التقى الفريقان المتنازعان على الايلخانية
في اليوم الأخير من شهر ذي الحجة عام ٧٤٠ هجرية قرب نهر « جغاتو »
عند مراغه وانهمز شاه جهان تيمور خان وشيخ حسن بزرگ ، وتوجه الأخير
الى بغداد . وبعد عزل شاه جهان تيمور خان رسميا استقل شيخ بزرگ
ببغداد والعراق وأسس الدولة الايلكانية أو الجلايرية .

شاه جهان تيمور خان (٧٣٩ - ٧٤٠ هـ) :

اسمه الأصلي عز الدين بن الأمير الأفرك بن كيخاتون خان ، وعندما
اعتلى العرش الايلخاني تلقب باسم « شاه جهان تيمور خان » . وكان رجلا
ضعيفا خاملا ولم يكن إلا آلة في يد شيخ حسن بزرگ الجلايري ، ولم تكن
له معرفة بفنون السياسة والحرب وإدارة الحكم مما كان سببا في هزيمته
والإطاحة بعرشه وإحلال النكبة بطنينته الجلايري .

وقد أشار شرف خان البدييسى الى أحداث شاه جهان تيمور خان على النحو التالى : « سنة ١٣٣٩/٧٤٠ - ٤٠ : في مطلعها اعتلى العرش في بغداد جهان تيمور بن أولافرنك ابن كيخاتون خان بفضل مساعى الشيخ حسن بزرگ ، فحدث بينه وبين سليمان خان والشيخ حسن كوچك صدام في يوم الأربعاء من شهر ذى الحجة من السنة المذكورة في نواحى تققوى ؟ من أعمال مراغه ، فلحقته الهزيمة وانتصر الأمير الشيخ حسن كوچك انتصارا باهرا ، وعاد الى تبريز ظافرا فعين من هناك الأمير سيورغان بن چوبان وأخاه الأمير أشرف بن تيمور تاش في منصب امارة العراق العجمى ، وأرسل ابن عمه الأمير پير حسين بن الأمير الشيخ محمود بن الأمير چوبان الى فارس ليتولى حكومتها . هذا ولما بلغ الأمير الشيخ حسن بزرگ بغداد منهزما من تلك المعركة الساحقة لاحظ عدم لياقة جهان تيمور للمنصب السامى فعزله » (١٣) .

هذا وقد نصب الشيخ حسن بزرگ الجلايرى شاه جهان تيمور ايلخانا في الخامس من ذى الحجة سنة ٧٣٩ هجرية ، وخلعه أيضا في ١٧ ذى الحجة سنة ٧٤٠ هجرية . وليست له أفعال تذكر تستحق التسجيل .

سليمان خان (٧٤١ - ٧٤٥هـ) :

وبعد هزيمة شاه تيمور خان ، قام الأمير شيخ حسن كوچك بتنصيب سليمان خان ايلخانا ، ولم يكن في واقع الأمر سوى آله في يده . أما حكمه فكان يشمل أقاليم أران وأذربيجان وكرجستان والعراق العجمى . أما شيخ حسن بزرگ الجلايرى الذى أصيب بهزائم متتالية من غريمه حسن كوچك الجوبانى ، وأراد أن يصل لهدفه ولو تحالف مع الشيطان حتى يتلافى الهزيمة مرة أخرى ، فانه اتصل بالملك الناصر محمد بن قلاوون لسلطان الملوکی ليعاونه في حربه ضد شيخ حسن كوچك . وكان القتال في بدايته في صالح الأمير شيخ حسن كوچك . وبعد هزيمة « حاجى طغای » أمير ديار بكر ، حمل شيخ حسن كوچك على العراق العربى مقر حكم شيخ

(١٣) عباس اقبال آشتيانی : تاريخ مغول ، ص: ٣٥٨ .

حسن بزرگ ، ولكنه هزم على يد قائد شيخ حسن بزرگ ، فاضطر للعودة الى تبريز بعد أن قتل من الأهالي عددا كبيرا ونهب البلاد التي في طريقه .

ولم يهنا شيخ حسن كوچك بانتصاره وتوطيد أركان حكمه ، فانه واجه في عام ٧٤١ هجرية فتنا وثورات وتكتلات سياسية وعسكرية ضده ، من بينها ثورة الأمير سيورغان بن ساتي بك من الأمير جويان الذي اتحد مع طغاتييمور خان ، وأيضا ثورة الأمير « على گاوان » أخ طغاتييمور خان الذي تمكن من الاستيلاء على أبهر وشرع يناوش قوات شيخ حسن كوچك . كذلك لم يسكت شيخ حسن بزرگ الجلايرى على عدوه القديم شيخ حسن كوچك ، فاستمر يحرض الأمراء ويشعل الثورات ويؤلب العامة ضده في كل مكان .

مقتل شيخ حسن كوچك :

كان شيخ حسن كوچك من القوة بحيث يمكنه مواجهة أعدائه مجتمعين ، وكان الجميع يرهبونه لقوته وسطوته ويتمنون القضاء عليه حتى يستريح الناس من بطشه وذسوته . فحياته لم تنق الا على يد زوجته التي قتلتها بيدها غدرا .

ان قصة مقتل شيخ حسن كوچك الجويانى تبين بوضوح سلوك الأسرة المغولية الخاص ، وانهايار الأخلاق بينهم وعدم الوفاء بين الزوجين ، ذلك أن « عزت ملك » زوجة شيخ حسن كوچك كانت على علاقة بأحد قادة زوجها ويدعى الأمير يعقوب شاه ، وكان من أمراء بلاد الروم وتربطه علاقة وطيدة بشيخ حسن كوچك الجويانى . وعندما هزم الأمير يعقوب شاه قائد جيش شيخ حسن كوچك في الحرب ضد شيخ حسن بزرگ ، سجنه شيخ حسن كوچك عقابا له على تخاذله وخطئه فطانت « عزت ملك » أن زوجها اطلع على أسرارها مع الأمير يعقوب شاه وعرف خيانتها فأودعه السجن ، وحتى تحفظ ماء وجهها ، قامت في ٢٧ رجب عام ٧٤٤ هجرية بضرب زوجها بخنجر فمات على الفور . وعندما علم أعوان شيخ حسن كوچك ما حل بزعيمهم وما فعلته زوجته « عزت ملك » وخيانتها زوجها قتلوها على الفور ، وقطعوا أربا أربا .

وبعد موت شيخ حسن كوچك الجويانى ، قام سليمان خان بتقسيم

أموال شيخ حسن كوجك وممتلكاته على أمرائه . وإذا كان سليمان خان العويبة في يد شيخ حسن كوجك أثناء حياته فانه بعد وفاته أصبح آتية في يد ثلاثة من الأمراء الجويانيين ، وهم سيورغان وياغى باستى أبناء الأمير جوبان ، وملك أشرف حفيد جوبان . وقد استمروا يحكمون ما تحت أيديهم من مناطق فترة الى أن نشب بينهم الخلاف والقتال . وكان ملك أشرف في جانب ، وسيورغان وياغى باستى وسليمان خان في الجانب الآخر ، وقامت الحرب بين الطرفين المتنازعين . كان النصر فيها حليف ملك أشرف ، وأطاح بهم جميعا وأحضر شخصا يدعى « أنو شيروان » غير معلوم الأصل والنسب ، وأجلسه على العرش الايلخاني وتلقب بالعدل . وعلى هذا النحو انتهى عهد سليمان خان .

أنو شيروان العدل (٧٤٤ - ٧٥٦ هـ) :

بعد أنو شيروان العدل آخر من حكم من الأسرة الايلخانية ، وقد نصبه ملك أشرف الجوياني ايلخانا في ٢٤ المحرم سنة ٧٤٤ هجرية بعد انتصاره على أعدائه المثلثين في سليمان خان الايلخان المغولي وقائديه سيورغان وياغى باستى . وكان أنو شيروان رجلا مغمورا غير معروف حتى لأمره البيت الايلخاني الحاكم ، ولم يطمع في منصب ولا نفوذ بعد أن وجد الأمور تسير من سىء الى أسوأ أثر السلامة . وعندما فطن ملك أشرف الى أحوال أنوشيروان وأوضاعه وجد ضالته في شخصه ، وبخاصة أن أنوشيروان كان يقضى طوال يومه في الشراب والطرب مع الغانيات ، كما كان يتعاطى المواد المخدرة ، فنصبه ملك أشرف ايلخانا ، واستحوذ هو على رئاسة الحكومة وإدارة شؤونها ، وكان ينجز باسمه أعمال الدولة كلها .

أما عن قائد سليمان خان ، فان سيورغان قد التجأ الى شيخ أوبيس ابن شيخ حسن الجلايري الذي استضافه فترة ، ثم قتله بعد ذلك ، كما التجأ ياغى باستى الى ملك أشرف لكنه قتله أيضا وبذلك تخلص من خطر منافسيه .

واستمر حكم أنو شيروان العدل حتى توفي فجأة في الرابع والعشرين من رجب عام ٧٥٦ هـ وتذكر بعض المصادر التاريخية أن ملك أشرف شك في

إخلاصه له فأمر بإعدامه . واستمر ملك أشرف يحكم ما تبقى من ولايات
بعد وفاة أنو شيروان مدة ثلاث سنوات إلى أن قتل في ١٧ صفر ٧٥٩ هـ
بأمر « جاني بيك » ملك دشت القيقاق الذي حرض أهل تبريز على القيام
ضد ملك أشرف والإطاحة به ووجد أهالي تبريز الفرصة سانحة لأخذ
ثأرهم من ملك أشرف الجوباني الذي مكث خمسة عشر عاما يظلمهم ويسومهم
سوء العذاب ، فحملوا عليه إلى أن قتل آخر الأمر .

وقبل سنتين من وفاة أنو شيروان العادل ، كان طغاتيمور خان
الناطق الشرقية من الدولة الإيلخانية قد توفي سنة ٧٥٤ هجرية ، بعد أن
حكم سبعة عشر عاما . وعلى ذلك تعتبر سنة ٧٥٦ هجرية - وهي السنة
التي توفي فيها أنو شيروان العادل - السنة التي انقضت فيها الاسرة
الإيلخانية التي حكمت إيران قرابة قرن من الزمان .

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24

25

26

27

28

29

30

31

32

33

34

35

أولا : المراجع الفارسية

(أ) الكتب :

ابن بيبى : ناصر الملة والدين يحيى بن محمد بن على الجعفرى الرغدى
المعروف بابن بيبى المتجمة *

١ - الأوامر العلانية في الأمور العائلية ، تحقيق م. ه. هوتسما ،
ليدن ١٩٠٢ م *

ابن شهاب : حسن بن شهاب الدين حسن بن تاج الدين اليزدى ،

٢ - جامع التواريخ حسيني ، نسخة مخطوطة بمكتبة السلطان الفاتح
بإستانبول رقم ٤٣٠٧ مدونة سنة ٨٥٩ هجرية ، وأخرى بالمكتبة
الوطنية الايرانية (كتابخانه ملي ايران) رقم ١٣٣٠ مدونة
سنة ٨٨٠ هجرية *

اقبال ، عباس ——— آشتياني :

٣ - تاريخ مفصل ايران ، جلد اول : از جمله چنكيز تا تشكيل دوله ،
تيمورى ، طهران ١٣١٢ ه.ش *

البفاكتي : فخر الدين أبو سليمان داود بن تاج الدين أبو الفضل ،
٤ - روضة أولى الألباب في معرفة التواريخ والأنساب ، المعروف باسم
« تاريخ بناكتي » تحقيق جعفر شعار ، نشر « انجين آثار ملي » ،
طهران ١٣٤٨ ه.ش *

الببيضاي : القاضى أبو الخير ناصر الدين عبد الله بن عمر
الببيضاي الشيرازي ،

٥ - نظام التواريخ ، تحقيق بهمن كويمى ، طهران ١٣١٣ ه.ش *

حافظ ابرو : شهاب الدين عبد الله بن لطف الله ،

٦ - زبدة التواريخ بايستغرى ، وهو المجلد الرابع من كتاب حافظ ابرو
« مجمع التواريخ سلطاني » المعروف بزبدة التواريخ ، تحقيق دكتور

- خانبابا بیانی ، طهران ۱۳۱۷ ه.ش .
- حمد الله المستوفی : أبو بكر بن أحمد بن نصر الفزوينی (ت ۷۵۰ ه) ،
- ۷ - تاریخ گزیده ، تحقیق عبد الحسین نوائی ، نشر مكتبة أمير كبير ، طهران ۱۳۳۹ ه.ش .
- ۸ - نزهة القلوب ، تحقیق محمد دبیر سیاقی ، نشر مكتبة طهوری ، طهران ۱۳۳۷ ه.ش .
- الجوينی : عطا ملك بن بهاء الدين (ت ۶۸۱ ه) ،
- ۹ - تاریخ جهانگشا ، تحقیق محمد رمضانی ، طهران ۱۳۳۸ ه.ش .
خواندمیر : غیاث الدين بن همّام الدين ،
- ۱۰ - حبيب السير فی أخبار أفراد البشر ، الجزء الثالث ، نشر مكتبة الخيام ، طهران ۱۳۳۴ ه.ش .
- ۱۱ - دستور الوزراء ، تحقیق سعيد نفیسی ، نشر مكتبة اقبال ، طهران ۱۳۱۷ ه.ش .
- رشید الدين فضل الله الهمدانی : فضل الله بن عماد الدولة (ت ۷۱۸ ه) ،
- ۱۲ - تاریخ فرهنگ از جامع التواریخ ، تحقیق محمد دبیر سیاقی ، نشر مكتبة فروغی ، طهران سنة ۱۳۳۰ ه.ش .
- ۱۳ - تاریخ مبارك غازاتی (دأستان غازان خان) ، نشر كارل يان Karl Jahn ، هرتفورد انجلترا ، سنة ۱۳۵۸ ه = ۱۹۴۰ م .
- ۱۴ - تاریخ اجتماعی دوره مغول از جامع التواریخ ، تحقیق أمير حسين جهانگلو ، نشر مكتبة تاييد ، اصفهان سنة ۱۳۳۶ ه.ش .
- ۱۵ - جامع التواریخ ، تحقیق بهمن کریمی ، نشر مكتبة اقبال ، طهران سنة ۱۳۳۸ ه.ش .
- ۱۶ - جامع التواریخ ، جلد دوم : در تاریخ پادشاهان مغول از اوکتای قا آن تا تیمور قا آن ، نشر بلوشیه Blochet ، لیسن سنة ۱۳۲۹ ه = ۱۹۱۱ م .

- ۱۷ - جامع التواریخ ، (تاریخ مغول در ایران) ، نشر کاترمیر ، پاریس
سنة ۱۸۳۷ م .
- سفتوده : حسین ظلی (دکتر) ،
- ۱۸ - تاریخ آل مظفر ، جزءان ، نشر جامعة طهران رقم ۱۱۴۵ ، طهران
۱۳۴۶ هـ . ش .
- سعدی شیرازی : أبو عبد الله مشرف الدین بن مصباح الدین
(ت ۶۹۴ هـ) ،
- ۱۹ - کلیات شیخ سعدی شیرازی ، تحقیق محمد علی فروغی ، نشر مكتبة
محمد علی علمی ، طهران ، بدون تاریخ .
- قزوینی : محمد بن عبد الوهاب .
- ۲۰ - یاد داشت های قزوینی ، جلد ششم ، تحقیق ایرج افشار ، نشر
جامعة طهران رقم ۷۴۲ ، طهران سنة ۱۳۴۱ هـ . ش .
- شاملوئی : حبیب الله ،
- ۲۱ - تاریخ ایران : از ماد تا پهلوی ، نشر بنگاه مطبوعات صفیعلی شاه ،
طهران ۱۳۴۷ هـ . ش .
- صدیق ، عیسی :
- ۲۲ - تاریخ فرهنگ ایران ، نشر جامعة طهران رقم ۵۶۷ ، الطبعة الرابعة ،
طهران سنة ۱۳۴۷ هـ . ش .
- صفا : ذبیح الله (دکتر) ،
- ۲۳ - تاریخ ادبیات در ایران ، المجلد الثالث ، القسم الأول ، نشر مكتبة
ابن سینا ، طهران سنة ۱۳۴۱ هـ . ش .
- کرمانی : ناصر الدین منشی ،
- ۲۴ - نسائم الأسحار من لطائف الأخبار در تاریخ وزرا ، تحقیق میر
جلال الدین حسینی آرموی «محدث» ، نشر جامعة طهران ، طهران
سنة ۱۳۳۸ هـ . ش .
- کریم الأقبرائی : محمود بن محمد المعروف بکریم الأقبرائی ،

٢٥ - مسامرة الأخبار ومسامرة الأخبار ، تحقيق عثمان توران ، أنقرة ،
سنة ١٩٤٣ م .

لسوى : حبيب (دكتور) ،

٢٦ - تاريخ يهود ايران - المجلد الثالث ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة
بروخيم طهران سنة ١٩٦٠م = ١٣٣٩ هـ . ش .

مرتضوى : منوچهر .

٢٧ - تحقيق در باره دوره ايلخانان (دين ومذهب ، تصوف ،
تاريخنويسى ، مقلدين شاهنامه) ، نشر مكتبة طهران في تدريس ،
سنة ١٣٤١ هـ . ش .

منهاج سراج : قاضى منهاج الدين أبو عمرو عثمان بن سراج الدين
محمد الجوزجاني (ت ٦٩٨ هـ) ،

٢٨ - طبقات ناصرى ، تحقيق عبد الحى حبيبي القندهارى ، طبع المجلد
الأول في كابول سنة ١٣٢٨ هـ . ش . = ١٩٤٩م ونشر المجلد الثانى
بجامعة لينجاب ، لاهور ١٩٥٣ م .

مير خواند : مير محمد بن سيد برهان الدين خواند شاه الشهير
بمير خواند ،

٢٩ - روضة الصفا ، المجلد الخامس ، نشر مكتبة الخيام بالاشتراك مع
مكتبتى مركزى وپيروز ، طهران سنة ١٣٣٩ هـ . ش .

نافذ أوزلوق : فريدون ،

٣٠ - تاريخ آل سلجوق در آنا طولى ، ويعرف أيضا باسم « الآثار المولوية
في الأدوار الساجوقية » غير معروف المؤلف ، نشر النص الفارسي
وترجمه له بالتركية العالم التركى فريدون نافذ أوزلوق أنقرة
سنة ١٩٥٢ م .

وصاف الحضرة : أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى
(ت ٧٣٠ هـ) ،

٣١ - تاريخ وصاف المعروف باسم « تجزية الأمصار وتجزية الأعصار » ،

تحقیق محمد مهدی أرباب الأصفهانی ، بومبی سنة ۱۲۶۹ هـ =
۱۸۵۳ م .

(ب) المقالات :

- آلیاری : حسین (دکتر) ،
۳۲ - چنگیز خان مغول ، مجلة كلية الآداب جامعة تبریز ، العدد الأول ،
السنة العشرین ، رقم مسلسل ۸۵ ، ربيع سنة ۱۳۴۷ هـ . ش .
استروویوا : ل . و . ،
۳۳ - باز پسین خوارزمشاه ، واسماعیلیان الموت ، ترجمة كريم كشاورز ،
مجلة راهنمای کتاب ، السنة السادسة .
اقبال : عباس — آشتیانی ،
۳۴ - هولاكو ومستعصم خليفه ، مجلة مهر ، السنة الأولى .
اورى : پیتیر ،
۳۵ - بر رسی عوامل حمله چنگیز خان به ما وراء النهر . مجلة كلية الآداب
جامعة طهران ، العدد الأول ، السنة السابعة .
بویبل ، جان اندرو :
۳۶ - مغولان وأوربا ، ترجمة على محمد عامرى ، مجلة سخن ،
السنة العاشرة .
پطروشفسكى :
۳۷ - نهضت سربداران در خراسان ، ترجمة كريم كشاورز ، مجلة فرهنگ
ایران زمین ، العدد العاشر .
حقیقت ، (رفیع) عبد الرفیع :
۳۸ - نهضت سربداران ، مجلة وحید ، السنة الثالثة .
غرجستانی ، م :
۳۹ - مأموریت هولاكو برای دفع اسماعیلیه ، مجلة آریانا ، العدد العاشر ،
المجلد السادس عشر .

- گروسه ، رنیه : *مجله تفنّن ایرانی* ، مجله تفنّن ایرانی ، ٤٠ - ایران وعالم ترك ومغول ، ترجمة عيسى بهنام ، ٤٧٠ - ٤٧٥ .
- ٤١ - مغول در ایران ، ترجمة عيسى بهنام ، تمدن ایرانی ، ص ٢٧٦ - ٢٨١ .
میر حسین شاه :
- ٤٢ - چنگیز در غور و غرستان ، مجلة آریانا ، العدد الرابع ، المجلد السادس عشر .
- نخجوانی ، حاج حسین :
- ٤٥ - فرمانی از فرامین دوره مغول ، مجلة كلية الآداب جامعة تبریز ، العدد الأول ، المجلد الخامس .
- ولادیمیر نسف ، ب :
- ٤٦ - گروه بندی ایلات واختلاف طبقاتی جامعه ایلی مغول در قرون ١١ و ١٢ میلادی ، ترجمة الدكتور شيرين بياني ، مجلة كلية الآداب جامعة طهران ، العدد ٥٠ السنة ١٣ ، طهران سنة ١٣٤٤ هـ .ش .
هادی محسن :
- ٤٧ - عملیات نظامی مغول ، ضمن مجموعة مقالات في كتاب بعنوان « مجموعة مقالات » من الصفحة ١٤٧ الى ١٥٨ .

ثانيا : المراجع العربية

- ابن أبي الفاضل : مفضل (ت ٦٧٢ هـ) .
- ٤٨ - النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، نشر بلوشيه پاریس سنة ١٩١١ م .
- ابن الأثير الجزري : علی بن أحمد بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ) ،
- ٤٩ - الكامل في التاريخ ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٣٤٨ - ١٣٥٨ هـ .
- ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م) ،
- ٥٠ - رحلة ابن بطوطة التسماء تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، نشر دار صادر ، بيروت سنة ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى
بردى الأتابكى ،

٥١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - الجزء السابع ، نشر الهيئة
المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

٥٢ - المنهل الصافي والمسنوفى بعد الوافى - الجزء الأول ، تحقيق
أحمد يوسف نجاتى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة
سنة ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٦ م .

ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن حجر
العسقلانى :

٥٣ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، الجزء الثالث ، القاهرة .

ابن خلدون : ولى الدين عبد الرحمن بن محمد (تـ ٨٠٨ هـ) ،
٥٤ - العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ويعرف بتاريخ ابن خلدون ، القاهرة
١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧ م .

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر
الشافعى (تـ ٦٨١ هـ) ،
٥٥ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، نشر مكتبة النهضة المصرية ،
القاهرة ١٣٤٨ هـ .

ابن شاكر الكتبى : فخر الدين محمد بن أحمد الكتبى (تـ ٧٦٤ هـ) ،
٥٦ - فوات الوفيات ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٥١ م .

ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطبا ، المعروف باسم ابن الطقطقى ،
٥٧ - الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، نشر مكتبة صبيح ،
القاهرة ١٣٨١ هـ = ١٩٦٢ م .

ابن العبرى : غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب الملقب المعروف
بأبن العبرى (تـ ٦٨٥ هـ) ،
٥٨ - تاريخ مختصر الدول ، طبعة معادة عن الطبعة الأولى ١٨٩٠ بالمطبعة
(م ١٧ - تاريخ الدولة المغولية)

الكاثوليكية بيروت ، لبنان سنة ١٩٥٨ ، وضع حواشيها الأب أنطوان صالحاني اليسوعي .

ابن عربشاه : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله ابن ابراهيم بن عربشاه الدمشقي الحنفى العجمى المعروف بابن عربشاه (ت ٨٥٤ هـ) ،

٥٩ - فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، طبعة بولاق سنة ١٢٧٦ هـ .

ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ،

٦٠ - تاريخ ابن الفرات ، تحقيق الدكتور قسطنطين رزيق والدكتورة نجلا عز الدين ، المطبعة الأمريكية ، بيروت سنة ١٩٣٨ م .

ابن الفوطى : كمال الدين عبد الرزاق (ت ٧٢٣ هـ) ،

٦١ - الحوادث الجامعة في التجارب النافعة في المائة السابعة ، نشر مصطفى جواد ، بغداد سنة ١٣٥١ هـ .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ) ،

٦٢ - البداية والنهاية في التاريخ ، القاهرة ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٢ - ١٩٣٩ م .

ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠ هـ) ،

٦٣ - تنمة المختصر في أخبار البشر ، القاهرة سنة ١٢٥٨ هـ = ١٨٦٨ م .

أبو رابعة : عبد الخالق سيد ،

٦٤ - الاسلام والتتار ، نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، سلسلة

«دراسات في الاسلام» العدد ٢٢١ ، القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن شهاب الدين

المعروف بأبى شامة المقدسى الدمشقي (٦٦٥ هـ) ،

٦٥ - كتاب الذيل على الروضتين ، تحقيق عزت العطار الحسينى الدمشقي

بعنوان «تراجم رجال القرنين السادس والسابع» ، القاهرة

سنة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م .

أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل على صاحب حماه

(ت ٧٣٢ هـ) ،

٦٦ - المختصر في أخبار البشر ، القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ .

- أدى شير ، رئيس أساقفة سعرد الكلداني :
- ٦٧ - الألفاظ الفارسية العربية ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ م .
- أرنولد : سير توماس و .
- ٦٨ - الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور عبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى ، الطبعة الثانية ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- بارتولد : فلاديمير (ت ١٩٢٧ م) ،
- ٦٩ - تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، نقله إلى العربية الدكتور أحمد السعيد سليمان ، القاهرة سنة ١٩٥٨ م .
- ٧٠ - تاريخ الحضارة الإسلامية ، نقله من التركية إلى العربية حمزة طاهر ، نشر دار المعارف بمصر ، القاهرة سنة ١٩٥٢ م .
- باركر (أرنست) ،
- ٧١ - الحروب الصليبية ، نقله إلى العربية السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- بدرى محمد فهد (دكتور) .
- ٧٢ - تاريخ العراق في العصر العباسى الأخير (٥٥٢ - ٦٥٦ هـ = ١١٥٧ - ١٢٥٨ م) مطبعة الرشاد ، بغداد سنة ١٩٧٣ م .
- البدليسى : شرف خان ،
- ٧٣ - شرفنامه - الجزء الثانى ، ترجمه إلى العربية محمد على عونى ، نشر دار احياء الكتب العربية « عيسى البابى الحلبي وشركاه » ، القاهرة سنة ١٩٦٢ م .
- براون : ادوارد جرانفيل (ت ١٩٢٦ م) ،
- ٧٤ - تاريخ الأدب في إيران من الفردوسى إلى السعدى ، ترجمه إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربى ، القاهرة سنة ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م .
- بروكلمان (كارل) :
- ٧٥ - تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومني

البلبلكى ، الطبعة السابعة ، نشر دار العلم للملايين ، بيروت
سنة ١٩٧٧ م •

حافظ حمدي :

٧٦ - الدولة الخوارزمية والمغول ، نشر دار الفكر العربي ، القاهرة
سنة ١٩٤٩ م •

٧٧ - الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، نشر دار الفكر العربى ،
القاهرة ١٩٥٠ م •

حسين مؤنس :

٧٨ - الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، القاهرة سنة ١٩٣٨ م •

الخربوطلى : على حسنى (دكتور) ،

٧٩ - بين المغول واليهود ، نشر المجلس الأعلى للثئون الاسلامية ، سلسلة
« دراسات فى الاسلام » ، العدد ١٠٣ ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م •

٨٠ - غروب الخلافة الاسلامية ، نشر مؤسسة المطبوعات الحديثة ،
بدون تاريخ •

خصباك : جعفر حسين (دكتور) ،

٨١ - العراق فى عهد المغول الايلخايين ، بغداد سنة ١٩٦٨ م •

الدياربكرى : (ت ٩٦٦ هـ = ١٥٥٨ م) •

٨٢ - تاريخ الخميس فى احوال أنفس نفيس ، القاهرة سنة ١٢٨٣ هـ =
١٨٦٦ م

الذهبي (الحافظ) : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان

الذهبي التركمانى الدمشقى الفاروقى الشافعى (ت ٧٤٨ هـ) •

٨٣ - دول الاسلام ، الجزء الثانى ، الطبعة الثانية ، حيدر آباد الدكن ،
سنة ١٣٣٧ هـ •

٨٤ - العبر فى خبر من غير - الجزء الخامس ، تحقيق الدكتور صلاح الدين
المنجد ، نشر وزارة الارشاد والأنباء فى دولة الكويت ، سلسلة التراث

العربي رقم ١٥ ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت سنة ١٣٨٦ هـ =
١٩٦٦ م .

الرافعي : عبد الرحمن الرافعي بالاشتراك مع سعيد عبد الفتاح عاشور ،
٨٥ - مصر في العصور الوسطى - من الفتح العربي حتى الغزو العثماني ،
الطبعة الأولى نشر دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

رشيد الدين فضل الله : فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق
الدولة (ت٧١٨هـ) ،

٨٦ - جامع التواريخ ، تاريخ المغول ، المجلد الأول : تاريخ هولاكو مع
مقدمة كاترمير ، نقله عن الفارسية الأستاذ محمد صادق نشأت
والدكتور محمد موسى هندلوي والدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد ،
وترجم مقدمة كاترمير عن الفرنسية الدكتور محمد محمد القصاص ،
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

رنسيمان ، ستيفن :

٩٠ - تاريخ الحروب الصليبية : الجزء الثالث ، ترجمة الدكتور السيد
عرينى الباز ، بيروت ١٩٦٩ م .

زيتير ستين :

٩١ - تاريخ سلاطين المماليك - مجهول المؤلف ، تحقيق زيتير ستين ،
لين سنة ١٩١٩ م .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

٩٢ - الحركة الصليبية ، صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور
الوسطى ، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة الانجلو المصرية ،
القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

٩٣ - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

٩٤ - الظاهر بيبرس ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ١٤ .

٩٥ - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، نشر مكتبة النهضة المصرية ،
القاهرة .

السيوطى : جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد
(تد ٩١١ هـ) .

٩٦ - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائلين بأمر الله ، القاهرة سنة
١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م ، أعيد طبعه بتحقيق محمد محيى الدين
عبد الحميد ، القاهرة ١٣٧١ هـ = ١٩٥٢ م .

السنجاوى : عبد الفتاح ،
٩٧ - النزعات الاستقلالية فى الخلافة العباسية ، الطبعة الرابعة ،
القاهرة ١٩٤٥ م .

سرور : محمد جمال الدين (دكتور) ،
٩٨ - دولة بنى قلاوون فى مصر ، نشر دار الفكر العربى ، القاهرة
سنة ١٩٤٧ م .

٩٩ - دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ، القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
الشواربى : ابراهيم أمين (دكتور) ،
١٠٠ - مصادر فارسية فى التاريخ الاسلامى ، مقال منشور بمجلة كلية
الآداب جامعة فؤاد الأول المجلد السابع ، يوليو ١٩٤٤ ،
ص ٨٩ - ١٢٤ .

الشوكانى :
١٠١ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - جزءان ، القاهرة
سنة ١٣٤٨ هـ .

عباس العزاوى (المحامى) ،
١٠٢ - تاريخ العراق بين احتلالين - الجزء الأول (حكومة المغول) ، بغداد
١٣٥٣ هـ = ١٩٣٥ م .

١٠٣ - للتعريف بالمؤرخين فى عهد المغول والتركمان - الجزء الأول (٦٠١ -
٩٤١ هـ = ١٢٠٤ - ١٥٣٤ م) ، بغداد سنة ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م .

العدوى : ابراهيم أحمد (دكتور) ،
١٠٤ - العرب والتتار ، المكتبة الثقافية رقم ٨٨ ، القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

العيريني : السيد الباز (دكتور) ،

١٠٥ - المغول ، بيروت ١٩٦٧ م .

على ابراهيم حسن (دكتور) ،

١٠٦ - تاريخ الممالك البحرية ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة

الثالثة ، القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

فايد حماد عاشور (دكتور) ،

١٠٧ - العلاقات السياسية بين الممالك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ،

نشر دار المعارف بمصر ، القاهرة سنة ١٩٧٦ م .

فؤاد عبد المعطي الصياد (دكتور) ،

١٠٨ - مؤرخ المغول الكبير : رشيد الدين فضل الله الهمداني ، القاهرة

١٣٨٦ هـ = ١٩٦٧ م .

١٠٩ - السلطان محمود غازان خان المغولي واعتناقه الاسلام ، الطبعة الأولى ،

نشر مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٣٩٩ = ١٩٧٩ م .

١١٠ - المغول في التاريخ ، القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

الفزويني : زكريا بن محمد بن محمود ،

١١١ - آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر ، بيروت سنة ١٩٦٩ م .

القفقشندي : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ) ،

١١٢ - صبح الأعشى في صناعة الانشا ، الجزء الثامن ، القاهرة

١٣٣٣ هـ = ١٩١٤ م .

كرد علي ، محمد :

١١٣ - الاسلام والحضارة العربية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

١١٤ - خطط الشام ، الجزء الثاني ، الطبعة الثانية ، بيروت

١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م .

الكازروني .

١١٥ - مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية نشر كوركيس عواد وميخائيل

عواد ، بغداد سنة ١٩٦٢ م .

كاهن ، كلود :

١١٦ - تاريخ العرب والشعوب الاسلامية - المجلد الأول ، نقله الى العربية الدكتور بدر الدين القاسم الأستاذ في جامعة دمشق ، نشر دار الحقيقة للطباعة والنشر في بيروت ، الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٩٧٢ م .
كريمير (فون) :

١١٧ - الحضارة الاسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية ، ترجمة الدكتور طه بدر ، نشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

كوبريلى ، محمد فؤاد :

١١٨ - قيام الدولة العثمانية ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، نشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٧ م .
لام ، هارولد :

١١٩ - چنگيز خان وجفافل المغول ، ترجمه الى العربية مئرى أمين ، نشر مكتبة الانجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٢ م .

لسترانج ، ج Le Strange :

١٢٠ - بغداد في عهد الخلافة العباسية ، نقله الى العربية بشير يوسف فرنسيس ، الطبعة الأولى بغداد سنة ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م .

لين بول ستانلى Stanley Lane - Poole :

١٢١ - تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، الجزء الثانى ، نقله عن التركية الدكتور أحمد السعيد سليمان ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

١٢٢ - بلدان الخلافة الاسلامية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ١٩٥٤ م .

محمد حسين المظفرى ، الشيخ :

١٢٣ - تاريخ الشيعة ، نشر مكتبة بصيرتى ، قم ، ايران ، سنة ١٣٦١ هـ .
مزاوى ، ميشيل :

١٢٤ - تاريخ ايران بين المغول والصفويين ، مقال منشور بمجلة كلية الآداب

جامعة طهران ، العدد ٧١ ، السنة ١٧ ، طهران سنة ١٣٤٨ هـ . ش . ،
ص ٨٨ - ٩٤ .

مصطفى طه بدر (دكتور) :

١٢٥ - محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي
المغول ، الجيزة سنة ١٩٤٦ م .

١٢٦ - مغول إيران بين المسيحية والاسلام ، القاهرة سنة ١٩٤٧ م .

المقريزي : تقى الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) ،

١٢٧ - الخطط المقرئية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ،
بيروت سنة ١٩٥٩ م .

١٢٨ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة ،
القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٤ - ١٩٣٩ م .

الفرشخي : أبو بكر محمد بن جعفر (ت ٣٤٨ هـ) ،

١٢٩ - تاريخ بخارى ، عربي عن الفارسية الدكتور أمين عبد المجيد بدوي
ونصر الله مبشر الطرازي الطبعة الثانية ، نشر دار المعارف ، القاهرة
سنة ١٩٧٧ م

النسوي : نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشي ،

١٣٠ - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، نشر وتحقيق حافظ أحمد
حمدي ، القاهرة ١٩٥٣ م .

ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي (ت ٦٢٦) ،

١٣١ - معجم البلدان ، نشر وستيفلد ، ليبزج ١٨٦٦ - ١٨٧٠ م .

اليوسف ، عبد القادر أحمد (دكتور) ،

١٣٢ - علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ،
نشر المكتبة العصرية ، صيدا/بيروت لبنان ، سنة ١٩٦٩ م .

١٣٣ - كتاب الحوادث الجامعة وهو مجهول المؤلف ، حوادث سنة ٦٥٦ هجرية .

١٣٤ - كتاب مختصر أخبار الخلفاء وهو مجهول المؤلف وينسب خطأ
لابن الساعي ، بولاق ١٣٠٩ هـ .

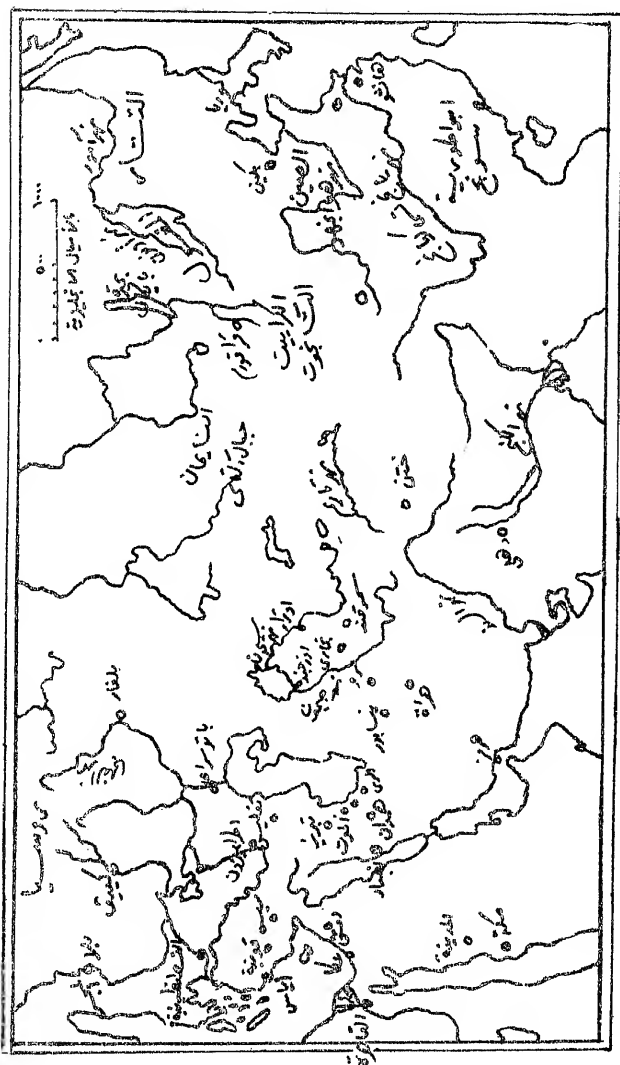
ثالثا : المراجع الأوروبية

- Atiya, A.S.;
135 — The Crusade in the Middle Ages, London, 1939.
- Barthold;
136 — Turkestan down to the Mongol Invasion, London, 1928.
- Bloch, E.;
137 — Introduction à l'Histoire des Mongols de Fadlallah Rachid Ed Din, Lyden, 1910.
- Boulger, D. C.;
138 — The Mongols and the Court of Kublai Khan, Universal History of the World Vol. V, PP. 2847 - 2860.
- Budge, E. A. W.;
139 — The Monks of Kublai Khan, Emperor of China, London, 1928.
- Cahen, G.;
140 — "Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin III, Orient Latin et Commerce du Levant", dans le Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg, 9e Année, No. 8, 1951.
- Cahun, L.;
141 — Introduction à l'Histoire de L'Asie, Turcs et Mongols des origines à 1405. Paris, 1896.
- Chabut;
142 — "Relation du Roi Argoun avec l'Occident", dans la Revue de l'Orient Latin, Vol. II, P. 571.
- Curtin, J.;
143 — The Mongols' History. Boston, 1908.
- D'Ohsson, M. Le Baron;
144 — Histoire des Mongols depuis Tchingiz-Khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, Amsterdam, 1834 - 5.
- Douglas;
145 — The Life of Jenghiz Khan; Translated from Chinese, London, 1877.

- Glubb, J.;
- 146 — The Lost Centuries 1145 - 1453, London, 1937.
- Grekov, B. and Iakoubovski, A.;
- 147 — La Horde d'Or (trans. into French by Thuret), Paris, 1939.
- Grenard, F.;
- 148 — Gengis - Khan, Paris, 1935.
- Grousset, R.;
- 149 — L'empire des Mongols, Paris, 1945.
- 150 — L'empire des Steppes, Paris, 1948.
- Haenisch, E.;
- 151 — Die Latzen Feldzuge Cingis Han's und sein Tod'in Asia Major, Leipsic, 1932.
- Howorth, Sir Henry;
- 152 — History of the Mongols, London, 1876 - 88.
- Lamb, H.;
- 153 — Genghiz Khan, Emperor of All Meen, London, 1965.
- Martin, H.D.;
- 154 — The Rize of Chingis Khan and his Conquest of North China. Baltimore, 1950.
- Pelliot, Paul;
- 155 — Les Mongols et la Papaute, dans la Revue de l'Orient Chrétien. Vols. XXIII, XXIV XXVIII., Paris, 1922 - 32.
- Pelliot (Paul) et Masse (Henri);
- 156 — Les Mongols et la Papaute (Lettre de Guyuk au pape Innocent IV) facsimile et traduction de la lettre Rev. Orient Chrétien t. III (XXIII) pp. 3 - 30.
- Piquet, J.;
- 157 — Les Bankuiers du Moyen Ages: Les Templiers, Paris, 1939.
- Quatremere;
- 158 — Histoire des Mongols de la Perse, Paris, 1933.
- Runicman;
- 159 — A History of the Crusades, Vol. III, Cambridge, 1959.

- Setton, K.m.;
- 160 — A History of the Crusades (2 vols.), Pennsylvania, 1958.
- Strakosch - Grossmann, G.;
- 161 — Der Einfall der Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242, Innsbruck, 1893.
- Sykes, Percy;
- 162 — A History of Persia, London, 1921.
- Vambery, A.;
- 163 — History of Bokhara from the Earliest Period down to the Present, London, 1873.
- Vladimirstov;
- 164 — The Life of Ghingis - Khan, London, 1930.
- Walker, C. C.;
- 165 — Jenghiz - Khan, London, 1939.

1870



المحتويات

٢٧٣ (م ١٨ - تاريخ الدولة المغولية)

چنكيز خان الى الخوارزمشاه بعد عودته من العراق -
توثيق معاهدة تجارية بين المغول والخوارزميين - تبادل
التجار والتجارة بين الدولتين - اينال خان ومذبحة
أوترار ، مبرراتها ونتائجها .

الفصل الثالث : حملات چنكيز خان على الدولة الخوارزمية

استعدادات الخوارزمشاه وخططه - خطة چنكيز خان في
حربه مع الخوارزمشاه - الاستيلاء على سمرقند - فتح
المغول اقليم خوارزم - المغول في خراسان - خضوع
الاقليم الغربية من الدولة الخوارزمية للمغول - المغول
في غزنة - السلطان جلال الدين منكبرتي يهزم المغول -
الخلاف بين قادة الجيوش الاسلامية والاهتمام بمشاكلهم
دون مواجهة العدو - جلال الدين منكبرتي يفر الى
الهند كلاجئ وطريد - نهاية چنكيز خان .

الباب الثاني

الفصل الرابع : المقاومة الاسلامية بعد وفاة چنكيز خان

غياث الدين شيرشاه وحكمه لبعض اقاليم الدولة
الخوارزمية الجنوبية والغربية - استيلاء شيرشاه على
اقليم فارس - عودة جلال الدين منكبرتي من الهند -
الخلاف بين الأخوين جلال الدين منكبرتي وغياث الدين
شيرشاه - انتصار جلال الدين منكبرتي على أخيه -
زوال الدولة الخوارزمية على أيدي المغول - قتل
جلال الدين منكبرتي - عوامل زوال الدولة الخوارزمية .

الفصل الخامس : حملة هولاكو على ايران والقضاء على

الاسماعيلية والخلافة العباسية

المغول من چنكيز خان حتى هولاكو خان - انتخاب
أوكتاى خاقاناً للمغول - كيوك خان - منكوقا آن -
حملة هولاكو على ايران - اعادة فتح خراسان - اخضاع

الاسماعيلية - مصر ركن الدين خورشاه وشعبه - توجه
هولاكو لفتح بغداد - سقوط الخلافة العباسية - مصرع
الخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد - وقع
انتصارات هولاكو على الدويلات الاسلامية المجاورة
لبغداد - أسباب سقوط بغداد - نتائج سقوط
الدولة العباسية .

الفصل السادس : حملة هولاكو على الشام . . . ١٣٧ - ١٥٠
حالة البلاد الشامية قبيل غزو المغول - خضوع الملك
الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق لهولاكو -
فتح ميفارقين - فتح حلب - فتح دمشق - هزيمة
المغول على أيدي المصريين في موقعة عين جالوت -
وفاة هولاكو خان .

الباب الثالث ١٥١ - ٢٤٩

الفصل السابع : إيلخانات فارس من عهد أباقا حتى بايبدو

(العصر الوثني) ١٥٣ - ١٨٩
أباقا خان - حروب المماليك والمغول في بلاد الشام -
الظاهر بيبرس يهزم المغول في أبلستين - سياسة أباقا
خان الداخلية - السلطان أحمد تكودار - معاداة المغول
لتكودار لاسلامه - أرغون يتزعم المغول ويحارب
أحمد تكودار - قتله - أرغون خان - وزارة سعد الدولة
اليهودي - سياسة أرغون خان الخارجية - سفارة
ربان سوما للبابا والدول المسيحية في أوروبا - وفاة
أرغون خان - كيخاتو خان - الجاو كعملة متداولة في عهد
كيخاتو - انشقاق في البيت المغولي الحاكم في ايران -
قتل كيخاتو - بايبدو يتولى العرش الإيلخاني - غازان
يفاز بايبي الحكم - هزيمة بايبدو وانتصار غازان .

صفحة

الفصل الثامن : المغول في ايران من عهد غازان الى نهاية

- الدولة الايلخانية (العصر الاسلامي) ١٩٠ - ٢٣١
- غازان خان - اسلام غازان - اسلام المغول - انفصال
مغول ايران عن الدولة المغولية الأم - سياسة غازان خان
الداخلية - نهاية الأمير نوروز - نهاية الوزير صدر
جهان - علاقة غازان خان بالمماليك حكام مصر والشام -
موقعة الخازندار - استيلاء المغول على دمشق - هزيمة
المغول وطردهم من سورية - تبادل المراسلات بين
غازان والناصر محمد - موقعة مرج الصفر - وفاة غازان
خان - رأى في السلطان محمود غازان خان - أعماله
واصلاحاته .

محمد خدابنده أولجايتو - أولجايتو وانتصاره
للمذهب الشيعي - سياسة أولجايتو الداخلية
والخارجية - وفاة أولجايتو - أبو سيعد بهادر خان
واعتلائه العرش الايلخاني - الأمير چوبان وامرة
الأمرء - استغلال الأمير چوبان منصبه في توطيد
نفوذه - نهاية الجوبانيين - أبو سعيد وانفراده بالسلطة
بعد القضاء على نفوذ الجوبانيين - سياسة
أبي سعيد الخارجية .

الفصل التاسع : الايلخانات خلفاء السلطان أبي سعيد

- ٢٤٢ - ٢٤٩
- حالة الدولة الايلخانية بعد موت السلطان أبي سعيد
المفاجيء - أريا خان - أريا خان يقدم على قتل بغداد
خاتون أرملة السلطان أبي سعيد - النزاع بين الأمرء
المغول وأريا خان - هزيمة أريا خان وقتله - موسى
خان - نهايته - محمد خان - الأمير شيخ حسن برزك
وامرة الأمرء - معركة آلاطاغ وهزيمة شيخ حسن برزك
على يد شيخ حسن كوچك - السلطان الناصر محمد بن
قلاوون يطعم في ضم بلاد فارس الى دولته - طغاتيمور

صفحة

خان - ظهور السريداريين على مسرح السياسة في
 خراسان - ساتى بيك - نهاية حكمها - شاه جهان
 تيمور خان - سليمان خان - قتل الأمير شيخ حسن
 كوچك - أنوشيروان العادل آخر حاكم مغولى في ايران -
 وفاته - انقراض الدولة المغولية في ايران .

مراجع الكتاب ٢٥٠ - ٢٦٩

المراجع الفارسية : كتب - مقالات - المراجع العربية -
 المراجع الأوروبية

الفهرس ٢٧٣

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

١٩٨١ / ١٥٦٨

دار نشر الثقافة

٢١ ش. كامل صدي (البحالز سابقا) القاهرة

تليفون ٩١٦٠٧٦

MEYAS/11

Bibliotheca Aevanaria



0314081

79.